

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر - بسكرة -
كلية الآداب واللغات
قسم الآداب واللغة العربية



دلالات المكان في الخطاب القرآني دراسة في الأنساق الثقافية والمعرفية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في الآداب واللغة العربية
تخصص: نقد قديم

إشراف الأستاذ الدكتور:

بشير تاويريريت

إعداد الطالب:

فيصل بلحاج

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
الأمين ملاوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة بسكرة	رئيسا
بشير تاويريريت	أستاذ التعليم العالي	جامعة بسكرة	مشرفا ومقررا
إلياس مستاري	أستاذ التعليم العالي	جامعة بسكرة	مناقشا
زهيرة بولفوس	أستاذ التعليم العالي	جامعة جيجل	مناقشا
آمال منصور	أستاذ التعليم العالي	جامعة بسكرة	مناقشا
حياة معاش	أستاذ التعليم العالي	جامعة ب اتنة 1	مناقشا

السنة الجامعية: 1444-1445 هـ / 2024-2025 م



كلمة شكر

أتقدم بالشكر للمشرف الفاضل الأستاذ
الدكتور

بشير تاوريريت

على جهوده القيمة وفضله الكبير في إثراء
البحث

كما أتقدم بالشكر الجزيل لأعضاء لجنة
المناقشة لقبولهم مناقشة هذا البحث لقسم
اللغة العربية وآدابها جامعة محمد خيضر
بسكرة

إلى النور الذي أنار دربي والسراج
الذي لا ينطفئ نوره

والدي العزيز

وإلى من جعل الله الجنة تحت أقدامها

والدتي الحبيبة.

إلى ضلعي الثابت وأمان أيامي إلى قرّة
عيني أخواني الغاليين.

إلى زوجتي الكريمة

أمّهم الله جميعاً بوافر الصحة والعافية
والستر

إلى كل من كان عوناً وسنداً في هذا الدرب.

فجزاكم الله عني خير الجزاء.

مقدمة

مقدمة:

كلّ الكلمات تنفذ إذا أردت أن تصف كلام الله، لقد سُمّي بالذّكر، لما فيه من ذكرى للعباد، وسمّي الفرقان، لأنّ فرق بين الحقّ والباطل، وسمّي قرآنًا لأنّه كشف أنواع الغمّة، وتنقّس به

الخلق، وصار النّاس به أمة.

لا نعجب إذا كثرت الدّراسات لهذا النّص المعجز، فهو منجمّ كثيرة معادنه، وبحرّ مختلف درّه، هو كالماء المالح، كلّما ازددت شربًا ازددت عطشًا، لقد أخذ لبنًا، ومتّع ألسنتنا، ونحن نقدّم هذه الدّراسة التي نعدّها اجتهدًا منّا، وقد اقترحنا لها عنوانًا مفادّه: (دلالات المكان في الخطاب القرآني، دراسة في الأنساق الثقافية والمعرفية)، وكانت لنا جملة من الدّوافع منها ما هي مرتبطة بشخصنا، ومنها ما أملت أسباب نعدّها موضوعيّة:

أما الدّوافع الذاتية:

✓ هي عهدنا مع أنفسنا ومع الله أن نكون خدام هذا الكتاب إلى أن تلقى الله، وندعو الله الثّبات والإخلاص.

✓ حاجة الأمة إلى العودة على الكتاب الخالد الذي لا تفنى معانيه، بل تزداد كلّما اقتربت إليها، وأعملت عقلك فيها.

✓ شغفي الخاص بالقرآن، وحيي للسان الذي أنزل به، ولا أخفي مشاعري حين كنّا نتدارسه في صبانا مع من علّمونا حفظه واتقان تلاوته.

✓ رغبتني في إضافة مادّة علميّة، واجتهاد معرفي أثري به الفكر الإسلامي.

أما عن الدّوافع الموضوعيّة:

✓ قلة الدارسات في الأنساق الثقافية والمعرفيّة وتطبيقاته على النّص القرآني.

✓ الضرورة الملحة إلى إعادة رسم جديد لمفهوم المكان في الخطاب القرآني وفق أطر جديدة غير الأطر الفنية القصصية، أو التي كانت تُعنى بالأماكن المحددة في القرآن، كالمُتعلّقة بسيرة المُصطفى صلى الله عليه وسلم، أو المُتعلّقة بالفِضاءات الغيبية، أو الواردة في النظم الدلالية للسردية القرآنية، كأماكن مذكورة في القرآن ولها بُعد جغرافي أو تاريخي.

✓ تواضع الدراسات المعرفية للآيات الكونية كأماكن وجودية، ورؤية الخطاب القرآني لمسألة النشأة والخلق، وعلاقة ذلك بالدلالة اللغوية والتأويلية للمكان.

✓ انزواء الدراسات السابقة في البعد الجمال للمكان دون الخوض في أبعاده الأخرى، ومنها المعرفية باستتباط ما توصّل إليه العلم الحديث من الكشوفات التي بإمكانها معرفة الزوايا الخطابية الأخرى للقرآن.

✓ الكشف عن الخلفيات الثقافية والمعرفية لأهل التفسير، وتأثيرها على النصّ القرآني.

حوّلنا من خلال هذه الدراسة الإجابة عن جملة من المسائل بشكل تدريجيّ يضاهي ما كان ينتهجه علماءنا قديماً وهو الانتقال الإجمال ثمّ التفصيل في طرح المشكلات والإجابة عنها وهي:

✓ ما مدى توافق المكان كفضاء وظيفي مع الرسالة النبوية؟

✓ هل بالإمكان وضع أطر وأبعاد جديدة للمكان انطلاقاً من الاجتهادات التفسيرية، والأبعاد المعرفية التي توصّل إليها الإنسان؟

✓ ما الدلالات الثقافية والمعرفية للأمكنة في الخطاب القرآني؟

✓ هل يصحّ تسمية النسق المعرفي إعجازاً علمياً للقرآن الكريم؟

✓ لم لا يَنكشِفُ العالم الإسلامي على تأويل واحد للآيات الكونية، وكذا تفسير واحد لها؟

✓ ما دور البعد اللساني في فهم النصوص القرآنية الخاصة بالمكان؟

ولقد فرضت عليّ هذه الدّراسة **خطة بحث** تناولنا فيها مدخلاً وضعناه ضمن **فصل تمهيدِيّ** وثلاثة **فصولٍ**

عالج **الفصل التمهيدي** النقاط التّالية: تأثير المكان في تشكّل العقل العربي قبل البعثة، وبعدها، ثمّ تناولنا البعد الوجودي للمكان وبنيته في النّصّ القرآني، ثمّ بنية المكان القصصي والمكان الجغرافي، وختمنا هذا الفصل التّمهيدي ببنية المكان الغيبي وتناولنا فيه الوصف وتأثيره في تشخيص مقام النّعيم ومقام الشّقاء.

وفي الفصل الأوّل الذي كان عنوانه: الأنساق الثقافيّة للفضاءات المنفردة والمُقتربة:

لأنّنا استنبطنا أنّ الله في كلامه يُفردُ السّماء فتحمّل أنساقاً، وفي الأرض مثل ذلك، وفي الجهة المُقابلة يجمعُ بينها فيجعلها مقترنتان، وتحمل أنساقاً مغايرةً، وجعلنا فيه ثلاث مباحث، تناول المبحث الأوّل دلالات السّماء كفضاءٍ منفردٍ، ودلالات الأرض كفضاءٍ منفردٍ ودلالات السّماء والأرض كفضاءٍ مقترنٍ في المبحث الثّالث، وسبقنا هذا الفصل بتمهيدٍ تناولنا فيه مفهوم النّسق الثقافي كمفهومٍ وكإجراءٍ نقديّ.

ثمّ عرجنا إلى **الفصل الثّاني** منه فتناولنا: **النّسق الثقافي والمعرفي مجتمّعاً لآيات الكونيّة:** لأنّ الدّراسة اقتضت ذلك كما هو موضّح في هذا الفصل، لأنّ أهل التّفكير، وأهل العلوم تطرّقا إلى دلائل هذه الفضاءات كجزء من داخل الفضاء الأوسع وهي السّماء والأرض، فكلّ منهما تناول عرض النّجوم والشمس والقمر، وكذلك عرضوا الجبال والبحار والجنّات ضمن إطارين هما التّفكير والإعجاز العلمي، وكان مُمهّداً بمفهوم المعرفة الإنسانيّة لأنّنا سنتناول فيه ذلك، وكان متكوّناً من ثلاث مباحث وهي: **الأنساق الثقافيّة لآيات الكونيّة، والأنساق المعرفيّة لآية السّماء وما فيها، وآية الأرض وما فيها من أنساق معرفيّة.**

ثمّ تطرّقنا في **الفصل الثّالث** إلى: **الأنساق الثقافيّة والمعرفيّة لنشأة الكون والإنسان:**

وكان ضمن ثلاث مباحث، وتمهيده كان حديثاً عن منهجية القرآن المعرفية، وأمّا مبحثه الأول فكان عن الأنساق الثقافية والمعرفية لبذرة الحياة، والثاني عن النسق المعرفي لكيونة الإنسان، والثالث النسق الثقافي والمعرفي عن الوجدان البشري، أمّا خاتمة دراستنا فكانت جملة من الفوائد التي كانت فرضيات منها ماهية المكان في القرآن الكريم وأبعاده، دلائل المكان معرفياً وثقافياً. بالإضافة إلى توصيات استخلصناها من نقاش الدراسة.

والدراسة لم تكن بمنهج موازنة بل كان منهجاً استقرائياً غير قائم على النقد بقدر ما كان استخلاصاً واستنتاجاً، وبمنهج تحليلي وصفي، استعنا فيه بالتمط الاستنباطي الحجاجي، واعتمادنا على التفسير للاستعانة باستكشاف الانساق الثقافية فاخترنا لكل مرحلة تاريخية تفسيراً لعنا نوفق في استنتاج هذه الأنساق ومنها: (كتاب تفسير القرآن العظيم للعلامة ابن كثير، وكتاب تفسير جامع البيان للعلامة الطبري، وكتاب أحكام القرآن للإمام القرطبي، ومؤلف الرازي للتفسير بعنوان مفاتيح الغيب، وهي كتب تراوحت مادتها المعرفية بين من استعان فيها علماؤها على أقوال الصحابة، واستشهدوا بأسباب النزول، ومنها من راح كتابها يستعينون بأفكار من سبقوهم إما نقداً أو استنبطاً أو استشهداً كالرازي، بالإضافة إلى تفسير المتأخرين مثل كتاب التحرير والتنوير لابن عاشور، وكتاب زهرة التفسير لأبي زهرة، وظلال القرآن للسيد قطب، وقد غلب عليها بشكل مثير ما توصل إليه العالم من أفكار وفلسفات وعلوم، وعن النسق المعرفي استعنا بكتب القدامى في تركية النفس كالعالم أبو حامد الغزالي، وكتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقرويني، وكتب من المتأخرين، ككتاب السماء في القرآن الكريم والأرض في القرآن الكريم لزغلول النجار، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للنابلسي، وكتاب نفيس بعنوان كيف بدأ الخلق لعمر الشریف. بالإضافة إلى عديد الكتب كالمعاجم اللغوية، ومراجع نافعة أخذنا منها ما يضيف علماً نافعا.

وإن كنا قد حرصنا على الإخلاص في العمل، ولكنني أجد حرجًا في ذكر المشاقّ منها ما هو يمسّ الموضوع ونعني به استفاضة وتعدّد مشاريعه فهو محتاج إلى ضبطٍ وقد نال منّا الإرهاق في ذلك، وكذا كثرة المراجع التي لا تخلو من النقص والزيادة في بعض المعاني، والحسابات الفلكيّة، فقد اضطررنا في كلّ مرّة التأكّد من المعلومات، فقد وجدنا من علمائنا من يُولي أهمية إلى وجوه الإعجاز ويغفل عن التدقيق في المعلومة، وكذلك غزارة المادّة المعرفيّة، فاضطررنا إلى أخذ ما يهمنّا من كلّ كتابٍ خاصّة التّفسير، ولكن توفيق الله لا أنساه وفضله لا يمكن حصره بشكر ولا حمد لأنّه هو المُعين في كل هذا الذي اجتهدنا فيه.

كما لا يفوتني أن أقدم جميل الشّكر والعرفان لكلّ من ساهم من قريب أو بعيد في إخراج هذه الدّراسة، وأولهم أستاذي الفاضل تاوريريت البشير حفظه الله الذي ترجع إليه فكرة البحث ومنهجها ومعلوماتها، ولم يبخلني أبدًا فأثابه الله بكلّ حرف حسنة، بالإضافة إلى أهل العلم من الأصدقاء والأحباب والأهل. فبورك في الجميع.

الفصل الثَّمَنِيّ يدي:

1/ أثر المكان في تشكّل العقل قبل الوحي وبَعْدَه:

- أولاً: الذّهنيّة الجاهليّة قبل الوحي:
- ثانياً: العقل العربي بعد نزول الوحي:

2/ بنية المكان الوجُودي في الخطاب القرآني

- أولاً: الفضاء الخارجي للوجود:
- ثانياً: الفضاء الخفي للوجود:

3/ بنية المكان القصصِي والجُغرافي:

- أولاً: المكان القصصِي
- ثانياً: المكان الجُغرافي:

4/ بنية المكان الغنِيّ:

- أولاً: دار النعيم:
- ثانياً: دار الشقاء

❖ 1 / أثر المكان في تشكّل العقل قبل الوحي وبَعْدَه:

➤ أولاً: الذّهنية الجاهليّة قبل الوحي:

يُطْلَقُ عَلَى الْمَرْحَلَةِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَرْحَلَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَحْمَلَ هَذَا الْمُصْطَلَحَ فِي طَيَّاتِهِ أَدَلَّةٌ عَنْ مَفْهُومٍ وَعِيٍّ مُتَقَهَّرٍ أَوْ ذَهْنِيَّةِ الْإِنْسَانِ الْعَرَبِيِّ وَسُلُوكِهِ تُجَاهَ نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ وَكَذَا نَمَطِ تَفْكِيرِهِ، وَعِلَاقَاتِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَقَدْ يَصْدُرُ عَنْ هَذَا الْفَرْدِ الَّذِي يَعِيشُ فِي بِيئَةٍ شَبِهَ قَاحِلَةٍ بَعْضُ التَّصَرُّفَاتِ وَالسَّلُوكِيَّاتِ الَّتِي تَمِيلُ أحيانًا إِلَى اللَّامْعُقُولِ (غِيَابِ الْعَقْلِ)، وَالْمِيلُ إِلَى الْغَرِيزَةِ دُونَ مَنْهَجِ سُلُوكِيٍّ تَتَحَكَّمُ فِيهِ قَوَاعِدُ وَضُوَابِطُ دِينِيَّةٍ أَوْ قَوَانِينُ وَضْعِيَّةٍ، مَا عَدَا مَا يَعْرِفُ بِالْعَرَفِ الْجَاهِلِيِّ، أَيْ الْبَدِيهَةِ الْحَاضِرَةُ لِلْفَرْدِ الْجَاهِلِيِّ، وَالْجَاهِلِيَّةُ مِنْ مَادَّةٍ (ج، هـ، ل) جَهَلَتِ الْقَدْرُ أَيْ اشْتَدَّ غَلِيائُهَا، وَالْجَاهِلُ: الْأَسَدُ، وَجَهْلَ فُلَانٌ عَلَى غَيْرِهِ جَهْلًا وَجَهَالَةً جَفًا وَتَسَافَةً وَالْجَهَالَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ اعْتِقَادُ الشَّيْءِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، جَهْلَ فُلَانٌ جَهْلٌ فَهُوَ يَجْهَلُ عَلَى قَوْمِهِ وَيَتَسَافَهُ عَلَيْهِمْ وَمِنْ الْمَجَازِ اسْتَجْهَلَتِ الرِّيحُ الْغَصْنَ؛ حَرَكْتُهُ، وَنَاقَةُ مَجْهَالٍ: تَخَفٌ فِي سِيرِهَا وَقَالَ النَّابِغَةُ:

دَعَاكَ الْهَوَى وَاسْتَجْهَلْتِكَ الْمَنَازِلُ وَكَيْفَ تَصَابِي الْمَرَّةَ وَالشَّيْبُ شَامِلٌ¹

وَمَعْنَى اسْتَجْهَلْتِكَ اسْتَخَفْتِكَ، وَمِنْهُ فَإِنَّ الْمَدْلُولَ اللَّغْوِيَّ لِلْفَظِ الْجَاهِلِيَّةِ، يَدُورُ حَوْلَ كُلِّ مَا هُوَ عَنِيفٌ أَوْ فِي إِلْغَاءِ لُغَةِ الْعَقْلِ وَالْمِيلِ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ وَإِسْبَاعِ الرِّغْبَاتِ وَاللَّذَّاتِ.

وَقَدْ وَرَدَ لَفْظُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِقَاقَاتِهَا فِي أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ مَرَّةً قَالَ تَعَالَى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ [البقرة: 67])، وَفِيهَا إِشَارَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ تَطْغَى عَلَى الْعَقْلِ فِي غِيَابِ الْحِكْمَةِ، الْجَاهِلِيَّةُ ضِدُّ التَّعَقُّلِ وَالزَّانَةِ وَالْأَخْذِ مِنَ التَّجَرِبَةِ وَالْحَوَارِ الْبَنَاءِ، وَقَالَ أَيْضًا: (يَنَاقِيهَا

¹ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تح عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط1،

2000 مادة جهل.

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ بِبَيِّنَةٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ (الحجرات 6)، وفي الآية تلميحٌ إلى استخدام العقل والتَّريُّث في الحكم على الأشياء، وقال عزَّ شأنه: (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٦﴾) [آل عمران: 154]، وتجدر الإشارة في هذه الآية إلى أنَّ لفظ الجاهلية يحمل مدلول غياب الحياة الروحية والعقيدة السليمة وانعدام التدبُّر والتفكير، وغلبة الجانب السلبي من الإنسان تجاه خالقه، (أَفَحُكَمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾) [المائدة: 50]، ينمُّ هذا الخطاب الربَّاني أنَّ الفردَ الجاهلي لا يملك أيَّ منهج في الحكم على الأشياء بل تقوم حياته على فكرة البقاء للأقوى والسلوك الجمعي يقوم على مبدأ العبد والسيد، والفقير والغني، والقوي والضعيف، وقال عزَّ من قائل: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾) [الأحزاب: 33]؛ تشير الآية إلى كلمة الأولى وقد يكون مقصدها الحياة العقلية للعرب البائدة وهم قوم عاد وثمود، الذين تجاوزوا حدَّ الإسراف في الحيوانية وهذا ضمن إطار السلوك العام الذي يميل إلى الغريزة والفحش، وكذلك صورة المرأة في هذه الفترة التي في نظر الوعي الجمعي للجاهليين أداة لإشباع الرغبات، وقال أيضاً: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾) [الفتح: 26]، والحمية يُراد بها الاندفاع الناجم عن الغضب أو تكاثف أفراد أو جماعة معينة من أجل القضاء على عدوٍّ مشترك، فإذا كان مفهوم الحمية

عند الإنسان في فترة ما قبل الوحي سنة حميدة وكريمة يتحلّى بها الفرد الشجاع والمقدام فإن القرآن الكريم جعلها في مقام الحيوانية والاندفاع الذي يؤدي إلى التهلكة فقد قال عمرو بن كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجْهَلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ¹

فالنّاظر للآيات الكريمة يخلص إلى أنّ معنى الجاهلية يلامس كلّ ما هو دون العقل الفاعل للوعي والإدراك، والأقرب إلى الغريزة أو غيابه التّأمّ سواء في السلوك أو التدبير، أو حتّى في الوجدان النّفسي للفرد الذي عاش هذه الفترة التي يمكن وضع مصطلح لها هي فترة (ما قبل نزول الوحي)، بل ينصاع إلى الغرائز والنزوات، وحبّ التملّك والتسلّط والتعصّب وكلّ ما هو قريب من الشدّة والغلظة، فالعقل الجاهلي هو نمط سلوك وأسلوب حياة فرد بدائيّ متعجرف متصلب، وتجدر الإشارة إلى طرح إشكالية مفادها: هل كان للعرب عقل؟ ومعنى العقل المنهج السلوكي الذي يهذب الغرائز ويعزز السلوك الإيجابي، فإذا كان العقل في نظر فلاسفة الاجتماع هو الوعي الجمعي وتأثيره على الأفراد من خلال الظاهرة الاجتماعية، يبرز هذا العقل ويقوم بإشعاع قهره وتأثيره على عقول الأفراد سلوكياً، كما يتباين حين انفصاله وانصرافه عن بعضه البعض يقول دورايكم: "إنّ نفوس الأفراد حين تتداخل وتشتبك وتمتزج، تولّد كياناً من نوع نفسيّ ولكنّه نوع نفسيّ متميّز خاصّ، إن الجماعة تفكّر وتحسّ وتعمل، خلافاً لما قد يفكّر فيه ويحسّ به ويعمله الأشخاص كما لو كانوا منفردين"²، فيمكن الحكم بأنّ العقل العربيّ كان حبيس الفردانية والتعصّب والميل إلى التسلّط، وتقديم الشهوة مكان الحكمة، والعصبية على الحلم إلّا في النادر، ويمكن أن نستثني بعض الحكم التي أملتّها ظروف البيئة، ونوائب الدهر التي أيقظت مضاجع الفرد الجاهليّ، ولا يخفى أهل الأدب والنقد وجود غرض الحكمة في عمود الشعر العربيّ القديم ونجد أبياتاً لزهير ابن

¹ عمرو ابن كلثوم، الديوان، تح اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط1، 1991، بيروت، لبنان ص78

² إيمائيل دوكايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، تر محمود محمود قاسم، راجعه السيّد محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1 1988م، ص44.

أبي سُلَمَى يتحدثُ فيها عن وعيٍ ونضجٍ فكريٍّ لكنّه وليدُ الذكاءِ الفرديِّ والتَّجربةِ الطَّويلةِ والعبرُ التي استقاها من الرّزايا التي كانت تمسُّ القبيلةَ، ولا يمكنُ أن ندرجها ضمنَ العقلِ الجاهليِّ لأنّها حدثٌ عابرٌ شادٌّ يُؤخذُ ولا يُبنى عليه، ونرى أخلاقاً سائدةً عندَ الجاهليينَ كالكرمِ والشّجاعةِ وإغاثةِ اللّهفانِ ولكنّ هي في الأصلِ وليدةُ البيئةِ العربيّةِ التي تُملي عليهم هذه التّجاربُ الحميدةُ نظراً لما يلاقيه الإنسانُ من مشاقِّ السّفرِ وصعوبةِ العيشِ وقساوةِ الطّبيعةِ، وهذا لا يمنعُ من أن هذا العقلِ قابلٌ للانفصامِ عن هذه الشّخصيّةِ المهزولةِ إذا وجد من يخلّصه من هذا الوحلِ الغرائزيِّ أوّلاً ثمّ الاقتناعِ بمنهجِ سلوكيّ سليمٍ لا يُخلفه ثانياً، كما يمكنُ لهذا العقلِ أن يتجرّدَ من الأسبابِ التي جعلته متخلّفاً ومنها البيئةُ القاحلةُ السّرمديّةُ التي لا أثرَ للجمالِ فيها، وهي بيئةٌ قاسيةٌ خشنّةٌ انعكستُ على سلوكِ هذا الفردِ، فكما كانت تقولُ العربُ كُنّا نطعمُ الرّملَ ونشربُ الرّيحَ، فالبحثُ عن الكلأِ والطّعامِ كان أحدَ الأسبابِ لنشوبِ الحروبِ والنّارِ، فالمكانُ لعبَ دوراً أساسيّاً في تشكّلِ ذهنيّةٍ سلبيةٍ في المجتمعِ، إن فكرة النّارِ التي تميّز بها العقلُ الجاهليُّ وليدةُ تصلّبِ الأذهانِ النّابعِ من قساوةِ الصّحراءِ والرّعبِ الذي تحمله بسببِ الاندفاعِ نحو البقاءِ، وأنّ مسألة الرّزقِ عند العقلِ الجاهليِّ إنما يكونُ بالغلبةِ والتّفوقِ، ونرى حروباً طاحنةً كان سببها الماءُ والكلأُ، ومنه كان لزاماً الرّجوعُ إلى العقلِ الواعي الذي يدركُ أنّ مسألة الرّزقِ إنّما هي تكون بالعملِ والأخذِ بأسبابه وليس بالغزو، ولهذا لا نكادُ نرى اكتشافاً أو شيئاً من الابداعِ الفكريِّ أو الصّناعيّ نالته أيديهم وبرعَ فيه عقلهم بالرّغم من أنهم كانوا في أمسّ الحاجةِ لذلك، وهذا راجعٌ لضعفِ التّفكيرِ وانحباسِ العقلِ في جوِّ الصّمودِ أمامَ الطّبيعةِ وانساقِ الفردِ الجاهليِّ وراءَ الأسبابِ التي تجعلُ منه إنساناً متوحّشاً تتسكّبُ فيه مدلولاتُ الحيواناتِ المفترسةِ كالضّباعِ والذئابِ وغيرها، ولا ريبَ في أنّ كثيراً من الشعراءِ يتفاخرونَ بمعاشرتهم لهذه الكائناتِ كالشّنفري وغيره، ونجدُ العربَ قد سمّتْ أبناءها بأسماءِ الحيوانِ كحيدرةَ، وضرغامَ، والحارثَ، ونجد قبائلَ بأسماءِ الحيوانِ كقبيلةِ بني أسدٍ، وقد سمّى وائلُ ابن ربيعة نفسه كليلاً لما تولى الملكَ كما سمّى ولده الجرو تيمّناً بصفاتِ الكلبِ كالوفاءِ والحراسةِ على الحدودِ والممتلكاتِ، إن

هذا التماثل والتماهي مع الطبيعة شكل ذهنيّة متصلبةً مُشبعةً بالغرائز وحبّ الذات والسيطرة على الآخر، والبُعد عن الوعي والابداع وفي هذا فخرٌ لهم، والفضاء الجاهليّ ولّد هذه الذهنيّة كسلوكٍ لِمَا للبيئة من تأثيرٍ واضحٍ على ذلك.

➤ ثانيا: العقل العربيّ بعد نزول الوحي:

ألم نر أن الوحيّ قد وقع على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في فترةٍ كان فيها متأملاً متدبراً في الوجود سارحاً في معالم هذا الكونِ باحثاً عن اليقين والحقيقة التي لا يشوبها الشكّ والتّخمين، واختار الهروبَ لمكانٍ مناسبٍ يركنُ إليه العقلُ ويكونُ بعيداً عن تخلفِ النّاسِ لأنّ الوحدةَ تجعلُ الإنسانَ يرتاحُ لما يُملِيه عليه ضميره وينصتُ لما يختلجُ في نفسه فيدخلُ العقلُ في تفكيرٍ عميقٍ يبحثُ فيه عن أسبابِ الوجود، فغار حراءٍ كان محطةً فارقةً في حياة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأنّه المكانُ الذي يتواصلُ به مع ذاته البريئة النّاصعة، إن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو في خلوةٍ بنفسه في غارٍ مهجورٍ لدليلٍ على هروبه من سذاجة العقلِ الجاهليّ الذي كان يميلُ إلى الحيوانية وإشباع الغريزة، فهو الرّجل الوحيدُ الذي أدرك أن العالمَ الذي من حوله ليس كما يعتقد العقلُ القرشي، الذي يرى أن فكرة الخالقِ يجب أن تكونَ ملموسةً تكون على مرأى الأعين ومسمع الآذان، فقد انحرفَ العقلُ العربيّ وطاب له المقامُ في غياهبِ الظلال بالرّغم من وجودِ الدّيانة الإبراهيميّة الحنفيّة في الجزيرة العربيّة واتّخذوا الشّرك والأوثان سبيلاً للعبادة وهذا ظلّم ما بعده ظلّم لله وللنفس أولاً وللعقل والمنطق ثانياً، وقد كانت ذهنيّة الجاهليّ تُجاه الإله، انعكاساً لواقعه، فظهر في بعض مناطق الجزيرة العربيّة، اتّخاذ الله أبناءً، ونجد الخطاب القرآنيّ قد تحدّث عن هذه الفكرة في سورة الإسراء قال العليّ الباسط: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبِّرَ تَكْبِيرًا ٣١) [الإسراء: 111]، ولم يرد في هذه السّورة وفي سورة يونس ولا في سورة الكهف حديثٌ عن النّصارى، بل كان خطاباً موجّهاً للعرب في قريش وغيرها، وحدث تطوّر سلبيّ خطيرٌ عندما ظهر على الساحة السياسيّة والدينيّة عمرو

بن لَحْيٍ زعيم قبيلة خزاعة، الذي أحبه النَّاس ودانوا له، ظنًّا منهم أنَّه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء، بينما لم يكن على هذه الصَّورة مطلقاً فقد سافر عمرو إلى الشَّام، ورآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك، وعاد إلى الجزيرة العربية ومعه هُبْل، أحد الأصنام في الشَّام، وجعله في جَوْف الكعبة، وكان هُبْل من العقيق الأحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى فأدركته قريش على تلك الهيئة، فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أول صنم للمشرِكين وأعظمه وأقدسُه عندهم¹.

إنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلَاة والسَّلام أنكرَ ضحالةَ هذا العقلِ الذي يُفسِّر بعضَ الظَّواهر بالخرافة، وأنَّ مفهوم العبادة تكونُ في أصلِ الأشياء، والبحثُ عن الحقيقة المجردة (البحث عن الله) أولاً، وقبل أن تكون ردَّة فعل هجينةٍ متمثلةٍ في الاستجابة للميول؛ فكفَّار قريش كانوا يصنعون التماثيل من أجل عبادتها وذلك للتخلُّص من فكرة مزعجةٍ حسب تفكيرهم الضيق وهو أن العالم يحكمه إله، بل نحن من نتمكَّن من الحياه بفرض منطقنا و فهمنا للأشياء، بل يجب أن تكون هذه الآلهة بيننا، قريبةً ممَّا نعلم ما تصنعه بنا، إن صناعة الأوثان من تمرٍ مثلاً أو من طين، بالرَّغم من سذاجة هذا السلوك المضحك فهو في الآن ذاته دليلٌ على محدودية العقل عند هذا الإنسان، وأن مفهوم الإله لدى هذا النمط من التفكير هو مصدر طمع لقضاء الحاجات، وملجأً روحيٍّ ونفسيٍّ قريبٌ وملموسٌ يمكنُ من خلاله إفراغ تلك الشحنة والطاقة السلبية عندما يحتاجُ إلى إفراغها، أو أنه نافذة لقضاء الحاجات الدنيوية البالية التي تفتنى بمجرد الإشباع منها، وإذا سألته عن مفهوم القدرة والقوَّة، في مقابل الضَّعف البائن عند هاته الآلهة التي صنعها بيده أنكرَ ذلك وانصرف هذا العقل إلى العناد والغرور أحياناً، والشذوذ الذهني، ولأجل ذلك فالرسول عليه الصلاة والسلام كان العقل الوحيد الذي انصرف عن هذا المفهوم الضيق لفكرة الوجود والخالق، إنَّما العالم تحكمه ضوابطٌ وقوَّةٌ ومقدرة بعيدة عن فكرة الأوثان، وأنَّ ليس بالضرورة أن يكون الله هو مكمن الطَّمع وقضاء الحاجة، بل ضرورة

¹ هشام ابن محمد الكلبي، الأصنام، دار الكتب المصريَّة، ط3، 1995، القاهرة مصر ص 27، 28

ملحة لمعرفة، بينما إشباع الرغبة البيولوجية هو في النهاية تحصيل حاصل، مدام هذا الكون بكامله تحت تصرفه بالضرورة.

إن أثر المكان ظاهر وجلي، فغار حراء يحمل مدلول نسق الخلوة الذي يستدعي التفكير السليم وهو مكان لجأ إليه النبي صلى الله عليه وسلم هروباً من عقل سخيّف كان في وسطه، إذ لا يمكن التدبر في الكون والانطلاق في رحلة البحث عن الله في نمط تفكير ضيق وسخيّف، فهذا الغار هو المكان الطبيعي الذي كل شيء فيه يدعو إلى التأمل والتدبر، هو محاولة الفرار بالنفس، والبحث عن طريق آخر ومسلك لإقناع هذا العقل المتمرد (الذي تمرّد على العقل القرشي) في أنّ فكرة وجود الله وقدرته العظيمة ليست مجرد أداة ووسيلة من أجل الوصول إلى الغرض بل هو الغرض في حد ذاته، فالإيمان بوجود خالق واحد غير متعدّد، وأنّ هذا الخالق له من القوة والمقدرة أن يجعل هذا العالم كاملاً تحت تصرفه، لهو الأجدر بأن يُعبد، ويبدو أنّ الخلوة فكرة يُمارسها العقل الواعي والسليم، والاختلاء بالنفس عملٌ مستحبّ في السّنة النبوية، إذ ما كان في طاعة الله، وهو البحث عن مكان خالٍ من كلّ المؤثرات، ويرتأخ فيه العقل الذي يريد أن ينجو من الضلال والجهل بالحقيقة، ونرى كثيراً من الآيات القرآنية التي تدعو إلى إعمال العقل كما أن القرآن يمدح العقل الباطن الواعي بمكامن الحقيقة فنجدّه يسمّيه التّهيّ واللّبّ وفي أحيانٍ أخرى يطلق عليه لفظ القلب.

وتكمن جمالية المكان (الغار)، في أنّ أول كلام نزل على النبي صلى الله عليه وسلم نزل في فضاء خالٍ من الضوضاء و الشّغب مستورٍ وهادئ، وكأنّ هذا المكان بمثابة القبر الذي يلاقي فيه الإنسان ربّه، وكذا استجابة إلهيّة في مقابل الفرار من الضلال، ولا يكفي الاعتقاد بوحدايّة الله، والذي يعد انتصاراً للعقل الواعي المتدبّر وحده، بل لابدّ له من علم؛ ولهذا نجد أو آية نزلت لها علاقة بالعلم قال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾) [العلق:1]، نزل جبريل عليه السلام في غار حراء، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرأ"، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي

الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ فَأَخَذَنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝) [العلق: 1 2 3 4 5¹، أَنَّ الطَّرِيقَةَ الَّتِي أَجَابَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثِيرَةٌ لِلانْتِبَاهِ، أَوَّلًا نَزُولُ الْوَحْيِ كَانَ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا الرَّسُولُ فِي حَالَةٍ صَفَاءٍ لِلذَّهْنِ، وَلِلْعَقْلِ الْوَاعِي، وَثَانِيًا رَدَّةُ فِعْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَفْوِيَّةٌ نَابِعَةٌ مِنْ صَدَقِهِ، وَلِلْعِلْمِ مَكَانَةً فِي الدِّينِ الْحَنِيفِ لِأَنَّهُ الْمَسْلُوكُ الْوَحِيدُ الَّذِي عَلَى الْمُسْلِمِ اتِّبَاعُهُ مِنْ أَجْلِ مَعْرِفَةِ خَالِقِهِ؛ وَمِنْهُ فَإِنَّ الْوَحْيَ هُوَ عَمَلِيَّةٌ مَسْحُ كُلِّهِ لِلْعَقْلِ الْجَاهِلِيِّ، وَعَمَلِيَّةٌ انْدِفَاعِيَّةٌ قَوِيَّةٌ، الْغَايَةُ مِنْهَا إِثَارَةُ وَعْيٍ جَدِيدٍ مُتَقَرِّدٍ فِي مَنْهَجِهِ وَسُلُوكِهِ وَالَّذِي يَتَّسِمُ بِالْعِلْمِ؛ أَيْ اسْتِخْدَامَ لِلْأَحْلَامِ (الْعُقُولِ) بَعِيدًا عَنِ الْمَيُولِ وَإِشْبَاعِ الرِّغْبَاتِ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ يَصْطَدِّمُ هَذَا الْعَقْلُ الْوَاعِي الصَّلْبُ فِي كَيْنُونَتِهِ بِالْعَقْلِ الْخَرَافِيِّ الْمُتَعَجِّفِ الْقُرْشِيِّ الَّذِي يَتَّسِمُ بِالصَّلَابَةِ وَالشَّدُوذِ فِي سَيِّطَرَتِهِ عَلَى الْأَحْكَامِ الَّتِي تَهْمُ الْإِنْسَانَ فِي دُنْيَاهُ، وَلِهَذَا نَجِدُ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِهِ رَمَوْهُ بِالسَّحَرِ؛ لِأَنَّ السَّحَرَ فِي نَظَرِ الْعَقْلِ الْقُرْشِيِّ السَّاذِجِ هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الْمَأْلُوفِ وَهَذَا الدِّينَ الْحَنِيفِ فِي نَظَرِهِمْ؛ تَمَرَّدًا عَلَى مَا اعْتَادُوا عَلَيْهِ مِنَ السَّلُوكِيَّاتِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْإِنْسَانِيَةِ بَلْ هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ وَرَمَوْهُ بِالذَّجْلِ وَالْخَرَاةِ وَالْجَنُونِ؛ إِذْ لَا يَسْتَجِيبُ هَذَا الْعَقْلُ الرَّاشِدُ لِمَا يَرُونَهُ تَمَسُّكًا بِعَادَاتٍ وَأَعْرَافٍ الْأَجْدَادِ وَمَا أَلْفَوْهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَسْمُنُ وَلَا تَغْنِي مِنْ جُوعٍ.

إِذَا فَالْعَقْلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَلِيٍّ جَادٍ مَثِيرٌ لِلْبَاطِنِ مُتَمَرِّدٌ عَلَى النَّزَوَاتِ وَالشَّهَوَاتِ وَعِبَادَةِ الذَّاتِ، وَالْإِسْلَامُ لَقِيَ رَدَّةً فِعْلٍ قَوِيَّةً رَافِضَةً لِفِكْرَةِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ أَيْ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ، وَهَذَا الرِّفْضُ طَبِيعِيٌّ لِعَقْلِ يَقْدَسُ الذَّاتِ، فَأُضْحَى الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ بَعْدَ نَزُولِ

¹ محمد ابن اسماعيل البخاري، الصحيح، تح جماعة من العلماء، المطبعة الكبرى الأميرية، دار الكتب العلمية،

بيروت لبنان، ط1، ج6، ص 173

الوحي نموذج سُلْطَوِيٌّ متفوق على العقل الجاهلي، إذ دعي إلى عبادة الواحد الأحد، وصارت فكرة الإله متجلية واضحة بهذه الرسالة الربانية من لدن الله مباشرة إلى رسوله عليه الصلاة والسلام عن طريق الوحي المنزل من الله فيه كلام ثقيل بالمعاني ليتدربوا آياته ويعملوا على إعمال العقل، فالهداية صارت باتباع شخص يعرف عن الله ما لا يعرفه الجميع من حوله، ومنه فإنّ الوحي هزّ كيان العقل الجاهليّ، وجعله يظهر بالياً خاوياً لا ترى منه إلا الخلق الدميم، وبعد نشر الإسلام في فترة النبي صلى الله عليه وسلم، وأتمّ الدعوة خُلفاؤه الرّاشدون من بعده، صار هذا الهدى إراثاً ومنهجاً يتّبع، قال العزيز العليم: (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْغُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ [الحج: 67])، إنّ العقل في هذه الفترة بلغ أقصى درجات النُّضج، وليس فقط نموذج ديني سليم وصحيح باعتراف الشرائع السابقة التي كانت من حوله، أمّا الدين فهو الإسلام دين الله في أرضه وهو الصّراط الوحيد المخلّص للعبد يوم الحساب، بل بات العقل المدبّر ومحلّ قُدوة عند كثير من الأمم بعدما كان الفرد العربيّ متحكّم فيه من طرف الحضارتين (الفارسية، والرومانية)؛ أي خاضعٌ لكسرى وللقيصر بات هو من يصنع السُّلطة والحضارة ومُهاب الجانب يخشاه كلُّ النّاس، ومنهج الرسول عليه الصلاة والسلام في استخدام هذا العقل يكمنُ في مواطن عدّة منها هجرته من مكّة إلى المدينة فراراً إلى الله، لأنّ الهجرة أو الهُجران هي فكرة سليمة منبعها الوعي ومُحاولة التّغيير الذي يرى فيه المهاجر نفسه فاقداً لطاقته في مجابهة الجهل والدّمائة من وقاحة الخلق، فالعقل السّليم يجد راحته عند الابتعاد والفرار لا المواجهة العقيمة، فهجرة النّبي صلى الله عليه وسلم على مرارتها وألمها الوجدانيّ، فهي منهجُ تفكيرٍ صحيح، وعملية إدراكية غاية في الحكمة، فهو البحث عن مكان آمن لاستمرار، وهذا الحال كان له الأثر البائن في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد استقبل النّبي صلى الله عليه وسلم بحفاوة أهل يثرب ودعوه لكل ما لذ وطاب، وجعلوا منه الإنسان المنتصر أو الفاتح الأعظم، ولكنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم لم يفكر تفكير الملوك ولا تصرّف بسلوكهم؛ بأن يصنع لنفسه قصرًا مشيّدًا به خدَمٌ وحشَمٌ وجواري وغيرها من متع

الحياة الزائلة، بل فكر في أصحابه فأمر بتقاسم التعم بين المهاجرين والأنصار، وأمر ببناء مسجد للعبادة، ومن هنا اتخذ منهجين في بناء حياة الفرد وبناء المجتمع؛ أوله أن الإنسان لا يمكنه العيش بمفرده بل يقوى بأخيه فكّر في فكرة التضامن والوحدة، وهذا يتجسد في العبادة فالمسجد قائم على فكرة الجماعة ومحاربة الفردانية والأنانية، والرسول صلى الله عليه وسلم كان همّه بناء الرجال، وبناء أمة، وأمّا الثاني استثماره في العقول التي آمنت بالله وحده، والتي هي بدورها راحت تفتح الأمصار وتنتشر الإسلام، لأنّه كان يُدرك تمامًا أنّه سيفنى ولكن كان حريصًا على بقاء الفكرة واستمرارها، فبقي هذا النموذج من التفكير المتعالي عن الذات في صحابته، حتى صار يضرب المثل في كثير من الأخلاق التي تحلّوا بها، كالعدل في شخص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والصدق عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والشجاعة تجلّت في خالد ابن الوليد رضي الله عنه، والدّهاء وحسن التدبير في شخص عمرو ابن العاص رضي الله عنه وهكذا.

قد نتساءل لماذا مكة دون غيرها من البقاع كالقدس مثلاً؟ ولماذا العرب دون غيرهم من الأمم كفارس أو الروم، والمثير للفضول هو البحث عن أثر المكان في الإسلام، والإجابة عنه يحمل شقين أوله خاصّ بالمكان وطبيعته والثاني خاصّ بالعرب لما لهم من قراءة ثقافية وعقلية يختلفون بها عن الأمم المجاورة لهم.

تحمل مكة (المكان) فضاءً خاصًا لممارسة العبادة، فهي ليست مكان مجرد من التاريخ بل هي مكان للعبادة أصلًا ؛ لأنّ بها بيت الله الحرام، وقيل إنّ الملائكة هي أول من وضعت أساسات الكعبة المشرفة، فمكة المكرمة شرفها الله بالعبادة منذ خلق الله آدم عليه السلام فهي محاطة بجميع الأماكن المقدسة ففيها مقام إبراهيم عليه السلام، وبها البيت المعمور يقول الإمام ابن كثير: "أمر الله إبراهيم - عليه السلام - أن يبني له بيتًا، يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السماوات، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السماوات والأرض، كما ثبت في الصحيحين: إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم

خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة¹. قال تعالى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾) (البقرة الآية 127 / 128)، ومن خلال استشفاف المعاني الرقيقة لهذه الآية نجد أن مكة المكرمة هي أرض الإسلام ومكان محرم رفيع مقامه ثابت أصله شريف غايته، فهي مرتع الأنبياء، ومأوى جبرتهم، وأساس التوحيد، والعاقبة لا تكون إلا للتوحيد وشريعة الإسلام فيه، وتحمل مكة المكان جماليات ومميزات تختلف عن غيرها من البقاع فهي خير البلاد وأكرمها، إليها تهفو القلوب، وفيها ترتاح النفوس، وعندها يحطّ الخائفون رحالهم، ونحوها يتّجه العابدون فيشكون إلى الله حالهم، ويسألونه نجاتهم، هي موطن العبادة والإنابة، فيها أول بيت وضع للناس قال تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا مطمئنا، محفوظا من كل كرب قال الله تعالى (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾) [آل عمران:96]، مكة ذلك البلد الأمين الذي يأتيه الخير والرزق من كل مكان، يُساق إليه، ويُجلب استجابة لدعوة أب الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، كما أخبر الله بذلك في كتابه العزيز، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾) [البقرة:126]، ومن فضائلها أن الله اختارها لمولد نبيه الخاتم ومبعثه صلى الله عليه وسلم، ففيها بدأ نزول القرآن الكريم، الكتاب الخاتم، ومنها بدأت دعوة الخير والحق، وقد أوجب الله على المستطيع من الناس الإتيان إليها من كل مكان، ودخولها بالتواضع والتخشع والتدلل، كاشفين رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا قال الحق سبحانه: (فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ

¹ ابن كثير، قصص الأنبياء، دار الفحاء، دمشق، سوريا، ط1، 1421هـ، 2001م، ص152-153.

سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ [آل عمران: 97]، فإن الله قد جعل هذا المكان آمنًا إلى يوم القيامة وهذا من النعم الربانية التي لا نجدها في أي موضع من الأرض حتى البيت المقدس والمسجد الأقصى لم يُمنح هذه الكرامة قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ [البقرة: 126]، ومما اختصت به مكة المكرمة أنها بلد الله الحرام، المحرمة من الشرك وأهله ومن عبدة الطّاغوت، وهذا تشريف عظيم يضاهي في مكانته الجنة التي وعدها الله لعباده المتّقين قال تعالى: (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ [النمل: 91]، فلا يُسفك فيها دم، ولا يُصاد صيد، ولا يُعضد شجر، ولا يُقطع نبات، ومن بين الفضائل التي بمكة، أن الأجر مضاعف فيها، والصلاة بالمسجد الحرام خيرٌ من مائة ألف صلاة في غيره من البقاع ، وقد نجد البعض يطرح هذا السؤال لماذا لم يُبعث الرسول في فارس أو الروم أو في فلسطين كغيره من الأنبياء الذين ذكروا في القرآن؟ أو حتى في مصر مثل سيدنا موسى عليه السلام؟ يعود الجواب إلى ما سبق ذكره استعداد العقل النبوي إذا صحّ المدلول إلى التفوق على العقل العربي الجاهلي، وكذلك لا يمكن أن ينتشر الإسلام في بيئة ساد فيها الكفر وبلغ مبتغاه في الحدّ الأقصى له، فملوك الفرس منهم من ادّعى الألوهية والربوبية، واتخذوا من النار إلها يعبد، فقد تكون البعثة إلى هناك مسألة مرهقة، ولا يمكن أن ينجح الإسلام بمثل ما هو ناجح في الجزيرة العربية والعبرة بالخواتيم، ولا يمكن أن يستبدل أهل الرّوم المسيحية بالإسلام، لتقارب الرسالة أولا والحسد الذي يكون في قلوبهم من أنّ الإسلام بزعمهم يحمله رجل من أتباعهم أو ملّتهم، فتجارب الوحي أثبتت أن الدّعوة إلى عبادة الله قد استنفدت سبلها فقد بعث الله أنبياءه إلى الملوك كإبراهيم للنمرود ، وموسى وهارون لفرعون، أو الأنبياء الذين أرسلوا إلى أقوام تمرّدوا على الفطرة ، وابتعدوا عن القيم والأخلاق، بالإضافة إلى أنبياء أرسلوا إلى بني إسرائيل ومنهم

الروم وآخرهم عيسى عليه السلام، ورسّل بعثوا بطرق مختلفة ومنهاج متعددة ومعجزات شتى، ولكن الفئة القليلة هي الناجية، ولفتة مهمة لا يمكن اغفالها وهي أنّ الرّسالة النّبوية أرادها الله خالدة وخاتمة لجميع الرّسالات، فلا بد أن تكون في أرضية خصبة لذلك ومكان يضمن الاستمرارية بعد الرّسالات المختلفة بأنماطها المتعددة، إنّ العقل الجاهلي بالرغم من سذاجته فهو قليل الحيلة وتوجد في مكانه معيار القابلية ونراها في أخلاقهم، وإذا كان الإسلام في مبدئه أخلاقي فالعرب لهم من الأخلاق تجعلهم خيرا من الأمم الأخرى، كالّدود عن العرض، واستغاثة اللّهبان، وإكرام الضيّف.

كان الوضع في الجزيرة العربية هو الوضع المناسب لقيام الإسلام، تجربة الإسلام في هذا الفضاء تجربة ناجحة، فالأرضيّة صالحة لذلك؛ لأنّنا رأينا الإسلام ينتشر بسرعة عجيبة وبثباتٍ أعجب؛ ففي غضون سنواتٍ قليلةٍ لا تُحسب في التاريخ بشيء، وصل الإسلام من أقصى الأرض إلى أقصاها، ليس هذا فقط، بل دخل الناس في دين الله أفواجا، راغبين غير مكرهين، مختارين غير مجبرين، الإسلام بنى الإنسان في جوهره وسلوكه ومنهج حياته، والفرد العربي هو الأصلح لذلك، لما فيه من استعداد لتقبل هذه الرّسالة، ولا يهم أن يدخل الناس جميعا ولكن الأهم أن تستمر هذه الرّسالة وأن تلقى النّجاح المنوط بها، إنّ الرّسالة من الممكن أن تُحقّق نجاحا ذاتيا، لأنّها عظيمة في ذاتها، وتصلح لكلّ زمان ومكان، ولكن من منظور وضعيّ وواقعيّ هو بناء الأمة وما هو أوّل بناء، وما سمات الرّقعة التي يقع فيها الإسلام نريد أن نعرف لم اختار الله سبحانه وتعالى هذه الرّقعة من الأرض لوضع الأساس لهذا المشروع الناجح (الإسلام)؟ ما مواصفات هذا المكان؟ ما ظروفه؟ ما طبيعته؟ فإذا عرفنا ذلك فإننا قد نستطيع أن نستخرج قواعد في غاية الأهمية لإعادة بناء الأمة الإسلاميّة على أساس صحيح، وسندرك بعدها أي بيئة ستكون أصلح لنشأة هذا الدين وتمكينه، ونحن ندرك أنّ الحكمة الكاملة وراء اختيار المكان لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، لكن الحكمة هي أنّ أهل هذه البقعة من الأرض كانوا يؤمنون بالله عزّ وجلّ،

ويعلمون أنه خالق، ولكنهم حكموا غيره في حياتهم، واتخذوا إليه شفعاء، قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾) [الزخرف: 87]، (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾) [لقمان: 25]، (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾) [الزمر: 3]، فالذي يؤمن بالله، ولكن هناك اضطراب في فهمه، وقصور في إدراكه أقرب من الذي يؤمن بإله آخر، أو لا يؤمن بوجود إله أصلاً، لم يكن في الأرض وقت البعثة النبوية الشريفة من يفقه هذه الحقائق إلا أقلُّ القليل، كان هناك من يعبد المسيح، وهناك من يعبد النار، وهناك من يعبد بوذا، وفي الهند كان هناك من يعبد بقرةً أو شجرةً أو فأراً أو قرداً، ومنهج الله في دعوته إليه قائم على الحوار أولاً والجِدال ثانياً، أما بالنسبة للمدعو إليه فهذا يكون بالذي يؤمن بوجود الله قبل الذي يُنكر وجوده، والذي يرى بأن هناك خالق أوجد هذا الكون قبل الذي لا يرى ذلك أبداً، وأهل الكتاب أولى بالدعوة من غيرهم من الأقباط.

الوضع الثقافي في مكة المكرمة خاصّة والجزيرة العربية بصفة عامة، لم يكن فيها فلسفات أو منهج حياة قائم على قوانين وضعية، ولم يكن فيها تشريعات مركبة، ولم يكن فيها أحكام مفضّلة، ولا حتّى قوانين منظّمة للحياة الاجتماعية، إنّما هي حياة بسيطة إلى أبعد درجات البساطة، بينما كانت الحضارات المعاصرة لها ذات أفكار مرتّبة، وفلسفات خاصّة، وتاريخ طويل على الوضع التالي: فالدولة الرومانية كان لديها قوانين وتشريعات في مختلف المجالات، وبالطبع كان فيها ظلم وإجحاف، ولكنّها في العموم قوانين تغطي مجالات الحياة، أما الإغريق فكانوا مهد الحضارة وبناء الدولة بمقوماتها، فهم من أسسوا نظام التشريع ومقومات التّداول على السلطة، وجعلوا الحكم للشعب (الديمقراطية)، كما ظهر فيها فلاسفة كبار لهم فلسفات خاصة كسقراط وأفلاطون وأرسطو، وإذا ألقينا نظرة على الحضارة الفارسية

وجدناهم على وعي نسبيٍّ لمفاهيم الأشياء، و بنوا عمرانهم على هندسة فريدة ولديهم فلاسفة كمزادك (صاحب فكرة الشيوعية) وزرادشتية، أما الهنود فكانوا يرنون إلى حكمائهم طبقاً لأفكارهم، وكان لهم قانون وضعي لهم، ونالوا حظاً وافراً من علم الأحياء والطبّ، وأمّا مصر لديها تاريخ طويل وقوانين وتشريعات يحتاج الإسلام إلى سنوات عديدة حتى يلغي تلك القوانين والمفاهيم، والعقل الفرعوني صلب هائج لا يتقبل الآخر الدليل أنها لم يصدم بالثقافة اليونانية أو الرومانية، ولا غيرها من الثقافات، فهو عقل يرنو دوماً للتاريخ والأجداد والأسلاف، ويقّس هذا التاريخ، أما القرن الإفريقي فإن لهم حضارة مخالفة تماماً لتعاليم الإسلام، كما أن أتباع المسيحية كثير، والخلاصة من كل هذا، فقد نشأت الرسالة في مكان يعتبر بلا تاريخ ولا وضع ثقافي يُذكر، اللهم إلا الشعر، لكن حتّى الشعر لم يكن له دور فعّال، أو أهمية خاصة في إنشاء الأمة أو الدولة بل هو موروثٌ ثقافيّ نابعٌ من الترف الفكري، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف نظم الشعر رغم بلاغته وفصاحته صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾) [يس: 69]، أي لا يصح له أن يقول الشعر، وليس ذلك لأنّ الشعر حرام، ولكن لكيلا يختلط على الناس الأمر، فاعتقدوا أن القرآن نوع جديد من الشعر ساقه الرسول صلى الله عليه وسلم من عنده، وكذلك كان المهاجرون على فصاحتهم لا يقولون الشعر إلا قليلاً؛ فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، كان معظمهم لا يقول الشعر، ولم يظهر للمسلمين شعراء إلا بعد تثبيت أركان الدولة الإسلامية في المدينة، فظهر من الأنصار شعراء ومنهم كعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم.

نقاء الرسالة جعلتها لا تختلط بأفكار أخرى سابقة، وهنا قد يتهمها الناس بأنها مجرد تطوّر لمعتقدات معيّنة، وقواعد خاصّة وضعوها منذ آلاف السنين، قد يحثّ بعضها على معنى أو فضيلة معينة فيأتي الإسلام فيزكّيها أيضاً، ولكن مع شيء من التحوّل والتغيير، فقد

يبحث بعضهم على الصدق، أو الزهد في الدنيا والأمانة، فإذا جاءت هذه الأفكار في الإسلام جعل الآخر يعتقد أنها مجرد تطوّر لأفكار الفلاسفة، وقد ادّعى بعض أعداء الإسلام هذا الادّعاء رغم بُعد الرسول صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء الفلاسفة، وعلى الرغم من كونه صلى الله عليه وسلم أمياً وقت نزول الرسالة، فكيف تكون الحال إذا نزلت الرسالة في بلدٍ مملوءٍ بالفلاسفة والمفكرين، ليس ضعفاً في الإسلام، ولكن قد يُنسب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جملة هؤلاء الفلاسفة، فلا تكاد ترى أتباعاً، و قد ترى فلاسفة آخرون يدعون إلى إلهٍ آخر زَعَمًا منه أنه أبدع مثل قرينه، كما أنّ هناك أمراً آخر مهم أيضاً هو ضمان عدم تسرّب بعض هذه الأفكار والفلسفات إلى الإسلام شيئاً فشيئاً دون دراية المسلمين بذلك، فيختلط الصّواب بالخطأ، والحق بالباطل، و لوحظ بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أفكاراً تُسببت إلى عليّ رضي الله عنه أو إلى ابن مسعود وابن عمر و ابن عبّاس رضي الله عنهم، ونسوا اجتهاد المسلم في فهم دينه، إنّ الجزيرة العربيّة رغم خلوها من الفلسفات والأفكار القديمة، إلا أن جماعة المسلمين فيها احتاج جهداً كبيراً لإلغاء عادة مثل التبني، فقد استلزم الأمر طلاق الصّحابي الجليل زيد بن حارثة رضي الله عنه من زوجه زينب بنت جحش رضي الله عنها، ثمّ زواج النّبي صلى الله عليه وسلم منها، كلّ ذلك لإحداث هزة في المجتمع لإلغاء هذه العادة، فكيف لو كان البلد حافلاً بالفلسفات وأصحابها ما انفكوا يدّعون ذلك.

إن الله عز وجل يُريد أن يحفظ نقاء الرسالة، ولعلّ هذا هو السرّ في عدم نزول الرّسالة في فلسطين أو أرض الكنعانيين، ذلك حتى لا تصبح الرّسالة مجرد امتدادٍ لليهوديّة أو النّصرانيّة، وبقاء الجزيرة العربيّة على عُزريّتها الفكرية هي محلّ بقاء الرسالة، ومحل افتخار للعرب، إنّ عدم استجابة يهود المدينة للرسالة المحمدية هي ردة فعل مليئة بالحقد والحسد بزعمهم أنهم شعب الله المختار، وأن الناموس (جبريل) الذي نزل على موسى وعيسى ويوسف ويعقوب لا يكون إلّا منهم، ولو كانت الرّسالة منهم لَلأقت نفس التّعنيف الذي كان من قبل

ونفس التحريف، وما دَوَّنَته أيديهم الوضيعة، نعم أصول التَّوْحِيدِ واحدة هي من لدن الله، ولكن الإسلام أتى بتشريع كامل متكامل يحكم الدُّنْيَا والدِّينَ، كما أنَّ اليهودية والنصرانية قد حُرِّقَتَا بدرجة كبيرة جدًّا، ولم يعد أحد يدري أين الصَّحِيح من المزوَّر.

أراد الله سبحانه أن تُنَزَّلَ الرِّسَالَةُ في مَكَّةَ ليس فلسطين، حتى لا يدَّعي أحد أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد مزج بين التوراة والإنجيل، وحَرَّفَ فيهما قليلاً وغيرَ، وصنع منهما الإسلام، إنَّ كَفَّارَ مَكَّةَ قد ادَّعوا ذلك على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فادَّعوا أنَّه يأخذ القرآن من غلام نصراني، فكيف لو نزلت الرسالة في بلدٍ مملوءٍ بأهل التوراة والإنجيل كفلسطين؟، لذلك نزلت الرسالة في بلدٍ ليس فيه أي نوع من الثقافات السابقة أو القوانين أو التشريعات. كل هذا ليبقى الدين في النهاية نقيًّا خالصًا (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ [الزمر: 3])، وعليه أمكننا أن نفهم النَّهي المتكرَّر الصَّريح والجازم الذي جاء في القرآن الكريم بخصوص قضية اتباع الآباء، فهذا أمر سارٍ في الثقافات التي تمَّ ذكرها سابقاً، لاشكَّ أنَّه ستكون هناك تقاليد معيَّنة في مَكَّةَ، ومعتقدات خاصَّة عند السَّابِقِينَ، فلو اختلطت هذه المعتقدات (وإن كانت قليلة) بالإسلام، فإنَّ ذلك لا يضمن بعد ذلك وضوح الرؤية ونقاء الرِّسَالَةِ، قال الله سبحانه وتعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ [البقرة: 170])، ليس هناك نقطة واحدة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم عشوائية، بل كل نقطة بحساب؛ فإنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم سيصير قُدْوَةً لكل المسلمين؛ لذا لا بدَّ أن تكون كل خطوةٍ في حياته محسوبةً بدقَّة.

❖ 2/ بنية المكان الوجودي في الخطاب القرآني:

➤ أولاً: الفضاء الخارجي للوجود:

القرآن كلامٌ موجّه للعقول هدفه الهداية إلى التّوحيد، المعرفة بالله الخالق الإله الرّبّ الذي يتّصف بأوصاف جعلها أسماءً له سبحانه، ومنهج القرآن في التعريف بالله منهج قائم على تقديم أثر الله في الكون، ومسألة الكون مسألة غاية في الأهمية لأنه خُلق من أجل الإنسان ومسخرّ له، و لهذا نجد المكان في الخطاب القرآني ينقسم إلى أشطار متعدّدة وتقاسيم كثيرة مكان دنيويّ ومكان غيبيّ، ليس ملموساً تدرّكه الحواس، ولا حتّى في الخيال، فبمجرد ذكر لمفوضات العذاب تتذكر جهنم، وكذلك الحال بالنسبة لمفوضات النعيم، فإنّك تتخيّل الجمال والراحة والطّمأنينة والسّكينة، ونقصد بالمكان الدنيويّ (السّماء الأرض وما يحوي كلّ منهما)، فالسّماء تحمل النّجوم والأجرام والسّحاب، وأمّا الأرض تحمل الجبال والبحار والسّهول والمروج والصّحاري، وكلّ مكان يجمع بينها مقصد واحد وهو أنه مسخرّ للإنسان، ويسلك القرآن الكريم منهج بيان العقيدة السّليمة على أوجه عديدة فهو يرسم معالم الإنسان المسلم انطلاقاً من وجدانه الفطري، ولذلك نرى القرآن الكريم يُولي أهمية بالغة لهذه الفطرة فنراه يُذكره بها حيث قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾) [الأعراف:172]، فكلّ مولودٍ يُولد على الفطرة السّليمة ولهذا نجد القرآن يثير هذه الفطرة بأسلوبه المُعجز، ويزيل الغشاوة التي تطمس على القلب ويثير انتباهه، ويزيل الغموض عن ذهنه الغافل، ويَعْرِض آيات الله في الكون في صورة حيّة ينفعل بها الوجدان كأنها جديدة يشهدها الإنسان لأول مرة، وحين ينفعل بها الوجدان ويتأثّر، ويتحرك الخيال لتتبع المشهد المعروض وتتحرك المشاعر بشتى الانفعالات، عندئذٍ يوجّهه (أي القرآن الكريم) إلى أن وراء هذه المشاهد كلّها قدرة الله المعجزة، وأن صانعها وبارئها هو الله، سبحانه وتعالى؛ فينبغي إذًا عبادة ذلك الإله القادر، والتوجّه إليه وحده بالعبادة دون سواه، فنرى الله

تعالى يذكر الإنسان بما حوله من الفضاءات كاخضرار الأرض واصفرارها، وتحرك النجوم، وكيفية نزول الغيث، وهبوب الرياح، ونسيم الصبح، وغشاوة الليل، وجمال الطبيعة في الحيوانات الموجودة بمروجها وهيأتها في سكونها ومرعاها، هذه الأماكن يجول بها القرآن لا لشيء إلا ليلمس قلب الإنسان فيرنو إلى خالقه ويعتقد جازماً أن صانعها هو الله، لأنّ مردّ ما يحيط به إنّما وليّها الله تعالى يتصرّف فيها كيفما شاء ومتى أمر، وإن أراد أهلكنا جميعاً فنحن جميعاً له راجعون، واليه المولى والمُعْتَبَر.

نظراً لشرف المكان وأهميته فقد أقسم الله به، فمن ذلك قسمه بالشمس وهي جرم والضحى وهو زمن ناتج من فعلها، قال تعالى: (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١) [الشمس: 1]، ثم قسمه بالقمر، قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝٢﴾ [الشمس: 2]، ثم قسمه بالسّماء وذاته العليّة التي بنت السّماء، قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ۝٥) [الشمس: 5]، ثم قسمه بالأرض وذاته التي مهدتها، قال تعالى: (وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ۝٦) [الشمس: 6]. كما أقسم ببعض النجوم، من ذلك الطارق الذي يطلع ليلاً، قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ۝١) [الطارق: 1]، وقسمه بالنجم الذي ينقض ويهوي، قال تعالى: (وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝١) [النجم: 1]، كما أقسم قسماً عظيماً بمواقع النجوم في السّماء، قال تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦) [الواقعة: 75-76]، كما أقسم ببيت المقدس وما حوله من شجر، قال تعالى: (وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ۝١) [التين: 1]، وأقسم بطور سيناء، قال تعالى: (وُطُورِ سِينِينَ ۝٢) [التين: 2]. وأقسم بمكة، قال تعالى: (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣) [التين: 3]، وقال: (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١) (البلد: 1) وأقسم قسماً جامعاً بما تمتدّ إليه عين الإنسان من مكان وما يحتويه ذلك المكان، أو بما لا تمتدّ إليه أعينهم قال تعالى (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ ۝٣٨) وَمَا لَا تُبْصَرُونَ ۝٣٩) [الحاقة: 38-39]، والقسم بالمكان دليل على حرمة وأهميته وشرفه، والله أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس للعباد إلا أن يقسموا به وحده لأنه خالق الحدث والزمان والمكان وهو السميع العليم.

إذا ألقينا نظرة ثاقبة وأحصينا أنواع المكان المذكور في القرآن لوجدنا أنفسنا أمام مشاهد مختلفة، فيأخذك القرآن أحيانا لأماكن متناهية في الكبر كالأرض والسماء والجبال والبحار وغيرها، أو متناهية في الصغر كبيت العنكبوت وبيت النحل، وفي مواطن أخرى نجد المكان القصصي وكيفية تصويره تصويرا عجيبا، ويكتف الوصف فيه حتى كأنك تعيش القصة بتفاصيلها، كالكهف، والجب، والقصر، وإذا خضنا في أماكن السيرة النبوية في القرآن لوجدناه يلامس حياة النبي صلى الله عليه وسلم ويرافقه فقد ذكر مكة (موطنه) ومسجدها الحرام، وجبالها ويثرب مكان الهجرة ومواطن الغزوات وغار ثور وكل مكان حطّ فيها النبي رحله أو وقع فيه حدث وظيفي في سيرته كموقع (تحت الشجرة) وسبحان من تحدّث عن هذا التدقيق العجيب، ويؤخذنا إلى عوالم الغيب ليمتحن قلوبنا ومراتب التقوى وتركية النفس، فيسرح بخيالنا في جنات الخلد ومقامها الحسن الفريد، وترعب قلوبنا مشاهد جهنم ومقامها الغليظ. ولكن لماذا يركز القرآن على آيات الكون؟، والكون كلمة دالة على الكينونة والوجود وهي على قسمين وجودٌ ظاهري بيّن للمشاهدة ووجود خفي لا تراه الأعين، والكينونة في الفهم الوجودي كائن مخلوق ومرئي من صنع الله تعالى، وكل شيء يتصل بهذا المفهوم فهو من الكون، والإنسان ضمنه إذ كان في محتواه؛ فهو على الأرض يسرح فيها ويحي فوقها فهو جزء من هذا الكون، ونجد بأن الله تعالى قد أقسم بكثير من الآيات الكونية، والآية العلامة أو المؤشر أو بمعنى أدق البرهان والأثر على وجود الخالق الواحد قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) [الواقية: 75]، فمواقع النجوم ليست من حياة الإنسان أو ضرورة من ضروريات حياته ولكن يضرب الله بها مثلا ليبين أنّ الإنسان لا يرى هذه المواقع، ولكن الله يذكرها تبياناً وتذكيراً لمحدودية علم الإنسان أمام علم الله وأن الله هو العليم، وأنّ البشر لا يعلمون أسرار هذا الكون ودعوة ضمنية للبحث في مكنوناته وأسراره، فالخالق وحده هو الذي خلقها ودبرها، فالموقع لا يعلمه إلا هو وهذا دليل وأثر على وجود المنعم سبحانه، ومن الفوائد التي نستشققها من ذكر آيات الكون عديدة نذكر منها:

✓ آيات الله في الكون فيها دعوة للتدبر والسير نحو اليقين والإيمان القاطع الجازم بربوبية الله وألوهيته وقوته وعظمته التي هي موجودة في أثر نعمته قال تعالى (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَّا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾) [الذاريات: 20-23]، هذا الذكر مبني على الاستدلال والبرهان، النظر إلى ما حول الإنسان والنظر كذلك لنفسه وما يختلج بدنه لدليل جازم على قوة هائلة تدقق في تفاصيل كل مخلوق.

✓ فائدة عظيمة من ذكر آيات الكون وهي استنهاض عقل الإنسان للعمل والاستفادة من هذه النعم مادامت مسخرة لأجله، فحليّ بالإنسان أن يبحث عن مكامن الفائدة والمنافع من الكون مدام الله قد خلقها له، وبأخذ بأسبابها، وفي هذا كذلك عبادة الله تعالى، ونوع من الحمد والشكر له سبحانه، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الثُّجُومَ لِيَتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾) [الأنعام: 95-99].

ومن الفوائد التي نستشفها من ذكر آيات الكون في القرآن أنها منبع رصين لضرب الأمثال في وجوه عديدة؛ فمثلاً للعبارة والعظة، ومن ذلك قوله تعالى: (أَوَ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْٓ عَٰذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ

وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ [البقرة:19]، فقد أورد الله في هذه الآيات النار والظلمات والصَّيْبَ يعني (الغيث)، والرَّعد والبرق والصَّوَاعِقُ، وهذا المثل ضربه الله تعالى للمنافقين في تسترهم بظاهر الإسلام وحققهم دِماءهم بما أظهروا، فمثل ما تسترّوا به من الإسلام كمثل النار التي يَسْتَضِيءُ بها المستوقدُ، وقوله: (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ)؛ أي كشف المستور عنهم، وإِطلاع الله المؤمنين على كفرهم، وتبيان نفاقهم فقد ذهب منهم نور الإسلام بما أظهر الله عز وجل من كفرهم.

وقد يكون ذهب الله بنورهم في الآخرة، أي: عَذَّبَهُمْ، فلا نور لهم؛ لأن الله جلَّ شأنه قد جعل للمؤمنين نورًا في الآخرة، وسلب الكافرين ذلك النور، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الحديد عند حديثه عن أحداث الآخرة: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿٣٣﴾ [الحديد:13].

وقوله تعالى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ) وهنا ينصرف بتمثيل آخر لزيادة الكشف والإيضاح، فإذا كان قد شبّه المنافق بالمستوقد النار فإنه قد شبه دين الإسلام بالغيث؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وشبّه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرَّعد والبرق، وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصَّوَاعِقُ، وفي هذا مماثلةٌ بأمرين: أولهما أنه سبحانه وتعالى شبّه حالهم بحال قوم أصابهم مطرٌ شديد ينصب عليهم انصبابًا، صحبه غمام بعد غمام، فيه ظلمة بعد ظلمة، وفيه رعد وبرق، وفيه الإنذار بالعذاب الشديد، فهم في خوفٍ ووجلٍ يحسبون كلَّ صيحةٍ فيها هي الموت، ويجعلون أصابعهم في آذانهم حذرًا منه، وفي هذا تصويرٌ لنفسٍ منافقة، فهي نفس تائهة فارغة، دائمًا لا تستقر على أمر، ولا تطمئن على قرار، فهم في اضطراب؛ لأنهم لا يؤمنون بشيء، والإيمان هو المطمئن دائمًا، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

فإذا كان التشبيه السابق يصوّر حالهم في طلب الدليل وعدم الأخذ به؛ لغلبة الهوى، وسيطرة الشهوة، والجحود الموروث، فهذا التشبيه يصوّر حالهم من هلع مستمر، وخوف من غير مخوف، ولذلك يقول بعض علماء النفس: إنّ النفاق منشؤه ضعف في النفوس.

➤ ثانيا الفضاء الخفي للوجود:

يشارك المكان الخفي والمكان الظاهر في أنّ كليهما لهما منبعّ واحد أي الكينونة والخلقة الأولى والمنبتّ الواحد هو الله تعالى إليه يرجع الأمر كلّ، وأنّ كليهما فضاء فيه نعم الله وأثر وجوده وصفاته من المقدرّة، والعظمة، كما يؤدّيان نفس الوظيفة التي وهبها الله لهما في حدود ما سُمح لهما بأدائه، فإذا كانت الكواكب والسّماوات والأرض منبتّهما واحد فننقّ ورتقّ، كذلك النفس البشريّة فمنبتّها واحد، ولها دورها في الوجود، المكان الخفي خلقه الله من أصل واحد، ثمّ وسّع فيه ونفس الحال بالنسبة للفضاء الكوني، والله جعل لآياته الكونيّة كالسّماء والشمس والقمر، مهمّة في الكون والوجود، فكذا الحال بالنسبة للإنسان، فقد أوجد له مساحة من الوجود ليستغلّ طاقته فيه، فالنفس البشريّة وما تكتنزه من وجدان نفسيّ وعقليّ هي مساحة سخّرها الله للإنسان، والدماغ مساحة عمل وأداء سخّره الله تعالى لتأديّة مهمّة في الوجود.

والإنسان بطبيعته كائن يستغلّ فضاء في الوجود، ودليل ذلك اختلافه في ذاته من حيث العرق والديانة والمساحة التي يستغلّها في الأرض، واختلافه عن سائر المخلوقات، ومرجعيتّه الكونيّة كانت الخلقة الأولى والأصل الواحد، ولعلّ أبرز فضاء للمكان الوجودي هو قلب الإنسان الذي ذكره الله في مواضع كثيرة ونجده في أغلب الحالات مرتبطاً بظرف مكاني، ودليله حرف الجرّ (في)، فالقلب مكان لأنه وعاء يحمل النفس ووجدان الإنسان فنجد كلام الله يبيث فيه أوصاف ومشاهد مختلفة، ويضرب الله به الأمثال ويرد القلب كفضاء يحمل جوهر ومكمن وجود، وفي طياته وبنياته الخطابية الدالة مساحةً سخّرها له الله تعالى لتأديّة

مهمة ووظيفية في الوجود تشترك مع فضاءات أخرى كالسَّماء والأرض والتَّجوم والجبال تحمل وظائف ومهام كثيرة:

✓ العقل، وذلك في مثل قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾) [ق:37] ؛ أي: الإدراك التام للحقيقة المنافية للخرافة والدجل والشرك فهو قلب زكيّ حي ذكيّ، يتذكّر إذا سمع كلام الله، وإلا فوجوده من عدمه سواء؛ لأنه معطل عن جانبه الحسيّ والإدراكي، قائم بدوره الجسماني فقط، وهذا شائع بين أهل الكفر والضلال، فغياب الوعي والتجاوب مع اليقين الملاحظ والمرئي البائن الذي لا يشوبه زيف يقابله بالضرورة قلب منيب.

✓ الحرية والرأي: قال جل في علاه: (لَا يُقْتَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾) [الحشر:14] ، وذلك مثل ضربه الله لأهل الشرك بمشاربهم المختلفة سواء كانوا من أهل قريش أو من يهود المدينة الذين حالوا أن يتفقوا ويواجهوا معاً رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، والإسلام كدين، ولكن لم يفلحوا مردّ ذلك شقاقهم ونواياهم المتضادة، وتوجهاتهم المتناقضة، ونفوسهم المريضة التي لا تحبّ الخير إلّا لنفسها، فغياب القلب المحبّ للخير والذي يُسبق المنفعة العامة على المنفعة الخاصة، يجعل الإنسان أنانيًا خائبًا في النهاية، الثالث: حقيقة القلب الذي هو مصدر كل بصيرة وحكمة ورزانة ورجاحة وحسن تدبير وتفقه في الحياة وشؤونها وموطنه ومكانه الصّدر فهو منبع كل رأي وتصرف أو تحليل أو حكم على تجربة وبه يُمتحن الإنسان، قال تعالى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾) [الحج:47-47] ، وهذا كله يناقض النظرية القائلة بأنّ العقل وظيفته الإرادة والتفكير.

والقلب وظيفته العاطفة والأحاسيس الوجدانية، فالعقل نابع من كل متراكم و متداخل موطنه وأرضه التي يُزرع فيها الصدر وما يَحْمِلُهُ من تجارب وأحكام وشعورٍ وأحاسيس وإدراك وذاكرة وذكاءٍ، وخلاصة الذكر حول مفهوم القلب هي: أولها قد يطلق على القلب العقل أو الوعي والإدراك وقوة الاستتباط، ومحلّها القلب وهي وسيلة وجهاز وظيفيٌّ مثلما أُطلق على الأذن السَّمْع، فسمّيت الجارحة بوظيفتها، وقد تذكر الجارحة والمراد وظيفتها، خاصّة في القرآن؛ لأنّه لم يورد الأدوات من النّاحية التّشريحية بل من النّاحية الوظيفية فقط، غير أن العقل هو أحد القوى الإدراكية والذكاء والذاكرة والفهم وغير ذلك، كما أنّ للّطيفة الربّانية الجانب الثاني وهو العاطفة والوجدان، من شهوات وهوى، ويشرح بسيط يمكن أن يحمل القلب وعاء من المتناقضات؛ العقل وهو المانع، والهوى وهو المريد، وينتج عنهما الإرادة التي يتولّد بعدها العزم، فيصدر القلب الأوامر للأعضاء بتنفيذ المهمّة التي أصدرها؛ كيما تنفذ تلك الإرادة بعد تداولها بين العقل والعاطفة، ونريد بالعقل المعلومات الكامنة بالقلب والعمليات العقلية معًا فالقلب هو أداة وظيفتها المعرفية التّعقل وقوة التّصرف وإصدار الأحكام، وعليها يحاسب الإنسان.

✓ السّلوک: أي قلبٍ يمتلكه ذلك الذي يقتل النّاس ويُنكّل بجثثهم، وأيّ قلب ذلك الذي يمنح النّاس الحياة بعلاجهم والسّهر على رعايتهم في المطعم والمأكل والملبس، يرجع ذلك إلى السّلوک الذي يتّخذه أيّ شخص في حدود تصرّفه خيرا كان أم شرا، ويتخذ القرآن هذا الفهم دليلاً لوصف حال سلوك الكافرين وإعراضهم عن آيات الله أو تكذيبها، ومردّ سلوكهم يظهر في تصرّفاتهم بأن وضعوا الأصابع في الأذان كقوم نوح مثلاً، أو ذلك السّلوک في الهمجي تجاه الخلق في البيع، وتطيف الميزان، أو استغلال الإنسان لأخيه، فكان عقاب الله على القلب كأداة وظيفية تتحكم في سلوك الإنسان وجعل الله قلوب كل هؤلاء (مغلفة، وعليها الرّان، أو مقفلة لا تتقبّل الهداية)، وجلّ أخلاق الإنسان مردّها تلك المساحة التي سخرها الله لعباده، ولو

نأتي بخلق كالصّبر لوجدناه متلازم مع الإيمان، والإيمان ما وقر في القلب؛ فكلّ سلوك كان مردّه الأداء الوظيفي للقلب، والقدرة على استغلال ما سخّره الله لهذا الإنسان من فضاء.

✓ خلق الله للإنسان حواساً، من خلال قوله: (تبصرون) دليل على البصر؛ ليشاهد أثر أنعم الله، ويمعن النّظر والإدراك وغايته إعمال العقل، فالإنسان ليس مخلوقاً عادياً بل هو مخلوق لعبادته فأوجد الله هذا الكون مسخّراً، فالإنسان يرى ويسمع ويشم ويلمس ويتذوّق، فهذه النعم لصيقة به ينال منها ويستمتع بها أيام ضغنه وأيام قوته.

✓ الحكمة موجودة في نظامها واتساقها، والعظمة موجودة في حجمها وهذا دليل على براعة صانعها، وأن الذي أوجدها إله واحد متفرد في التصريف لا يزاحمه أحد، ولو كان آلهة أخرى تتصرف فيها لفسد حالها وانقضى أجلها، ولكن هي من لدن عليم خبير مقتدر لها، أما الإتقان الموجود فيها دليل على عظمة من أبدع فيها، فلا تقديم ولا تأخير وكل شيء بنظام واحد.

✓ أن الله عالم بمصلحة الإنسان وكل شيء خلقه بقدر أي بحساب فريد لا يمكن أن تتداخل هذه المخلوقات فكلّ منها سائر لمبتغاها ومنتهاها وأن ليس للإنسان إلّا سعيه، فلا يمكن أن يتصرّف فيها وليس له القدرة على تغييرها، وهنا لفنة هامة وهي مدى ضُعف الإنسان فهو مخلوق يستغل هذه المخلوقات جميعاً ومع ذلك فهو ضعيف أمامها، ولهذا فنحن البشر مرتبطون برحمة الله، والفائدة الأهم أن الله يستحق أن يعبد وأن يحمد، فهو النافع والضار، وأن ليس للإنسان سوى ربه الذي خلقه وأصبع عليه هذه النعم.

❖ 3/ بنية المكان القصصي والجغرافي:

➤ أولاً: المكان القصصي:

نرى المكان في الخطاب السردى القرآنى ثرياً ومتنوعاً فأحياناً يكون حيّزاً واسعاً كالبحر والأرض و السماء وغيره، وفي أخرى يذكر أماكن الساكنة كالقرية والمدينة، أو تراه يسمى المكان باسمه نحو (مصر، مكة مثلاً)، والمُلفت أحياناً أنه يذكر المكان الذي أدّى وظيفة في القصة نحو (الجبّ، بطن الحوت، السجن، الكهف)، نجد كذلك أمكنة مختلفة تخدم البنية النظامية للسرد لا كعنصر من عناصر القصة، والنظام السردى القرآنى لا يُورد القصة جُزأفاً إنّما وعظماً وهدايةً، ونجد في مواطن من القصص القرآنى المشهد السردى يتبلور ضمن الأحداث ويسير بسرعة نحو قصّة موسى والخضر عليهما السلام، فما إن التقيا حتّى دار حوار بينهما وانتهى المشهد بالفراق.

ولكن إذا تأملنا المغزى من القصة فإننا نقف أمام عبرٍ جليّة، يمكن أن نجد صيغة لعنوانها ويمكن أن نطلق عليها (فتنة العلم)، و هي جاءت بعد سرد قصة أهل الكهف التي تدور أحداثها عن فتنة الإيمان، و بالتالى فالسردية القرآنية لا تولي اهتماماً كبيراً للتفاصيل بقدر ما تركّز على الغاية، وكذلك الحال بالنسبة للمكان لم يرد في هذه القصة بالشكل الذي نراه في الرواية أو الإبداع البشرى و لم يُسهب في وصفه كعنصر بنائى للقصة، ولم يرد مثلاً ذكرٌ للمكان الذي كان فيه اللقاء بينهما، ولا حتى منشأ الخضر عليه السلام، ولو نظرنا إلى قصة آدم وحواء وخروجهم من الجنة ونزولهم إلى الأرض لم يفصل القرآن في الموضع الذي نزلوا فيه هل هو في مكة أو الشام أو حتى نوع المكان هل كان في جبل أو سهل أو صحراء بل كان المشهد هو الأرض بكل مواطنها المختلفة، وهذا من حكمته أن كلّ شبر من هذه الأرض هي للإنسان.

وكذلك الحال بالنسبة للأمكنة فكُلّها من الأرض وهي أسفل السافلين وبالتالى لا يهتم الموطن بقدر ما تهتمّ المنزلة، ولو ذكر القرآن مكان نزول آدم عليه السلام لبجّلت ذريّته، وأضحى

رمزا للشرك ولوسوسة الشيطان للإنسان أن يتخذة قربانا أو إلهاء، ونجد النصّ القرآني يتعامل مع المكان من منظور الأهمية؛ فإن كان ضرورة ملحّة في القصة ذكره مثل قصة يوسف عليه السلام فقد ذكر مكان أحداثها وهي فلسطين ومصر لاعتباره عنصراً ملحاً في السردية التاريخية؛ لأنّه سيُذكر مُلوّكها فيما بعد، ولأنّ أهميّة شخصيّة الوزير في فترة من الفترات، وكذا أهميّة الموقف وهو الجفاف الذي أصاب مصر مرتبطاً أشدّ الارتباط بالمكان، وتفاصيل الرحلة التي قادت يوسف من مكانه الأصلي وبيئته التي ترعرع فيها إلى مكان آخر في نسق أحداثٍ متفاوتة في المواقف والعواطف والتّوظيف وردود الأفعال، وكذلك تداخلها وأهميتها في تشكّل سيرة النّبيّ يوسف وإخوته ويعقوب عليهما السلام جعل من ذكر المكان بكل تفاصيله ضرورة جدية.

بينما نجد في مواطن كثيرة إبهام الأماكن وفي هذا جمالية زاد من قيمتها ووسع دلالتها، مثل مكان سفينة نوح عليه السّلام، أو اسم مكان الكهف الذي آوى الفتيّة، فالأمر مرتبط بالحدث الذي وقعت فيه الأحداث، ومن الفوائد الجميلة أيضاً في النصّ القصصي القرآني، أنّه يذكر المكان الوظيفي في القصة ولا يُولي اهتماماً لموطن أحداثها؛ فمثلاً نرى في سورة الكهف أنّها تخلو من أيّ إشارة لموطن القصة، بينما ذكر الكهف الذي فروا إليه بدينهم وإيمانهم، ويحمل الكهف رمزية الخلوة، والاختفاء والابتعاد عن الاساءة والتفرّغ للعبادة وهذا هو الأثر الجمالي والبعد الرّمزي لمسألة المكان في النظام القصصي القرآني، وهنا يليق بالدارسين البحث عن دلالات المكان الجغرافي والمكان الفني في الخطاب السّردى القرآني.

➤ ثانياً المكان الجغرافي:

هو مرتبطٌ أساساً بما يملّيه النصّ، فقد ذكر الله أماكن باسمها وهي مرتبط بالأنبياء عليهم السلام وفي هذا بلاغٌ للنّاس أنّ هؤلاء الأنبياء إنّما هم بشرٌ مثلكم يعيشون بينكم، وقد نرى في كلام الله أماكن لها ارتباط بالأحداث التي وقعت فيها من هلاك الظّالمين أو أنّها دليل على توثيق سيرة من سير الأنبياء أو البشر.

ونذكر في هذا المقام بعضاً من الأمكنة ليس على سبيل الحصر إنما التمثيل، منها التي مرتبطة بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وأولها مكة، وتسمى أيضاً: بكة، وأم القرى، والبلد الأمين، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩٦﴾) [الفتح: من الآية 24] (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾) [آل عمران: 96]. وقال تعالى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾) [الأنعام: من الآية 92]، قال تعالى (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾) [التين: 3].

المدينة، وكانت تسمى بيثرب، قال تعالى: (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٣﴾) [التوبة: من الآية 120]، بدر، وهي قرية قرب المدينة، قال تعالى: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾) [آل عمران: 123]، حنين: قرية قرب الطائف، قال تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿١٥﴾) [التوبة: 25].

ونجد بعض الأماكن مرتبطة بسير الأنبياء أو أقوامهم ومنها، مصر قال تعالى: (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩١﴾) [يوسف: 99]، بابل: بلد بسواد العراق، قال تعالى: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ

الْمَرْءَ وَرَوْجَهُ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
(البقرة: من الآية 102).

الأيكة: بلد قوم شعيب. قال تعالى: (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾) [الحجر: 78]، مدين، قال تعالى: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمُ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾) [أعراف: من الآية 85]، الحجر وهي منازل ثمود ناحية الشام عند وادي
القرى (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾) قال تعالى: [الحجر: 80].

الأحقاف: جبال الرمل بين عمان وحضرموت، قال تعالى: ﴿وَأُذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ
بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾) [الأحقاف: من الآية 21]، طور سيناء: الجبل الذي نُودي منه
موسى. قال تعالى: (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْكَالِينَ ﴿٢٠﴾) [المؤمنون: 20]، الجودي: جبل بالجزيرة. قال تعالى: (وَقِيلَ يَنْأَرُضْ أَبْلَعِ مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِ
وَعِضْ أَلْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾) [هود: من
الآية 44]، طوى: اسم وادي، قال تعالى: (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ
طَوًى ﴿١٢﴾) [طه: 12].

الرقيم: واد بين عقبان وأيله دون فلسطين، والعرم اسم وادي باليمن، قال تعالى: (فَأَعْرَضُوا
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرِ
قَلِيلٍ ﴿١٦﴾) [سبا: 16] حرد: اسم القرية، قال تعالى: (وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾) [القلم: 25].

25]، ق: اسم جبل محيط بالأرض، قال تعالى: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾) [ق: 1]، الطاغية: قيل اسم البقعة التي أهلك بها ثمود قال تعالى: (فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥٠﴾) [الحاقة: 5].

وفيه أيضا من المواضع دون تحديد: مطلع الشمس، قال تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾) [الكهف: 90]، وفيه أيضا ذكر لمغرب الشمس، قال تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقُرْنَيْنِ بِمَا آتَىٰ تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾) [الكهف: 86]، وذكر أيضا: بين السدين، قال تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾) [الكهف: 93]، وذكر أيضا: مجمع البحرين: قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتْلُعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾) [الكهف: 60].

وذكر المسجد الأقصى وما حوله، قال تعالى: (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ وَمِنَ عَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾) [الإسراء: 1]، وذكر الغار الذي يقع في جبل ثور بمكة، قال تعالى: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾) [التوبة: 40].

وذكر عرفات في قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾) [البقرة: 198]، ذكر الصفا والمرة في قوله تعالى: (وَإِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾) [البقرة: 158]، وهذه الأماكن المذكورة منها ما هو داخل جزيرة العرب

ومنها ما هو في خارجها، ومنها ما هو موقع قبلة أو معركة أو عذاب أو قوم أو بلد، ومنها ما هو محدد كالكهف أو غير محدد كمطلع الشمس ومغربها، وهكذا فلا نكاد نجد شيئاً من الأماكن إلا وله ذكر في القرآن، فكأنه قد ذكرها جميعاً.

✓ تحمل الأماكن الجغرافية بعداً دلاليًا متمثلاً في قُربها من الجزيرة العربية ومعرفة العرب بمواضعها، فهي تلامس حياة العربي، ومنه يكون تصديق لما جاء في كتاب الله من الهدى.

✓ القرآن الكريم يُواكب سيرة المُصطفى صلى الله عليه وسلم، فهي تُحاكي الأحداث التي وقعت في حياة النبي، ويستند إليها أهل العلم بعد وفاة النبي بقرون خلت، فالنص القرآني يحمل دلالة تاريخية ومرجعية معرفية للأجيال المسلمة التي تأتي بعد وفاة خير الأنام.

✓ مواطن الأقوام الغابرة، وذكرها في كلام الله محل تدبر وعظة للإنسان العربي الذي باستطاعته أن يسير إليها، ويُشاهد بأعينه ما صنعوا، وما فعل بهم، فذهنية الإنسان العربي صعبة من ناحية تصديق، فيأتي بالأماكن مشاهدة حتى تكون له حجة ودليلاً، فكلام الله قريب إلى نفسية هذا الإنسان، ومفتاح لعقله.

❖ 4/ بنية المكان الغيبي:

➤ أولاً: دار النعيم:

وورد من أسماء المكان ما له علاقة بعالم الغيب وانتقال من الحياة الدنيا إلى الآخرة، ولعلّ أوّل منزل للآخرة هو القبر قال تعالى: (أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ) [التكاثر:1] تحملُ الآية ذكرى فناء الإنسان، ودليله عدد الأولاد والآباء والأقارب الذين كانوا أحياء، وباتوا في غياهب القبور، أخذهم الموت إلى الدار الباقية.

وإذا كانت الآخرة هي فضاء نهاية الحياة فنجد القرآن قد سمّاها بعدة تسمياتٍ قال تعالى (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ) [الواقعة:1]، وهي من الوقوع، أي الحدث الذي هو مرتبط بزمن ما أو تركيبة من الأحداث، وهنا السياق كان لأجل الترهيب بهذا اليوم.

ونجد لغة الترهيب أيضاً في لفظ التغابن، قال تعالى: (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ) [التغابن:9]، أي عبوس الوجه وسوء الحال والمُنْقَلَب، وحالة من الرّهبة والخوف تترجمها معالم الجسم وتقاسيم الوجه، ونجد أنّ هذا العالم الذي سنؤول إليه حتمًا؛ هو عالم منقسم إلى مكانين لا ثالث لهما، حتّى وإن ذكر القرآن جبل الأعراف وهو مكانٌ جعله الله محطة انتظار للأشخاص الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فمدلول المكانين يحملان معنيين متناقضين هما (نعيم، وعذاب).

وما يتضح جليًا من ذكر هذين العالمين هو تكثيف الوصف لهما، فنجد القرآن الكريم يكتفٍ الوصف في كل عالم في نسق واحد إما الترغيب (الجنة)، أو (الترهيب) جهنم، وفي جهنم هناك أنواع شتى من العذاب ليس النار وحدها بل أصناف من العذاب، وقد يكون العذاب بالوحدة أن يكون الشخص وحيداً في مكان موحش، أو حتى العذاب بالبرد القارس.

وعند عرض بعض آيات دار النعيم سنستشف بعض اللّمسات البيانية فيها قال تعالى (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ [النساء: 57-57] ، وفي هذه الآية الكريمة تذكير للإنسان أنها لا تختف كثيرا في نمطها عن حياة الدنيا من وجود الزواج مثلا، ولكن الاختلاف واقع في طبيعة هذا الزواج الذي وصفه بالطهارة، وكذا طبيعة الحياة التي وصفها أيضا بالخلود، و النعيم الدائم و محلّ هذا المكان يبدو أن لا أثر للحرارة فيه بل في ظلّ دائم، ومعلوم أن الظلّ يمتاز بالدّفء والاعتدال وقال أيضا (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٦٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦٢﴾ [التوبة: 20-22].

وقد خصّص الله الفئة النّاجية بهذه الجنّات وهم المهاجرون من صاحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بهذا النّعيم، قد يذكر القرآن الكريم وصف حال أهل الجنّة أو أنّه ينعت أصحابها ويذكر صفاتهم أو الفئة بالتحديد كم هو وارد في هذه الآية.

وقال جل شأنه عن صفة الإقامة: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٦﴾ [التوبة: 72]، وإقامة الجنّة ليست فضاءً فسيحاً مترامياً الجهات، بل هي كحال الدنيا فيها إقامات ومساكن تختلف في طبيعتها ونمطها عن تلك الموجودة في الدنيا وقد وصفها القرآن الكريم بلفظ (طَيِّبَة)، ومدلولها يحمل معاني غزيرة فهي آمنة، حسنة البناء من موادّها أو شكلها، وكذا قاطنيها كلّ ذلك يندرج ضمن هذا الوصف وقال أيضا (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩١﴾

دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحْيَتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَعَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ [يونس: 9-10].

تحمل الآية لفتته غاية في الجمال وهي: إن كان الرزق في الدنيا مكتوب بالعمل والسؤال عنه بالسعي، ففي الآخرة يكون بمجرد التفكير والسؤال عنه يكون بأبسط كلام (سبحانك اللهم)، أما العلاقات الاجتماعية يسودها السلام والطمأنينة والسكينة، كما وتثار في أوساط فلاسفة الإلحاد سخرية مفادها أن أهل الإيمان إذا كانوا يدخلون الجنة فهي ليست دائمة لهم، فتأتي هذه الآية تبياناً لكل شيء وفصلاً لكل تخمين، وبأن نعيم الجنة دائم ومقيم وليس له نفاذ، قال جل في علاه ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ﴿٣٥﴾ [الرعد: 35].

وتردد عند بعض المشككين اعتقاد المسلم بوجود الحساب والثواب والعقاب؛ من أن طبيعة الإنسان ليست كاملة، فهو يحمل بعض برائن الأمراض القلبية من حسدٍ وضغينةٍ وحقدٍ وجبنٍ وغلٍّ لأخيه الإنسان، فهو لا يستحق هذه الجنة المزعومة فيأتي القرآن ليُدحر هذا الزعم؛ من أن الإنسان إذا دخل الجنة نزعت من قلبه هذه البرائن وعاد نقياً صفيّاً كما ولد أول مرة لا يعلم عن عالم الدنيا شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: 45-48]، المسلم في الدنيا مستور بلباس الحياء، من خلال ستر عورته في الدنيا نساء أو رجالاً ففي الآخرة يعوّض الله لباسهم بأحسن من ذلك فهي حرير وديباج وأساور من ذهبٍ وغيره من محاسن الثياب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِعِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: 30-31].

✓ يوجد عند بعض المفكرين المُلحدين، من أهل الاستشراق أو غيرهم؛ طرحٌ يَنفي وجود الجنة، وأنّ هذا المدلول المبالغ في التّغريب كان مردّه، طبيعة الإنسان العربي الذي يعيش في بيئة قاحلة، وأنّ هذا الفرد يرنو إلى الجمال في كلّ شيءٍ ودليل ذلك عشقه للنساء ووصفه لهنّ، من خلال تراثهم الشعري، فهو مفتونٌ بكلّ هو غرائزي، بالإضافة إلى عشقه للمكان الجميل ومنبع المياه العذبة، وميوله للاخضرار، والحدائق، فقد خاض حروباً طاحنةً بحثاً عن الزّروع وما تأكله أنعامهم، وبذلك كان الخطاب القرآنيّ عن هذا الجانب تحفيزاً لهم، من أجل الإيمان فقط، ومحاولةً لاستدراجهم إلى ما تشتهيه أنفسهم، فكان الخطاب إثارة للعواطف والرّغبات، ولم تكن سُبُل الإقناع كافيةً من جعل هذا الرّجل البدوي الصّحراوي يؤمن بوجود الخالق بعيداً عن عنصر الإثارة والفضول.

✓ الردّ على هذه المسألة قائم على شقين، الشّق الأوّل هو: أنّ الإنسان في أيّ بقعة من العالم، وليس فقط من جانب تأثير بيئة صحراوية، فحتّى الذي يعيش في رفاهيّة مطلقة يرنو إلى الجمال، والغريزة، ولطموح لما هو أفضل من الذي بين يديه، فهذه طبيعة بشريّة، فخلّقنا لم يورد تلك الآيات المُحفّزة، لفئة معيّنة أو لزمان معيّن بل للإنسان كائناً ما كان، أمّا الشّق الثّاني مُتعلّق بالإنسان نفسه، فربّما يتسلّل عنده الشّعور بالملل وهذه فطرة جعلها الله في البشر، ولكن مسألة الجنة يجب فهمها من جوانب كثيرة، منها النّجاة من العذاب أصلاً فقد قال تعالى: (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ [الحشر: 20-20]).

فنيّل رضى الله والفوز هو المعيار، أمّا ما تناله أعينهم وجوارحهم في الجنة مسألة متعلّقة بالإنسان، فهو مخلوق للشّهوات، وقد جعلها الله فيه، وهي سمة خَلقيّة لا تتغيّر بتغيّر المكان من فضاء الدّنيا إلى فضاء الجنة، بل خطاب القرآن عن الجنة ذا مُقاربة دنيويّة، ولكن يجعل الجنة أعلى درجة من الدّنيا، ولكن في الأصل هناك في الجنة ما

لا يمكن للعقل البشري أن يستوعبه، فالمقاربة النصية القرآنية مقاربة واقعية وليست من نسج الخيال، حتى وإن كان فضاء الجنة فضاءً خياليًا.

➤ ثانيا دار الشقاء:

إذا كان حال أهل الجنة في نعيم مقيم وسكنٍ مريح وجمال حسنٍ، فإن أهل جهنم أعاذنا الله منها هي قد عكّرت صفو عيش العالمين، وأيقظت ضمير الغافلين، وأسهرت ليل العابدين، وأبكت عيون المتقين؛ إنها لظي، نزاعة للشوى، فيها من أصناف العذاب ما لا يستطيع بشر أن يتخيله، ومن أنواع الذل والهوان ما لا يستطيع أحد أن يتحمّله؛ والمتتبع لآيات القرآن يجد هذا الوصف الدقيق لشكلها ولونها وحال أهلها وطعامهم وملبسهم ومشربهم، وحتى رائحتها، وأنواع العذاب فيها، عسى أن يكون فيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فيستعدّ بالإيمان والعمل الصالح ليوم الوعيد.

ذكر القرآن أسماء كثيرة لمحلّ العذاب، و فضائه الفسيح، وكلّ إسم من أسمائها إلا وله مدلولٌ يدور في فلك الغلظة والشدة، والقسوة، أما أسماؤها: فهي النار وكل ما تحمله من بشاعة: قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾) [آل عمران: 19]، جهنم وهي اسم ممنوع من الصرف دالٌّ على الغلظة، وكلما اجتمع النون والجيم إلا وكان الأمر خفيًا وهذا فيه من الحكمة والعبرة الكثير ومنها أن أي أمرٍ كان خفيا إلا وعنصر التشويق حاضر فيه.

والسرُّ في كلمة جهنم هو تلك الشدة الموجودة في حرف النون وهي دالة على شيء قوي صلب متماسك، ومن أسمائها وصفاتها لظي: قال تعالى: (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَى ﴿١٦﴾) [المعارج: 15-16]، من الفعل لظى أي الإمساك بالشيء على وجه القوة، ثم يليها صيغة المبالغة نزاعة، وكلما نزع الشيء كلما كان فيه قوة وصلابة، ويسمى مكان العذاب

أيضا سَقَر: قال تعالى : (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾) [القمر:48]، والحُطْمَةُ: (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ ﴿٥٠﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٥١﴾) [الهمزة:4-6] ، والجحيم: قال تعالى : (وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾) [الشعراء:91] ، السَّعِير قال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾) [الشورى:7]، والهاوية: قال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾) [القارعة:8-11].

إذاً كلّها أسماء تبعث على الخوف والرَّهبة، وتذكر المؤمن بالتقوى والخشية، والبعد عن ما يغضب الله رب العالمين، ونجد بنية هذا المكان فيه تكثيف للتصوير، واستعراض للمشاهد وكأنها ماثلة أمامك، فحجمها لا يمكن أن يستوعبها إنسان في أكثر من حجم الأرض، فتلقى الشمس والقمر في النار، تبكيًا لمن كان يعبدهما في الدنيا؛ كما قال تعالى : (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾) [الأنبياء:98]، فإذا كانت الشمس في جهنم، فما طبيعة الحياة التي تكون فيها فيجيب القرآن الكريم عن ظلّها، قال سبحانه : (وَضِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾) [الواقعة:43-44] ، أما ريحها: قال تعالى : (فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾) [الواقعة:42]، وعن وقودها: قال تعالى : (فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾) [البقرة:24]، ولاريب أنّها بركان عظيم مشتعل تنتاير حممه فذكر الله شررها : (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾) [المرسلات:32]، (إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿٧٢﴾) [الفرقان:12]، (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾) [الملك:7].

ويُلفت القرآن الكريم إلى جزئية هامة وهي محاولة الهروب من العذاب، لأنها تشبه السَّجَن، فجهنم عليها حراس قال تعالى عن خزنتها: (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُورًا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ [التحریم:6]، وعن أبوابها: قال تعالى (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ [الحجر:44]، فالنار عظيمة جدًا، لا تستوعبها لا أرضنا ولا بحارنا، والشمس والقمر والكواكب التي عُبِدَت من دون الله على عِظَمها مُلَقاة فيها، مع ملايين المخلوقات التي لا يعلم عِظَمها إلا الله، فإذا كان هذا حالها فما هي هيئة سكانتها، وكيف يستقبلون القرار الأبدي الذي يصدر من لدن العدل المنتقم يومئذٍ، فعن مجيئها قال تعالى: (وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾ [الفجر:23]، وحال الناس والأمم المتعاقبة يومئذٍ قال تعالى: (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [الأحقاف: 28]، وقال سبحانه (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ [مريم:68].

والدخول إليها يكون مُفْزِعًا مع الإحساس بالمهانة والذل في الطريقة التي يُسحبون بها ومن ذلك التدافع الشديد: قال تعالى: (يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ [الطور:13]، أما حال الظالمين وعذابهم فيها قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ [يونس:27]، وعن جلودهم فهي غليظة ليزداد الإحساس بالألم، كلما نضجت بُدِّلَتْ؛ قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ [النساء:56].

أما عن لباسهم قال تعالى: (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ [الحج:19]، وقال تعالى: (سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ [إبراهيم:50]، وعن طعامهم وشرابهم: يختلف باختلاف منازلهم في النار، وعلى كل حال كربه المذاق، وحميم لا يُطاق، شديد المرارة في غاية

الحرارة، مُنتن الرِّيحَة وصديد من الدَّم والقيح، ذُكر لنا من ذلك الرِّقْم قال تعالى (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾) [الغاشية: 6-7] ، والضَّرِيع جنس من الشَّوْك كبير، يقال له: الشَّبْرُق إذا كان رطبًا، والضَّرِيع إذا يبس، وهو سُمٌّ، الغَسْلين قال تعالى: (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴿٣٦﴾) [الحاقة: 35-36]؛ أي كل شيء غسلته فخرج منه شيء، فهو غسليين، فَعْلين من الغسل، من الجرح والدُّبْر، وهو القيح والدَّم الذي يخرج من جِسْمِ أَهْلِ النَّارِ.

والحميم: قال سبحانه (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾) [محمد: 15] ، والحميم هو ما اشتدَّ حرُّه، وقال تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾) [الكهف: 29]، وكذلك غَسَّاق قال تعالى: (هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَعَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾) [ص: 57-58]، والغَسَّاق هو ما يُسِيل من جلود أَهْلِ النَّارِ وصديدهم، وهو ماءٌ نَتْنٌ.

الفصل الأول:

الفصل الأول: الأنساق الثقافية للفضاءات المنفردة.

➤ تمهيد عن النسق الثقافي:

• المبحث الأول: دلالات السماء كفضاء منفرد:

➤ نسق البناء والجمال

➤ نسق العطاء والفضل

➤ نسق العذاب والسخط:

• المبحث الثاني: دلالات الأرض كفضاء

منفرد:

➤ نسق الاستخلاف والتمكين

➤ نسق الحياة والموت والبعث

➤ نسق الرزق والنماء

• المبحث الثالث: دلالات السماء والأرض كفضاء

مقترن:

➤ نسق العقيدة التوحيد

➤ نسق البداية والنهاية

➤ نسق التصريف والاستقرار

❖ الفصل الأول: الأنساق الثقافية للفضاءات المنفردة.

➤ تمهيد عن النسق الثقافي:

قبل الاشتغال بمضمون الدراسة، لابدّ من تقديم تحليل وشرح للمصطلحات الواردة في العنوان؛ ومنها مفهوم الثقافة وهو مفهوم يتجلى في أنّه نشاط بشريّ أو مجموعة من التجارب الإنسانية، ويمكن أن تكون كلّاً متكاملًا من العادات والأعراف والتقاليد والفلكور والدين واللغة ونمط الحياة عند أمة من الأمم أو شعب من الشعوب، وقد عرّف مالك ابن نبي الثقافة بأنّها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه"¹.

وبالتالي منشئ الثقافة هو المحيط الاجتماعي أمّا سلوك الفرد فهو ترجمة لتلك الأفكار والمعتقدات التي سادت في بيئة معينة، وفي تحديد شروط الثقافة يؤكد مالك ابن نبي على الشروط اللازمة لقيام أي ثقافة وهي الأخلاق، والذوق العام (الجمال)، والنشاط البشري، والمردود العملي، أو حسب منظور ابن خلدون الصناعة البشريّة، فإذا كان مفهوم الثقافة حسب علماء الأنثروبولوجيا، ومفكّري العصر الحديث ينضوي تحت مسمى المنتج الإنساني، وعُصارة الإبداع البشري، فإننا يمكن أن نجعل الأدب ضمن هذا النمط من الإبداع، والأدب تُرجُمان لأيّ نشاط بشريّ، وهو محاكاة فعلية لتجارب البشر في الحياة، فالحكاية والخرافة والأسطورة هي ثمار ترف إبداعي نشأ في بيئة معينة، وسبيل من سُبُل التفكير الإنساني.

¹مالك ابن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2000، ص74

والأديب ابن بيئة حضارية ووليد ثقافة من ثقافات الأمم، ومنه جاء النقد الثقافي محاولاً النحت فيما وراء النص، يغوص في أعماق الكلمة، يبحث عما وراء السطور، ليكتشف المخزون المعرفي غير البائن، والذي يظهر في أنساق العبارات والكلمات.

والنقد الثقافي هو شعار ما بعد الحداثة، واستخدم هذا المصطلح (فنيست ليتش) رديفاً لمصطلح ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية، وهو منهج تحليل قائم على النقد الآني والحفر في كينونة الإبداع ومجموع الصور المشكّلة للإبداع فهو: " يستخدم المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والمؤسساتية، من دون أن يتخلّى عن التغير والتحول"¹، فقد استهدف النقد الثقافي تقويض البلاغة والنقد معاً بغية بناء بديل منهجي جديد، يتمثل في المنهج الثقافي الذي يهتم باستكشاف الأنساق الثقافية المضمرة، ودراستها في سياقها الثقافي، والاجتماعي، والسياسي، والتاريخي، والمؤسساتي لا التعبيري وما أنتجه النص من جمال تركيب وصورتي ونحوي.

وقد تأثر المنهج الثقافي بمنهجية (جاك دريدا) التفكيكية القائمة على التقويض، والتشتيت، والتشريح، ولكن ليس من أجل إبراز التضاد والمتناقض، وتبيان المختلف إضاءة، وهدماً، وتأجيلاً، بل من أجل استخراج الأنساق الثقافية عبر النصوص والخطابات، سواء أكانت تلك الأنساق الثقافية مهيمنة أو مهمشة، وموضوعتها في سياقها المرجعي الخارجي، متأثرة في ذلك بالدراسات الثقافية المتنوعة، وتمثل الماركسية الجديدة، والتاريخانية الجديدة، والمادية الثقافية، والنقد الاستعماري (الكولونيالي)، والنقد النسوي الذي يدافع ثقافياً عن كينونة التأنيث في مواجهة سلطة الذكر².

¹ عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001 ص 32

² جميل حمداوي، النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، تطوان، المغرب، ط1، 2015، ص5

فالنقد الثقافي يُعيدنا بطريقة لإرادية إلى دراسة النتاج الأدبي انطلاقاً من محيطه الذي نشأ فيه، أو ما تضمّنه العالم الخفيّ له المندسّ تحت أنقاضه، ويمكن القول أنّ النقد الثقافي هو نشاطٌ فكري يتّخذ من الثقافة موضوع البحث والدراسة، "والمتميّز فيه أنه ليس مدرسة محددة المعالم، بل يمكن أن يتبدّل بتبديل شخصية الناقد وثقافته وتوجّهاته وطبيعة النص وقضاياه وتمثيلاته، كما أنّ النقد الثقافي مفتوح على التأويل وعلى مناهج السيميائيات وتحليل الخطاب ومختلف العلوم الإنسانية المحيطة بالأدب، بل إنه مرتبط بحركات فكرية وثورية كالحركة النسوية، وحركة " الزنوج " وصراع الحضارات والثقافات، وغير ذلك مما يقع في باب الخطاب المضمّر في النصّ، والنسق المضمّر المُحرّك له"¹، فهو مرجعية لجميع المناهج النقدية النصيّة و السياقية، وموضوع بحثه ما وراء النصّ أو الإبداع وكذلك النصّ بصفته مادة التحليل بالأساس، ودون أن يغفل دور المؤلف وخلفيته الثقافية.

ومنه فالبحت الثقافي يحاول أن يؤسّس لمنهج متكامل ومتداخل، ويمكن ان نعطي تعريفاً للنقد الثقافي بالقول: " هو فرع من النقد النصّي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة، يُعني بنقد الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه، وهو نقد غير مؤسّساتي وغير رسمي، فهو غير معني بكشف الجماليات كالتقد الأدبي، وإنّما همّه الكشف عن الأقنعة المخبّأة جمالياً وبلاغياً"²، و في الوطن العربي يعدّ عبد الله الغدامي (1946)، أوّل من تجرّأ وعرّى الأنساق الثقافية العربية المضمرّة، وهو الذي جاء بمشروع شاملٍ قصد تحرير النقد العربيّ من النمطية المعهودة.

ظهر النقد الثقافي كنتيجة لما توصل إليه الإنسان من تطور تكنولوجي في النصف الثاني من القرن العشرين، من إبداع وقدرة على ابتكار شيء جديد، ولذا فالنقد الثقافي لا يُميّز

¹ محمد عبيد الله، النقد الثقافي والدراسات الثقافية، مجلة أفكار، وزارة الثقافة الأردنية، عمان، العدد، 207، 200، ص

² عبد الله الغدامي، المرجع نفسه، ص 84

بين إبداع النّخب ولا يتحيز لفئة معيّنة، ولا إيديولوجيا بعينها، وإنما يسعى إلى تفكير أعمق وموضوعيٍّ مجرد من تسلّط الميول والرّغبات والأهواء. ومنهج الثقافة في بحثه يعتمد على نظرية هي: (كلّما ازدادت معرفتك بالآخر كلما زادت معرفتك بنفسك)؛ نقائص كل إبداع مختوم ببراعة إبداع الآخر أو معرفتي بقدراتي الثقافية وبنسجي التاريخي هي بالأساس من منظور النقص الموجود عند غيري المخالف لتركيبتي النفسية والاجتماعية ومستوى نُضجي الفكري ودرجة الوعي لديّ.

يختلف النقد الثقافي عن النقد الأدبي، في أنّ النقد الأدبي يُفسّر الظاهرة الأدبية، ويلقي الحكم عليها ويستكشف مكامن الجمال من تحليل قائم على مصطلحات، بينما النقد الثقافي يستعين بكلّ المناهج النقدية ليستمرّ في الكشف عن ما يضمّره النصّ في اللاوعي الكلمات وبإمكان النقد الثقافي الالتزام بقضايا الشعوب ومشكلاتها المجتمعية، وبآمالها وطموحتها، ويعري فهم المؤسسة الرسمي الذي يتبنّى النصّ الجمالي فهو يفتح إلى ما هو أبعد من اهتماماتها وإلى الجمالي ويركز على أنظمة الخطابات بالحفر في داخلها من أجل معرفة معانيها الغامضة.

فمن خصائص النقد الثقافي أنه ذا طابع متكاملٍ واسعٍ شاملٍ وحرّ في تحليله مبنيٌّ أساساً على مقدرة الناقد، فهو:

- ✓ يلغي التفضيل بين ما هو نخبوي وما هو انتاج شعبي، فالأدب الشعبي كذلك حلّي بأن يتوازي مع الإبداع الموجود عند الكتّاب.
- ✓ يكشف جماليات أخرى لم ينتبه إليها الناقد الذي استخدم منهجا نقديا نصياً معيّناً.
- ✓ الدخول إلى عمق النصّ بدلاً من النظرة السطحية له والبحث في خلفيات الإبداع، والنصّ عبارة عن قناع تخفّت داخله أنساقٌ مضمرة، واللغة عبارة عن آلة عمياء تُعبّر عن جوهر الإبداع لا اللغة كدلالة.

- ✓ اكتشاف قيم مستوحاة من البعد الاجتماعي والنفسي والوجداني والتاريخي للنص الأدبي غير مستنبطة من قبل مناهج وتطبيقات نقدية أخرى.
- ✓ يسعى النقد الثقافي إلى تسويق الأنساق المضمرة لأي ثقافة، والارتقاء بها، وجعل العمل الأدبي لغة الجماهير، وليس محصوراً على الفئة النخبوية.

ومن منظري النقد الثقافي عند العرب: محمد علي الجابري الذي له دراسات تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ومالك بن نبي الذي نشر كتابه في عام 1959 م بعنوان (مشكلة الثقافة) تحت عنوان أشمل ومشكلات الحضارة وتتمثل قيمته في الوعي بمسألة الثقافة العربية، وزكي نجيب محفوظ في كتاب (تحديث الثقافة العربية)، تدل هذه العناوين الكتب بمفكرها على وعي أصيل بالمعرفة الثقافية إلى جانب الكثير من الأعمال النقدية التي تناولت النصوص العربية، وفي الوطن العربي برع عبد الله الغدامي في دراسته وتطبيقاته حول شعر حمزة شحاتة في كتابه "الخطيئة والتكفير".

وبعد أول من تجرأ وعرى الأنساق الثقافية العربية المضمرة، وهو الذي جاء بمشروع شامل قصد تحرير النقد العربي من النمطية المعهودة، أما أهم منظري النقد الثقافي عند الغرب: نجد ألمانيا التي هي مهد البحث المستجد عند ماركس فيبر، ومن روسيا ميخائيل باختين، وفلاديمير بروب، ومن إنجلترا رايموند، ستيوارت هول ومن النمسا سيقموند فرويد ومن أمريكا: شارمان، رومان جاكسون، ومن النقاد والمفكرين من له اهتمام خاص بفلاديمير بروب ينتمي إلى الشكلائية الروسية وجاك دريدا الذي ينتمي إلى المدرسة التفكيكية، أما كارل ماركس فقد اهتم بعالم المال والعمل الاجتماعي، وكارل يونغ اهتم بعالم الخيال والأسطورة وبجواره دي سوسير ومحاضراته حول علم اللغة، كل هذه التحليلات كان منصباً في الأصل حول التنظير للنقد الثقافي.

نجد الناقد الأمريكي رومان جاكسون قد حدد وظائف العملية الإبداعية من منظور التحليل الثقافي: هي الوظيفة الجمالية للرسالة، والوظيفة الانفعالية للمرسل، والوظيفة التأثيرية

للمتلقي، والوظيفة المرجعية للمرجع، والوظيفة التأسيسية للقناة، والوظيفة الوصفية للغة هذا عند الغرب، ولكن الغدامي أضاف العنصر النسقي، ويعني هذا أن النقد الثقافي يهتم بالمؤمر في النصوص والخطابات، ويستقصي اللاوعي النصي، وينتقل من الدلالات الحرفية والتضمينية إلى الدلالات النفسية، الدلالة النفسية: يستند النقد الثقافي إلى ثلاث دلالات: الدلالة المباشرة الحرفية، والدلالة الإيحائية المجازية الرمزية، والدلالة النفسية الثقافية.

ومفهوم النسق لغة قد عرفه (الخليل الفراهيدي) قائلاً: ((نسق: النسق من كل شيء: ما كان على نظام واحد عام في الأشياء، ونسقته نسقاً ونسقته تنسيقاً، ونقول: انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسقت))¹، وجاء في معجم مقياس اللغة بأن: "نسق النون والسين والقاف أصل واحد وصحيح يدل على تتبع في الشيء"²، ويطلق النحويون على حروف الربط بحروف النسق، ومن التتابع في النحو عطف النسق، ومنه أجاز القول أن النسق نظام واحد ومجرى واحد، وعطف الكلام بعضه على بعض، وتتابع الأشياء.

والنسق مجموعة من العناصر اللسانية التي تفقد قيمتها بمجرد انفصالها وتكسب تلك القيمة بتلاحمها، والنسق اصطلاحاً يختلف باختلاف دارسيه ومناهجهم ومدارسهم التي ينتمون إليها؛ فالشكلائيون الروس يرون "النسق جزءاً من نظرية الأدب، والتطور المتواصل للأدب يعدّ نسقاً في ارتباطه مع انساق أخرى، قد يكون مشروطاً من خلالها"³، فكل ما يحاط بالأدب يؤثر فيه و يشكّل نسقاً بينها وبين النتاج الأدبي، بينما يرى رؤاد المنهج السيميائي أنه نظام خارج اللغة فيعرفه رولان برث أنه: "مجموعة من الوحدات والوظائف مثل اللساني

¹ ابن منظور الإفريقي المصري لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1990، ص 352.

² ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تر، ابن سلام هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1979، 1399هـ، ج 5، ص 4

³ كليمان موازان، التاريخ الأدبي، تر: حسن طالب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط 1، 2001، ص

ونسق الموضة¹ بمعنى أن جمالية النسق تكمن في معرفة الخيوط التي تتشكل خارج النص، ووعي المبدع.

وإذا ألقينا نظرة على النقد الثقافي فنجد أنه يعتمد على استراتيجية ومجموعة من الخطوات التحليلية، والمفاهيم النظرية والمصطلحات الإجرائية، التي يمكن الانطلاق منها لمقاربة النصوص والخطابات الثقافية فهمًا وتفسيرًا. وتتمثل هذه الخطوات المنهجية فيما يلي:

✓ الأسئلة ثقافية جديدة كسؤال النسق بدلًا عن سؤال النص، وسؤال المضمّر بدلًا عن سؤال الدال والمدلول، وسؤال الاستهلاك الجماهيري بدلًا عن سؤال النخبة المبدعة، وسؤال التأثير الذي ينصب على ثنائية المركز والمهمّش، أو ثنائية المؤسسة والمهمّل، أو سؤال العمومي والخصوصي، وتعبير آخر، طرح أسئلة نوعية مركزة ودقيقة.

✓ مبدأ النقد الثقافي قائم على اعتبار النص حاملًا للرموز الثقافية التي ينبغي التعامل معها وتفسيرها، كما يجب الحفر حول الألغاز التي تمرّر ثقافة معينة ويعني أن النص الأدبي حامل لأنساق ثقافية مضمرة غير واعية.

✓ الاهتمام بالمضمّر الثقافي بدلًا من الاهتمام بالدوال اللغوية ذات الطبيعة الحرفية؛ وهي تفسير الظاهرة الإبداعية من لاوعي المبدع حتى وإن كان النص مشبعًا بالدلالة، والظاهرة الجمالية، فكبار الأدباء العرب عبر العصور الأدبية المختلفة من امرئ القيس إلى نزار قبّاني انطوت ابداعاتهم على أنساق مضمرة كالطبقية والاستبداد والفحولة والرعاية السياسية، وهذه كلها غائبة عن وعي المبدع ولا عن وعي جماهير القراء.

¹ أحمد يوسف، القراءة النسقية، سلطة البنية وهم المحادثة، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط 1، 2007، ص

✓ يثارُ عند الباحثين والدارسين جدلٌ حول تحليل النصِّ القرآني وفق مناهجٍ نقديةٍ نصّيةٍ أو سياقيةٍ، وكيفية الممارسة النقدية على خطابه المختلفة بصفته كتاباً منزّه عن الخطأ، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وأنَّ الإنسان عاجزٌ عن توليد معنى مقاربٍ له أو حتى أسلوبٍ يماثلُه، ولو اجتمع لذلك جميع الناس.

ومادام النقد الثقافي هو من لدن البشر أو وراثته بشريّة، وإرثٌ فكريٌّ إنسانيٌّ، فلا يمكن أن نجعل القرآن في مقامه لأنّه كلامُ الله تعالى، ولكنْ هناك مسألةٌ غاية في الأهمية وهي أنّ القرآن كلامٌ موجّه للعالمين ليجتنبوا ويتدارسوا آياته، ومن هنا يمكن أن نُقيم جدلاً بين ما أنزله الله من تشريعات وقوانين وبين ما يظنّه الإنسان ويظنّه ويعتقده البشر بتوارثِ الظلال.

فمثلاً إذا كانت الشمس عند بعض البشر هي الإله لكبر حجمها وقوّة نورها والحرارة المنبعثة منها، فيقيم الله الحجّة على الناس بأنّها مخلوقٌ ودليل ذلك ما تحويها الشمس من معاني وأثرٍ على وجودِ المُنعم سبحانه.

✓ لا ريبَ في أن كلام محلّ إعجابٍ أفاذ البلاغة والبيان العربي في البيئة التي نزل فيها، واعتنى المفسرون وأهل البلاغة وأهل النحو لما تولّد شعورٌ بضرورة قراءة أخرى للقرآن بدلاً من اجترارِ اجتهادِ السلف، واعتنوا بما أجاد فيه السلف وزادوا عليه، ليسهلوا الفهم عمّن له حظٌ قليلٌ من العلم، ونرى كثيراً من الدّراسات والمحاولات الإجتهدية التي تستكشف الجانب الجمالي للنصوص القرآنية، ونجد علة الباحثين في ذلك اكتشاف الجانب الجمالي للنص واكتفاءً بذلك واكتنافٍ عليه، دونما إثراء للفكر البشري، ومُحاولة لفهم جديدٍ لكتاب الله.

✓ التفسير والتأويل اجتهادٌ للعلماء ومن المؤكّد أنّهم ينطلقون من حمولة ثقافية معيّنة إمّا كانت مذهبيةً أو فكريةً أو حتّى فلسفيةً وكذلك تراكماتٌ معرفيةٌ ينطلق منها، ومنه

فالإجابة النقدية تقتضي الحفر في خلفية كلِّ اجتهادٍ كشكلٍ فرديٍّ أو فكرٍ ووعيٍّ جماعيٍّ.

✓ نستكشفُ النسق الثقافي المضمَر في جانبه الإيجابيِّ، فإذا كان النقد الثقافي الذي يبحثُ في الخطابات البشرية من أجل اكتشاف الجانب السلبيِّ والمُهْمَش المدفونُ في ثنايا النصِّ الجماليِّ، فإننا أمام الخطاب القرآني نسعى إلى اكتشاف الجانب الجمالي المضمَر فيه.

➤ المبحث الأول: دلالات السماء كفضاء منفرد:

يعيش الإنسان في هذا العالم وهو محاطٌ بأجسامٍ مختلفة، ويجول بين أماكن متعدّدة، فيرى نفسه أحياناً صغيراً بين أمكنةٍ عظامٍ كالسّماء والبحر والجبال، وفي أحيان أخرى يرى نفسه كبيراً إذا مرَّ على بيت النمل أو العنكبوت، هذه الأمكنة نجد القرآن الكريم قد أورد لها حيّاً وفضاءً للتّعقل ولتدبر.

وردَ لفظُ السّماءِ أفراداً مائة وعشرين مرّة في القرآن الكريم، بينما وردت كلمة السّموات جمعاً مائة وتسعين مرّة، ويتحدّد مفهومُ السّماء عند أهل اللّغة بالعلوّ والرّفعة وجاءت من الفعل سما وهو: من السمو أي الارتفاع والعلو، تقول منه: سموت سميت مثل علوت وعليت وسلوت وسلّيت؛ عن ثعلب: وسما الشيء يسمو سموّاً، فهو سامٍ ارتفع. وسما به وأسماه: أعلاه، ويقالُ للحسيب وللشّريف: قد سما، وإذا رفعت بصرَكَ إلى الشّيء قلت: سما إليه بصري، وإذا رفع السّماء من كل شيء هو أعلاه، فكل ما علاك فهو سماء.¹

وأحمر كالديباج أماً سماؤه ... فرياً وأماً أرضه فمحوّل²

ولفظُ (السّماء) ومدلولها له صدّاً كبيراً في القرآن الكريم، ولذلك أقسم الله بها قال الله تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ [الشمس:5])، كما أقسم الله بها في سورة الطلاق وسورة البُروج والذّاريات، وهذا دليلٌ على قيمة هذا الجرم الكوني وأهميته في حياة الكون عموماً، وحياة الإنسان خصوصاً؛ حيثُ أودع الله فيها عجائب خلقه، وعظيم قدرته، ولطيف صنعه، والسّماء هي الجهة الرّمزيّة لوجود الله.

وجاء مع لفظ السّماء سبعة أفعالٍ هي: (خلق، جعل، بنى، رفع، سوّى، قضى، استوى)، وكلّها أفعال تقرير اقترنت بالسّماء من حيث نشأتها أو وجودها وشكلها ونوعها وما يتبعها

¹ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص99

² الزبيدي، تاج العروس، ج10، ص83

من دلالات ومعاني مُضمرة خفية كائنة ضمن سياقاتٍ جمالية، ولمّا كانت السّماء تحمل كل معاني الرّفعة والعلوّ، فإنّنا نلاحظ عندما نُخاطب صبيّاً قد بلغ من الكلام مسمعه السّليم، ومن الوعي الإدراك الرّصين، وسألته أين الله؟ لرفع رأسه إلى السّماء، وكأنّه يري مكان المولى عزّ وجل من خلال عظمة السماء التي يرى نفسه ضعيفاً امام رحمتها، وبهذا فإنّنا نخاطب الفطرة السليمة والقلب النّابض النّقي الذي عرف صاحب البناء من عظمة البناية.

أولاً نسق البناء والجمال:

من النّاس من سكن الخيمة والمغارة والعراء حاملاً همّ الخوف والرّعب والمشقة وسوء المنقلب، حتّى إذا أتينا به إلى منزل محكم البنيان وجعلناه مسكنه، نسي مكانه الأصليّ انبهاراً بمأواه الجديد؛ لأنّ الإنسان إذا رأى الرّخاء نسي الشّدّة، فيأخذ في التّساؤل عن كيفية بنائه مقارنةً بما رآه.

أ/ البناء: وورد لفظ السّماء بمفهوم البناء في ثلاث مواضع قال تعالى: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ [الأنبياء: 32]، وأكد أنّ السّقف لا يكون إلا لبناءً مشيّد، فقد جعل الله للأرض بناءً يحفظه متماسكاً فجعله سقفاً بلا أعمدة وهنا تأتي الآية لتبين بأنّ السّقف بيد الله لا يقع على الأرض أبداً، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ [الحج: 65]، وليس لهذا السّقف حدود بل يتوسّع قال الوليّ القدير: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْتُهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٩٧﴾ [الذاريات: 47]، " واستُعير لخلق السّماء فعل البناء لأنّه منظر السّماء فيما يبدؤ للأنظار شبيهة بالقبة ونصب القبة يُدعى بناءً، وهذا استدلالٌ بأنّ الخلق الذي عاينوا أثره ولم يشهدوا كيفيّته، لأنّ أثره ينبئ عن عظيم كيفيّته، وأنّها أعظم ممّا يتصوّر في كيفيّة إعادة الأجسام البالية¹.

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 27، ص 15

ويقتضي في البناء القوة والبسطة، والاعتدال، وحسن التدبير، إذ لا يمكن أن تبني بناءً ولو كان بسيطاً ولا تملك السلطة عليه، والله المثل الأعلى، ومن هنا أردف القرآن الكريم في هذه الآية كلمة (أيد)؛ "وَالْأَيْدُ: الْقُوَّةُ. وَأَصْلُهُ جَمْعُ يَدٍ، ثُمَّ كَثُرَ إِطْلَافُهُ حَتَّى صَارَ اسْمًا لِلْقُوَّةِ، وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ فِي سُورَةِ ص. وَالْمَعْنَى: بَنَيْنَاهَا بِقُدْرَةٍ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِثْلَهَا. وَتَقْدِيمُ السَّمَاءِ عَلَى عَامِلِهِ لِإِلَهْتِمَامٍ بِهِ، ثُمَّ بِسُلوِكِ طَرِيقَةِ الْإِشْتِغَالِ زَادَهُ تَقْوِيَةً لِيَتَعَلَّقَ الْمَفْعُولُ بِفِعْلِهِ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِنَفْسِهِ، وَمَرَّةً بِضَمِيرِهِ، فَإِنَّ الْإِشْتِغَالَ فِي قُوَّةٍ تَكَرَّرَ الْجُمْلَةُ، وَزِيدَ تَأْكِيدُهُ بِالتَّذْيِيلِ بِقَوْلِهِ: وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالْوَاوُ اعْتِرَاضِيَّةٌ¹.

وتبين أن نسق الآية في تقديم العمل على المعمول جاءت تأكيداً على أن هذا البناء المشيد الذي نرى ظاهره فقط هو هيمنة وسلطة واقتدار من المولى عز وجل، ويأتي البعد الجمالي لهذا البناء المحكم، فهو لا يقتصر فقط على التشييد والقدرة بل هناك تمكين وتغيير مستمر؛ فقوله " وإنا لموسعون "؛ أي يا ابن آدم إذا شدك بناء السماء فأني قادر على أن أجعل هذا البناء في اتساع مستمر، فالعبرة ليست في البناء فقط بل في إعطاء هذا البناء التوسع المستمر، والقدرة اللامتناهية، ولا ريب في أن نجد هذا البناء يحمل عامل البهاء والروعة والإتقان؛ قال تعالى (وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ ۖ) [الذاريات:7]، ذات الحبك أي ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء ويمكن أن نستقي أيضاً ميزة الثبات في هذا البناء الجمال، فالسما فيها صفة الثبات والأرض صفة التغير.

ومن وجوه فضائل السماء أن الله تعالى زينها بمصابيح وبالقمر " وجعل القمر فيه نورا"، و بالشمس " وجعل الشمس سراجاً" و بالعرش " رب العرش العظيم" و بالكُرسي " وسع كرسيه السموات والأرض" وباللوح " في لوح محفوظ" وبالقلم " نون والقلم" فهذه سبعة ثلاثة منها ظاهرة، وأربعة مخفية تثبت الدلائل السمعية من الآيات والأخبار، والثاني أنه تعالى سمى السموات بأسماء تدل على عظم شأنها : سماء، وسقفاً محفوظاً، وسبعاً طباقاً، وسبعاً

¹المصدر نفسه ص 16

شداداً¹، يأتي جمال السماء على سبعة أوجه وهي أصلاً سبعُ سمواتٍ، منها ثلاثُ ظاهرة للإنسان وهي النجوم والقمر والشمس، وهي كواكبٌ عظيمٌ شأنها بيّنة لناظرها، بينما الأربع المخفية لا ندري عنها سوى ما سمعناه من لدن الحكيم الخبير، وفي هذا حكمةٌ وهي باب الاشتياق لها فإن كنا ننظر للظاهر منها ونعجبُ بها فما بالنا لو كان هذا الجمالُ فيما لا نره وهذه الأربعُ هي العرشُ والكرسيُّ واللوح المحفوظ والذات الإلهية.

ب/ الجمال: ويتجلى الجمال في هذا البناء الشاهق أن جعله الله مزيّناً بالنجوم قال تعالى: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ [الملك:5]، "وقال الخازن: وإن قيل كيف تكون زينة السماء ورجوماً للشياطين، وكونها زينةً يقتضي بقاؤها، وكونها رجوماً يقتضي زوالها فكيف الجمع بين هاتين الحالتين؟، فالجوابُ أنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوزُ أن تتفصلَ من الكواكب شُعلةٌ وترمى الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب" ².

حتى وإن كانت السماء مصدر عذاب للشياطين ففي تلك الشهب أيضاً جمال فائن، ولا يدري الإنسان أنها رجومٌ لولا تصريح القرآن بذلك، فنحن نرى جمالها وهي تنصبُ من كلِّ جانب ليلاً، والزينة عادةٌ لا تكونُ إلا للشيء الجميل دون القبيح، فإنه إذا رُسمت لوحة فنية جميلة فإنه ستُضاف إليها بعض الألوان والزخارف لكي تكون في أبهى حلة.

ولو رأينا كلمة الزينة لوجدناها وردت أكثر من خمسٍ وعشرين مرة في كلام الله وكلها تحمل معاني الجمال والبراءة والوداعة، حتّى أنّ المولى عزّ وجل يأمرنا بأن ننزّين عند كلِّ مسجد، وذلك لما يليق بمقام الصلاة والعبادة، وقد تأخذ كلمة الزينة دلالاتٍ متعدّدة منها الجانب الإغرائي الذي يجعل ابن آدم ينجذبُ إلى بعض الملذّات والشّهوات، فينساق وراء ذلك التزيّن، ويكون ذلك من النفس الأمّارة بالسوء ومن همس الشيطان الذي هو عدو للإنسان

¹فخرالدين الرازي، مفاتيح الغيب، ط1، دار الفكر، بيروت لبنان، 1981، ج2، ص 117

²الصابوني، صفوة التفاسير، ج3، ص412.

فيرسم القبيح على وجهه الحسن، فالشيطان يُغري العبد فيجعل القبيح منه حسنا حتى إذا وقع في شركه، ظنَّ أنَّ الذي يدَّعيه ويقوم به من الشَّيء الحسن ولكن خاب وخسر.

والإنسان بفطرته يميل للجمال وفي أحيان كثيرة يسعى لتملكه، فزينة السماء النجوم تضيء ليلاً حتى إذا أخذ أحدنا ناظره في عدّها أخذها خاطره لحسنها ولا تحصى عدّها أبداً، وإن كان لكل خلق عبرة وحكمة فالغاية من ذلك أن يجعل الإنسان هذه النجوم هداية له إن ظلَّ وأنسا إن حزن وتذبّرا في آيات المُنعم سبحانه، ومن جمال البناء أنَّ الله فوق السماء وكلّما نطق بلفظ السماء إلا إذا راودك معنى العلو، ولكن هناك العلو المطلق وهو الله تعالى الذي هو فوق السماء قال تعالى: (ءَأْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿٣٦﴾) [الملك:16].

هذا البناء ببداية الله فهو حرٌّ في التصرف فيه، ولهذا على العبد أن لا يأخذه الغرور إنما عليه أن يخشى من جعل الأمان في هذا السقف الذي يحميه، ومن عظمة البناء أنه محفوظ كأن، عليه حراس يحمونه قال تعالى: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾) [الأنبياء:32]، والحفظ بمعنى السّتر والطمانينة والسكينة، ومن الآيات التي تدعو الفكر إلى التدبّر في جمال هذا البناء أنك ترى الطيور على أشكالها وكأنها بداخل السماء، ولا تسقط على الأرض ولا يمسّها سوء قال تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾) [النحل:79].

ولفظ مسخّرات اسم مفعول لاسم الفاعل سخر بتشديد الخاء، ومعناه أنَّ الله سخر السماء لهذه الطيور فهي تجول آمنة مطمئنة لا يمسّوها ضرر، فسبحان الذي علّم الطيور كيفية الطيران، وسبحان من أوجد لها فضاءً أن تطير، فهذا أثر وجود الحكيم المقتدر، وهذا من بديع صنع الله ومن جمال الطبيعة التي جعلها تسرّ الناظرين، وتأسر أفاذا المتأملين، قال الكبير: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾) [ق:6].

وهنا كمال الإعجاز ووجهه يكمن في أن هذا البناء الذي بناه الله بإحكام فريد وجمال فاتن، يدعوك للتأمل فيه ومن بين الأشياء التي تسرُّ الناظرين أنَّ هذا البناء أيضا من صفاته الكمال، فذكر الله ملفوظين هما (بنيانها، زينانها) ويعني القوة والجمال، ويُضافُ إليه الكمال، لو تُقارن هذا الصُّنع بصنع الإنسان والله المثل الأعلى، لوجدنا صُّنع الإنسان ناقص مهما تكاثفت الجهود، ومع مرور الزمن قد تظهر بعض الشقوق والصُّدوع بفعل العوامل الطبيعية أو نقصٍ في هيكله البناء بحدِّ ذاته، فمرتبة الكمال لا يُمكن أن تكون إلا لمن هو كامل الله الواح الأحد، والفروج بمعنى الشقوق والصُّدوع فهي لن تكون أبداً فيما أوجده وخلقه الله الخالق، والشاهد ما تراه أيُّها الإنسان ببصرك.

ونستخلص ممَّا سبق أن نسق الجمال والبناء للآيات المذكورة حول السَّماء هي:

- ✓ أنَّ السَّماء بناها القويُّ المتينُ فهي تأييد من الله مسخرة لعباده.
- ✓ هذا البناء محكمٌ متكاملٌ في شكله وصورته.
- ✓ جعل الله السَّماء فضاءً آمناً لمخلوقاته جميعاً ومنها الطَّير التي تحلق في جوِّها.
- ✓ وجه الإعجاز في هذه الآية الكونية أنَّ الله جعل فيها نجومًا مُزينةً والشَّهب تزيده جمالاً مع أنَّها عذابٌ وفوق كل هذا فهي محفوظة من كل سوء إلى يوم القيامة.

ثانياً / نسق العطاء والفضل:

السَّماء في الدِّينيات المُنحرفة والمعتقدات الباطلة ترمزُ إلى الرِّخاء والرِّزق الوفير، وقد جعل الإنسان السَّماء إلهاً يعبده لما فيها من الأثر على حياة النَّاس، فهم ينظرون إليها بعين الرِّحمة والرِّخاء والعطاء الذي لا ينقبض، فتغدقُ عليهم بمائها، وترسلُ نورَ الشَّمس فتتيرُ درب العباد، ونسوا في غفلةٍ وجهلٍ ونزغٍ من الشَّيطان أن الذي بناها هو أرحمُ الرَّاحمين.

أ/العطاء: وإذا تأملنا كلام الله نجد هذه الدلالات مبنوثة في غير موضع من الآيات الكريمة فقد وردَ مفهومُ السَّماء على أنَّها مصدرٌ للنَّعم والرِّزق، ونزول الغيث في نحو ست وعشرين

موضعا، يشير القرآن إلى أن الماء منزل من السماء، وأن الله وحده هو الذي ينزله أو يرسله على الناس مدرارا، وذلك الماء ينزله الله تعالى من السحاب بقدر، فيسكنه في الأرض برحمته، بعد أن تقوم الرياح بأمر الله بدورها، فيحيي الله بالماء الأرض بعد موتها، ويخرج به أزواج النباتات والثمار، فتصبح الأرض مخضرة، ومن صفات الماء المنزل من السماء أنه مقدر محدود وعلى المطلوب فلا يزيد ولا ينقص، وأنه طاهر طهور للتربة وللعباد، وصالح للسقي والرعي، وأنه فرات، منهمر، ثجاج، مبارك.

كما أنه ليس لأحد أن يدعي أنه ينزل الماء من السماء من الذين ادّعوا الألوهية والربوبية؛ لأن الله وحده هو الذي يملك ذلك؛ مصداقا لقوله تعالى في آيات عديدة قال تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾) [البقرة:22].

فذكر السماء بفضل نعمتها وهي المياه التي هي من أسباب الحياة على الأرض، فلم ينسبها إلى السحاب وإن كان السحاب وعوامل الطبيعة المختلفة من تشكل قطرات الماء، وكذلك الحال بالنسبة لهذه الآية التي ربط بها آيات كونية مختلفة ثم تحدثت عن أهمية الماء بالنسبة للحياة، وأن مصدره السماء قال الرزاق: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾) [البقرة:164].

وقال أيضا: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾) [الأنعام:99]، (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ

بِهِ لَقَدِرُونَ ﴿١٨﴾ [المؤمنون:18]، الملاحظ في هذه الآيات الكريمات تكرار لفظ الماء، وهو منبع الحياة، وارتباط هذا الماء بالسماء، فلولا السماء التي هي فضاء مسخر لهذا السحاب المتراكم لما كان الغيث، والله أنزل الماء بقدر على الناس فلم يكن قليلاً ليَجفَّ ضرعه، ولا كثيراً فيطغى أثره، نَزَلَهُ بقدر تحمل أكثر من معنى، قد تقيّد معنى الإقتدار وهو أَنَّ هذا هو مُلْكُ الله راجع له مُقْتَدِرٌ عليه، ويحمل معنى الكثرة والقِلَّةِ وهذا يتمثل في: كمّيّته، وزمن نزوله ومكانه أيضاً.

وتحمل معنى القدر ربط الأسباب بالمسببات، فلا تكون الأمطار مالم يكن السحاب المتراكم، ولولا الرياح لما اندفع هذا السحاب وتراكم، ولولا الرطوبة لما أمكن ثباته في كبد السماء، ولولا الحرارة لما تبخر الماء وهكذا، وكلّه يرجع إلى الله فهو فضله، أي كل شيء بدقة متناهية، فلا يمكن للإنسان أن يسأل المولى عز وجل عن مقدار الماء المنزل، ولا عن زمان نزوله، فهو الله العليم بذلك، وقال عن نعمة الماء المنزل بقدر أيضاً (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ [الأنعام:6].

فقد ذكر صفة الماء وهيأة ونزوله ولم يذكر لفظ الماء وبذلك قد قدّم المعنى على المبنى ليبثّ في عقولنا مدى فضله وسبحانه وكريم عطائه، ومصير من جحد وقابل النعمة بالسخط والمعصية، فهلاك العباد لا يكون إلا بما قدّمت أيديهم ولا يظلم ربنا أحداً، "عن الحسن البصري أنّه إذا رأى السحاب في كبد السماء قال لأصحابه: فيه والله رزقكم ولكن تُحرمون لخطاياكم"¹ وفي هذا أيضاً تذكير بفضل الله على العباد، وكَم من الناس من يكدّ و يجتهد

¹جار الله بن محمود الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل، مطبعة الليسي، النجف، العراق، ج2، ط1، ص1310

في حرت أرضة ، ويزرعها لدرجة الإتقان، ولكن لا يملك القدرة على انبات نُضجه، فينتظر المدد من السماء.

فالله سبحانه وتعالى أوجد للإنسان عناصر بقائه، ومن بينها السماء فهي أساس الرزق حتى أن المولى عز وجل ربطها به؛ فعند أهل البلاغة ينظرون إلى الآية الكريمة: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ [الذاريات:22])، وفي بلاغة الآية مجاز مرسل والقرينة الحاملة لمدلولها قرينة مسببيه، فهو لم يعني لفظ السماء وإنما أراد السبب وهو الغيث¹، والأثر البلاغي تعظيم شأن السماء و جعلها الحاوية للرزق ،فقد حسن اختيار القرينة وزاد من المعنى جملاً، وأثار ذهن السامع.

ب/ **الفضل:** والسماء نتيجة لكل أمر يقع على الأرض فهي الأصل والمرجع، وكل شيء يعود إلى السماء، وعادة ما يكون نظر الإنسان إلى مسألة الرزق نظرة قاصرة، فهو يرى الرزق في المال؛ عن مطير عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت وما لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت"2، والحديث يجعلنا ندرك أمراً في غاية العظمة هو أن الغني ليس في المال وأن الله هو الغني الحميد.

حتى وإن كنت تملك المال الوفير فلا يمكنك أن تمطر قطرة واحدة على أرض قاحلة، وتلفتنا آيات الماء من السماء إلى أن الرزق لا يأتي من الأعلى، بل ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالماء لأنه رزق مباشر محسوس منا، الماء ينزل من السماء في أنقى صورة وكل ما يأتينا من السماء فيه علو، السماء مصدر كل فضل وحياة وعلو، ولما كان الماء عنصراً هاماً للبقاء جعله في السماء شأنه شأن الهواء.

¹ علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص 44

² أبو الحسين مسلم، الصحيح، تح محمد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي، القاهرة، مصر، ط1، 1974، ص

وتُعدّ السَّمَاءُ ذا فضلٍ على العباد، في كلّ ما له علاقةٌ بتجاربه ونمطِ حياته، فهي التي تحمل الشمس التي هي كوكبٌ جعلها الله محطّ نور الأبصار، وتُلقي بحرارتها على الناس والبهائم والأنعام ليستمرّ بقاؤها، فلو لم تكن الحرارة لهلك كلّ من على الأرض من شدة البرد، وجعل الله السَّمَاءَ موطن النّجوم السيّارة ليلاً، فهي ونسّ للإنسان إذا سار ليلاً، والسَّمَاءَ موطن القمر الذي ساعد الإنسان في معرفة الشّهور والأعوام، وهي مسكن الإنسان وسقف معيشته، والفضل الزيادة، فقد زادت عن سعتها وسَترها جمالُ نجوم ليلها وزُرقتها التي عمّت الآفاق.

وهي وجهٌ من وجوه علم الله، فمن فضائلها أنّها تُعرّفنا بالمولى عزّ وجلّ قال في علاه: (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾) [آل عمران:83]، فالله عليم بكلّ أسرار السَّمَاءِ وبذلك يعلم أسرار ما في جوف الإنسان ووجدانه، قال جلّ في علاه: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾) [النساء:132].

" ما الفائدة في تكرار قوله: (والله ما في السماوات وما في الأرض)؟، قلنا: إنّهُ تعالى ذكر هذه الكلمات في هذه الآية ثلاث مرّات لتقرير ثلاثة أمور: فأولها: أنّه تعالى قال: (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته)، والمراد منه: كونه تعالى جواداً متفضلاً، فذكر عقيبهُ قوله: (والله ما في السماوات وما في الأرض)، والغرض تقرير كونه واسع الجود والكرم، وثانيها قال: (وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض)، والمراد منه: أنّه تعالى منزّه عن طاعات المُطيعين وعن ذنوب المُذنبين، فلا يزداد جلاله بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي والسيّئات، فذكر عقيبهُ قوله: (فإنّ لله ما في السماوات وما في الأرض) والغرض منه تقرير كونه غنيا لذاته عن الكل، وثالثها قال: (والله ما في السماوات وما في

الأرض وكفى بالله وكيلًا إن يشأ يذهبكم أيُّها النَّاس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا .(

والمُرَاد منه: أنَّه تعالى قادر على الإِفناء والإِيجاد، فإن عصيتموه فهو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالكلية، وعلى أن يوجد قوما آخرين يشتغلون بعبوديته وتعظيمه، فالغرض ههنا تقدير كونه سبحانه وتعالى قادرا على جميع المقدورات، وإذا كان الدليل الواحد دليلا على مدلولات كثيرة فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل؛ ليستدل به على أحد تلك المدلولات، ثم يذكره مرة أخرى ليستدل به على الثاني، ثم يذكره ثالثا ليستدل به على المدلول الثالث. وهذه الإعادة أحسن وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة؛ لأن عند إعادة ذكر الدليل يخطر في الذهن ما يُوجبُ العلم بالمدلول، فكان العلم الحاصلُ بذلك المدلول أقوى وأجلى.

فظهر أنَّ هذا التكرار في غايةِ الحُسْن والكمال، وأيضا فإذا أعدته ثلاث مرات، وفرّعت عليه في كل مرة إثباتُ صفةٍ أخرى من صفات جلال الله تتبّه الذهن حينئذ؛ لكون تخليق السماوات والأرض دالا على أسرار شريفة، ومطالب جليلة، فعند ذلك يجتهد الإنسان في التّفكّر فيها، والاستدلال بأحوالها وصفاتها على صفات الخالق سبحانه وتعالى، ولما كان الغرض الكلي من هذا الكتاب الكريم صرف العقول والأفهام عن الاشتغال بغير الله إلى الاستغراق في معرفة الله، وكان هذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكدّه، لا جرم كان في غاية الحسن والكمال¹ فقد تبين:

✓ أن الله جعل أقوات العباد في السماء وأنها نتيجة كل ما يوجد في الأرض من غطاء نباتي وثمر وزروع.

✓ فضل السماء على الإنسان يكمن في الفضاءات التي تحملها على عظم صنْعها، فالشمس والقمر، والنجوم مسخرة للعباد، وهي بالدرجة الأولى للحياة واستمرارها على

¹ الرّازي، مفاتيح الغيب، ج11، ص57

الوجه الذي خلقه الله وأبدع فيه، وفضل السماء محدّد بالمواد الحيويّة التي تحملها منها الهواء والماء والحرارة.

✓ السماء بالنسبة للخلق رحمة ينظر إليها الطامعون، ويمدّون أيدي التضرّع للسماء لكي تمطر فهي في نظر الخلق شيء عظيم فيها قوتهم، ولكن ما يجتهدون في الأرض هي سبب فقط.

ثالثا /نسق العذاب والسخط:

يأتي المعنى اللغوي للعذاب بمفهوم الشدة بسبب عامل من الضرب وغيره، يقول ابن فارس في مادة «عذب»: «العين والذال والباء أصل صحيح، لكن كلماته لا تكاد تقاس، ولا يمكن جمعها إلى شيء واحد، العذاب: يقال منه: عذب تعذيباً، وناس يقولون: أصل العذاب الضرب، واحتجوا بقول زهير:

وَحَلَفَهَا سَائِقٌ يَحْدُو إِذَا خَشِيتَ مِنْهُ الْعَذَابُ تَمُدُّ الصُّلْبَ وَالْعِقَاءَ¹

أ/ العذاب: فلا يكون العذاب إلا مقابل عقاب ولا عذاب إلا من ورائها ذنوب ومعاصي أُقترفت وحصلَ تمادٍ في الفسوق، ولا عذاب إلا بحسابٍ أو انذارٍ، وهذا نجد له تفصيلا في كتاب الله تعالى في أكثر من موضع، ولا يكون العذاب مقرونا بالابتلاء فذاك ألم يجازى به العبد مقابل صبره، وردت مادة (عذب) في القرآن كاسم في أكثر من ثلاثة مائة موضع، منها قوله تعالى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾) [آل عمران: 106].

ووردت كفعلٍ في ستة وعشرين موضعا، منها قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾) [

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص48

المائدة:40]، وجاء لفظ العذاب كاسم فاعل في ثمانية مواضع، منها قوله تعالى: (مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ [الإسراء:15]، وقد جاء وصف (العذاب) في القرآن بأنه (أليم) في ثلاثين موضعاً، منها قوله تعالى في المنافقين: (فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ [البقرة:10]، وبأنه (شديد)، في نحو خمسة عشر موضعاً قال جلّ في علاه: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ [إبراهيم:7]، كما جاء العذاب بصفة العظمة أيضاً، لقد ذكر القرآن الكريم لفظ العذاب على أوجه صرفية عديدة وفي سياقات مختلفة لكن الجامع بينها؛ أن العذاب يكون فقط عقاباً أو تأديباً من المولى تعالى، وأن صنوف العذاب لا تكون إلا من لدن العدل المنتقم، وهو الله الوحيد الأجدر والأحقّ بالعذاب.

بعد سرد أقوال علماء اللغة في معنى العذاب، وتفصيل ما ورد في القرآن عن مدلوله ولفظه، نجد أن معنى العذاب في الاصطلاح لا يبتعد كثيراً عن المعنى اللغوي، حيث يأتي العذاب بمعنى العقاب والنكال، وكل ما شقّ على النفس، إن فلسفة العذاب الترهيبية لا تخلو من التحضيض والترغيب، وهذه الوظيفة الدلالية تتأتى من خلال استدعاء الصورة العقابية في مقابل صورة النعيم، وما تشتمل عليه من الطيبات والملاذات التي جسدها الخطاب القرآني في صور وتعبيرات فنية بارعة، لا تقل روعة وجمالاً عما هو موجود في تجسيد الصورة العقابية، وإن السياقات القرآنية التي توظف التقابل الضدي، بين صورتَي النعيم والعذاب دلاليًا هي سياقات فنية راقية، تختزن في ثناياها انفعالات ثانوية غير ملفوظ بها، تحتلها طبيعة التضاد بين مضامين الصورتين المتقابلتين، تتمثل في إسهام كل منهما في تقوية دلالة الآخر، وتعزيز وظيفته البلاغية.

والعذاب على الأرض لا يكون إلا من السماء، وقد تأتي صورة العذاب في وجهه الحسن الذي ينظر إليه العبد كالمطر قال تعالى: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾) [الأعراف:84]، فالمطر في ظاهره نعمة على العباد، ولكن تحمل من ورائها عذاب شديداً، فلا يؤمن مكر الله، فتقافة الكافر لا تستدعي وجود عذاب للمطر، فهو يراه بوجهه الحسن، ومتيقن من فضل السماء، ولكن نسي رب السماء الذي يمكن أن يجعل منها مكاناً متوحّشاً، وحتى مسألة الريح، الذي هو في جو السماء، يراه الكافر بعيون قاصرة مصدر رزقٍ وحرثٍ فهو ينقل الرّيح، والسحب، ولكن الله جعل منه عذاباً شديداً قال تعالى: (فَلَمَّا رَأَوْهُ غَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا غَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾) [الأحقاف:24].

فقد حسب الناس أنّ ما تحمله هذه الرياح فيها من الخير العظيم، ولكن السماء التي كانت في يومٍ ما استجابة للنعم والخير والتماء تصبح مصدر عذابٍ حينما أتى الإنسان بما يُغضب خالقها، وقد جعل الله السماء وجهاً آخر شاحباً، فهي جُندٌ من جنوده، تسلك سبيل الحق تعالى، فتغضب لغضبه، وترحم حينما تكون الرحمة عنوان فضل الله، السماء فضاء يحمل الخير ويحمل العذاب، هي مساحة جمال وبهاء، ورزق ونماء وهي كذلك مصدر عذاب، فلا تدع طغيان الإنسان يعلو فوقها ويسمو لما هو أعلى منها، فهي بمرصاد كل متجبرٍ.

وعين الإنسان قاصرة تُجهها ولكن لا يؤتمن غدرها حينما يكون الجُدُّ، فمصدر كل عقابٍ جماعي كان من السماء ولم يكن من الأرض، والدليل ما نزل في حق السماء كفضاء مقترن بهذه الصّفة.

✓ والفائدة المستقاة من هذا الوجه البلاغيّ، أنّ العذاب لا يكون إلا بمن بيده ملكوته وسببه ومرجعُه، ولديه الحكمُ به وهو الله القويّ المتين، ولما كان كذلك، جعل العذاب

يأتي من الأعلى، وليس من الأسفل، وفي هذا ارتباط وثيق بمقام الربوبية والألوهية،
ثم إن العذاب من السماء فيه قوة وشدة، ورمزية تحمل رسائل ألوهية.

✓ لا يكون العذاب إلا من وراء حساب، وإنذار وتحذير يقدمه رسل الله، وجاء العذاب
من فضاء السماء لسفاهة عقل الكافر الذي عادة ما يتخذ من كل شيء قوياً إله
يعبد. فيعذب به، والشمس اتخذت إلهاً فلم تنجهم من العذاب بالرغم من تواجدها في
فضاء السماء.

ب/ السخط: تتوعد صنوف العذاب النازل من السماء على الكافرين المعاندين؛ من
الصيب، والرجز، والكسف، والحسبان، والآيات المعجزات، والصيب هو المطر من السماء
في حال ظلمات من الليل وغيره من ظلمات السحب المتراكمة، والرجز العذاب والغضب،
وقيل: هو الطاعون، والكسف القطع من السماء، والحسبان مرامي من السماء، واحدها
حُسانة، والحُسانة السحابة، والحسانة الصاعقة.

قال الله تعالى: (أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْدِعَهُمْ فِي عَازَانِهِمْ
مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ [البقرة: 19])، يعتقد كثير من الناس
أن المطر والرعد والصواعق جانب من جوانب الخير والنعم والفضل والرزق، ولكن الله
تعالى يرسلها في مواطن محددة عذاباً للمنافقين فقد جاء في سياق الآية الحديث عن
المنافقين الذي لقبهم الله في سورة البقرة بقسوة القلوب، وضرب الله بهم الأمثال فجاءت الآية
ترهيباً لهم، وبأن الله قد أحاط بهم من كل جانب، وموتهم وهلاكهم يكون حتى من السماء
التي تخافون سماع دوي رعودها وصواعقها، وتحثون إلى غرق مائتها وجمال نجومها وغسق
ليلها وشفق صبحها.

" فشبه المنافقين في حيرتهم و جهلهم بالدين بهؤلاء الذين وصفهم بالخوف، إذ كانوا لا
يرون طريقاً ولا يهتدون، وثانيها أن المطر وإن كان نافعا إلا أنه لما وجد في هذه الصورة

مع هذه الأحوال الضارة صار النفع به زائلاً، فكان إظهار الإيمان نافعاً للمنافق لو وافقه الباطن؛ فإذا فقد منه الإخلاص وحصل معه النفاق صار ضراراً في الدين¹، وفي حال ظلم النفس كان العقاب رجزاً ومحله السماء، قال الله تعالى: (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾) [البقرة: 59]، فهذه الآية نزلت في بني إسرائيل حينما بدّلوا قول الله تعالى؛ "بدل بنو إسرائيل القول من أن يقولوا حطة قالة حنطة، وبدّلوا طريقة الدخول من أن يدخلوا ساجدين دخلوا على ظهورهم زاحفين، فأصابهم الله بعذاب من السماء بما كانوا يفسقون".

في هذا تأكيد بأن العذاب لا يكون إلا عقاباً، وهذا العقاب لا يكون إلا من السماء لأن كل شيء نازل من السماء إلا ويتلقاه الإنسان برهبة وخشوع، ونرى في سورة الكهف ذلك الجدل الذي كان بين الشاكر والجاحد وتهديده بالعذاب الذي يكون من السماء تخويفاً وتصديّة، ومحاولة منه ليعدل عن جحوده قال تعالى: (فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾) [الكهف: 40].

والحُسابان: مصدر حسب كالغفران من غفر، وهنا صفة لموصوفٍ محذوفٍ أي هلكا حساباً، مقداراً من الله، كقوله تعالى "عطاءً حساباً"، وقيل الحسابان اسم جمع لِسِهَامٍ قصارٍ يرمي بها في طلقٍ واحدٍ وليس له مفرد، وقيل اسم جمع حسابانه وهي الصاعقة، وقيل اسم للجرد والمعاني الأربعة صالحة هنا، والسماء الجو المرتفع من الأرض²، فكل شيء يعلو الأرض تكون السماء مصدره.

وإن الكافرين تحدّو الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أن يأتيهم العذاب من السماء، كسفاً؛ وهي قطع من الجمر أو النار قال الله تعالى: (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِلًا وَالْمَلَكُ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾) [الإسراء: 92]، والكسف بكسر الكاف وفتح السين جمع كسفه،

¹الرازي، مفاتيح الغيب، ج2، ص85

²ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص 5546

وهي القطعة من الشيء مثل سدره وسدر¹، فكما كان طلبهم بالنعم التي تأتي من السماء كان طلبهم كذلك بالعذاب، وهذا اعتقاد سائد في الذهنية الجاهلية أن السماء مصدر كل خير ومصدر كل شر.

ومما سبق فالنتائج المتوصل إليها:

✓ في أن السماء تمثل جانب الرهبة والخوف في الخطاب القرآني لأنها مصدر كل عقاب.

✓ يكون العذاب من السماء على أشكال مختلفة قد تكون حمماً من نار أو قطعاً من الفحم المحترق أو طيوراً تحمل سجيناً، وما إلى ذلك من صنوف العذاب.

✓ لا يكون العذاب إلا بعد استنفاد دواعي وسبل الهداية التي يقوم بها الرسل عليهم السلام، وإن حق القول عن أمة بالعقاب كان العذاب ويكون أليماً شديداً وعظيماً.

✓ ملحوظة: قد يكون العذاب نفسي أو لا يكون مصدره من السماء، ولكن حينما نتحدث عن دلالات المكان ونسقه في كتاب الله نجد بأن السماء قد تحمل معاني الرخاء والفضل والرزق، وكما تحمل معاني الشدة والسخط والعذاب.

¹المرجع السابق، ص 5430

➤ المبحث الثاني: دلالات الأرض كفضاء منفرد:

ورد في القاموس المحيط (أ، ر، ض) الأرض مؤنثة اسم جنس أو جمع بلا واحد، ولم يُسمع أرضة أرضات وأروض وأرضون وأراضٍ والأراضي غير قياسي هي أسفل قوائم الدابة، وكلّ ما سفل هو أرض، والزكّام والرّعدة¹، وقال في هذا ذي الرّمة:

إذا توجّس ركّزا من سنابكها ... أو كان صاحب أرضٍ أو به مؤم²

وقال ابن القيم: إنّ الأرض في الأصل ليست من أسماء الأجناس مثل (ماء، وحجر وتمر)، ولكنّها لفظة جارية مجرى المصدر فهي بمنزلة السفل والتّحت، وبمنزلة ما يقابلها كالفوق والعلو، ولكنّها وصف لهذا المكان المحسوس فجرت مجرى (امرأة).³

من خلال هذا الشرح المعجمي فهو يفيد ثلاث أصول لغوية: الأول: كل شيء يسفل، ويقابل السماء، يقال لأعلى الفرس: سماء، ولقوائمه: أرض، الثاني: الرّكمة، يقال: رجل مأروض، أي: مزكوم، الثالث: الرعدة، يقال: بفلان أرض، أي: رعدة، ومما ألحق بهذه الأصول قولهم: أرض أريضة: حسنة النبات، زكية معجبة للعين، والإريضة، بكسر الهمزة والأريضة بضمّها: الكلاء الكثير، وأرضت الأرض: كثر كلؤها، والتأريض: تشذيب الكلام، وتهذيبه، والتثقيب، والإصلاح، ورجل أريض للخير، أي، خليق له، شُبّه بالأرض الأريضة، وجاء فلان يتأرض لي، مثل يتعرّض لي، ويقال: فلان ابن أرض: إذا كان غريباً، والأريضة: دويبة بيضاء تشبه النملة ولفظ (الأرض) يجمع على (أرضون)، و(أرضات)، و(أروض)، فلفظ الأرض ثقيل على اللسان هو يفيد كل بقعة فيها وتدّل على أي ملكية لشخص أو شعب، نقول: (فلان يملك أرضاً)، (وهذا الشعب أراضيّه ممتدة).

¹ مجد الدين ابن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط1، دار الفكر، بيروت، لب نان 2003، ص 572

² ذي الرمة، الديون، تح عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، جدّة، السّعودية، ط1، 1987 ص 586

³ ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج1، ص 113

ولفظ (الأرض) في القرآن الكريم ورد في ثمانية وخمسين وأربع مائة موضع، يرد فيها الإعلان بأن المالك للأرض هو الله، وأن الله قادر عليها، ولا يخفى على الله شيء في الأرض، وأن الأرض خلقت بالحق، وأن الأرض بديعة، وفي خلقها آيات للعقلاء يتدبرون فيها، وأنه سبحانه وتعالى قد سخرها للناس، وأمرهم بالمحافظة على صلاحها وعدم إفسادها، وأنه استخلفهم فيها، وأن الله جعل الأرض مستقرًا ومتاعًا إلى حين، وجعل الله الأرض مسرحًا للنشاط البشري؛ يضربون فيها، وأن على البشر السير في الأرض طلبًا للرزق والهجرة فيها مستحب ومأجور صاحبها وقد كان حجة الضعفاء ووهنهم بين العباد، فتجيب الملائكة بحجة عليهم وهي انقطاعهم من الهجرة فيها.

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِيَةِ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ [النساء: 97])، وفي الأرض تاهت أمة حادت عن الحق وهي اليهود، ومن معاني الأرض في القرآن إشارات علمية تتعلق بمد الأرض ونقصانها وصدعها ودحوها وطحوها واهتزازها وما لذلك من دلائل معرفية.

ومن خلال ما سبق ذكره يمكن أن نضع أنساقا خفية تحملها معنى الأرض في النص القرآني، ومما استخلصناه من اجتهاد السابقين وتأويلاتهم:

أولاً: نسق الاستخلاف والتمكين:

جعل الله الإنسان خليفة في الأرض وسخر له ما فيها من الأنعام والنبات له لكي يعمل ويزرع منها، ويستمد منها قوته، ويتكاثر فيها ويستمر نسله إلى يوم القيامة، وفي الأرض سنن الحياة منها التعايش وتبادل المعارف بين بني البشر قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات: 13])، وقال الثوري الشعب: هو الذي يجمع القبائل

وتتشعب منه¹، ومنه فمادة التعارف أن يكونوا على قطعة واحدة من الأرض تجمعهم ثم يتفرقون منها .

أ/ التمكن: يقول صاحب القاموس في مادة (م ، ك ، ن): مَكَّنَ أي كَرَّم، و تَمَكَّنَ فهي مَكِين والمكانة المنزلة عند الملك²، ومن التمكن (المُكْنَةُ) تقول العرب: إن فلان لذو مُكْنَةٍ من السلطان أي تَمَكَّنَ³، التمكن هو مصدر للفعل (مَكَّنَ)، والمكان عند أهل اللغة هو الموضع الحاوي للشيء، وقد وردت مادة (م ك ن) بمعانٍ متعددة، منها: مَكَّنَ الشيء قوياً ومتيناً ورسخاً واطمأن فهو مَكِينٌ، ومَكَّنَهُ من الشيء وأمكَّنَهُ منه: جعلَ عليه سلطاناً وقدرةً، وأمكن فلاناً الأمر: سهل عليه وتيسرَ وقدر عليه. وتمكن من الأمر واستمكَّنَ منه: قدر عليه وظفر به. ويقال: مَكَّنْته وأمكَّنْتُ له فَمَكَّنَ، وأمكَّنْتُ فلاناً من فلان، إذا فمن الناحية الدلالية، فهي تحمل معاني التحكم، والسيطرة على البقعة الجغرافية من الأرض، وفي طياته معاني الهيبة والسلطان والمنزلة.

وقد وردت كلمة التمكن ومشتقاتها في القرآن الكريم في ثمانية عشر موضعاً، وغلبت عليها الصيغة الفعلية التي يبدو فيها التمكن كأنه صيرورة وليس مفهوماً ساكناً، وفيها ينسب الله تعالى التمكن إلى ذاته العلية؛ فهو وحده من يمكن للإنسان وليس الإنسان من يمكن لذاته فرداً كان أو جماعة، ونرى معاني التمكن في القرآن الكريم على وجوهٍ عديدةٍ منها التمكن للسلطان والتمكن للدين والتمكن للعمل الصالح والتمكن للرسل.

وجاء التمكن للسلطان الصالح في موضعين لذي القرنين ويوسف عليه السلام حيث قال في شأن ذي القرنين: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ [الكهف:84]، وقد اقترن التمكن بأسبابه، وهي من المواهب والفضائل التي تكون من عند المولى عزَّ

¹ شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1963، ج2، ص284

² الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص 1113

³ ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص414

وجلّ أي أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يُعطى الملوك من التمكين والجنود¹، وقال عن يوسف عليه السلام: (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾) [يوسف:56]، "والتمكين في الأرض هنا مرادٌ به ابتدأه وتقدير أول أجزائه، فيوسف عليه السلام بحلوله محلّ عزيز مصر قد خطّ له مستقبل تمكينه في الأرض بالوجه الأتمّ لذلك بأن جعله نبياً، وأنجاه من الهلاك وعلمه تأويل الأحاديث، والسعي في ما أَرَادَهُ الله²."

فسننُ التمكن العلم النافع والعمل الصالح والإخلاص فيه والبعْدُ عن الأمور التي تغضبُ الله أي تقوى الله في العلم والعمل، أمّا التمكن في الدين فقال تعالى في سورة النور: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾) [التور:55]، "والمراد هنا خلافةُ الله في أمره ونهيه"³.

والتمكن في الأرض هو بسط الإسلام على الأرض، وقد وعد الله رسله بالتمكين والغلبة قال عز وجل: (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾) [المجادلة:21]، فقد عطف رسله على ذاته العلية، والغلبة معناها التمكن في الأرض، ومما يُلحظ كذلك أنّ الآيات التي جاء فيها الوعد بالتمكين ونحوه وذَكَرَ لفظ الرُّسل فيها فهي في الغالب تجزم بالوعد دون تعليقه على أي عمل أو شرط أو تقديم يتقدم به الرُّسل لينالوا الوعد ويتحقق لهم؛ بينما الآيات التي يذكر فيها الوعد بالتمكين ونحوه للمؤمنين يعلق الوعد بالتمكين أو النصر أو نحوهما بأعمال وأحوال إذا هي تحققت نال لهم متعلقها من الموعود به من

¹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص83

² ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4566

³ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب ج24، ص 25

النصر والتّمكن، ومن الفوائد التي نستشققها مما سبق أن الآيات التي أورد الله فيها نسق التّمكن في الأرض تكون بالفضائل التالية:

- ✓ التّمكن يتحقّق بشرط الإيمان بالله والثّبات على الحقّ لمن أراد أن ينال عدوّاً، أو أن ينتصر على أعداء الله من أهل الشّرك والكفر.
- ✓ لا يكون التّمكن إلّا بأدواته المتمثلة في العلم والعمل والإخلاص فيهما.
- ✓ التّمكن سنة الله في الأرض فقد يكون لأهل الشّرك لا إكراماً لهم بل بإقامة الحجّة عليهم، كما كان ذلك مع فرعون وعاد وثمود.
- ✓ الله سبحانه وتعالى أنعم على رسله بالتّمكن لهم وتقديرهم بذلك كان وعداً من الله وتأييداً ونصراً لهم ولدين الله على الأرض.
- ✓ لا يكون التّمكن إلّا بالصّبر والجهد واليقين بنصر الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلّم.
- ✓ أمّا أوجه التّمكن، فقد يكون بالسلطان والمُلْك، وقد يكون بالعلم، زمن التّمكن الدّين وانتشاره وانتصاره على براثن الشّرك.

ب الاستخلاف: أمّا الاستخلاف فهو مصدر للفعل استخلف، ومن المعاني النّاشئة عن الأفعال المزيدة بثلاثة أحرف هي ألف الوصل والسين والتّاء، هي وقوع الفعل من طرف فاعل ومحلّ الوقوع كقولنا: (استخرج) فهناك عامل الإخراج وموضع، وقد يكون الاستخلاف بمعنى استبدال أمر مكان آخر، أو تمكين شخصٍ لشيءٍ بعد أن كان لشخصٍ آخر وذلك للرفع من مقامه، وجاء في القاموس المحيط: "اسْتَخْلَفَهُ جَعَلَهُ خَلِيفَتَهُ، وصار من ذلك خِلفاً واحداً¹، فبذلك الاستخلاف هو تنازل الطّرف القويّ المالك السيّد للآخر بشيء من لوائمه مقابل الحفاظ عليه وهذا كذلك نوع من الأمانة، وورد لفظ الاستخلاف في القرآن الكريم ستّ

¹ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص 728

مرّات في كلام الله، وكذا ألفاظ الخليفة الخلفاء، تسع مرات وهي تتدرج ضمن هذا المفهوم الدلالي، ويحمل معنى الاستخلاف دلالات ذات أهمية منها:

بداية الوجود على الأرض نلمحه في الآية الكريمة قال عز من قائل: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾) [البقرة:30]، فبداية الخلق جميعاً كان قضاءً من لدن الرحمن أن يجعل في الأرض من يخلفه ويكون بذلك أميناً على ما أوصاه به وأوله الإيمان به كرب خالق وواحد لهذه الأرض التي هو عليها، فلم يخلق آدم للجنة مباشرة وإنما للأرض ليميز الخبيث من الطيب، وهذا من باب الاستخلاف ويندرج ضمن هذا الإطار كل مفاهيم الاختبار والامتحان والابتلاء الذي سيصيب آدم من أجل معرفة الخير منه والشر، وقد ورد في السردية الإسرائيلية عن موسى عليه السلام أنه سئل الله: لم يا رب خلقت النار لتُعذّب بها عبادك، قال له الرب: يا موسى ازرع زرعاً، فلما زرع قال له موسى لبيك يا رب، قال له الرب: يا موسى انتظر لينبت هذا الزرع و ينمو ثم يصفر، واحصده، فقام موسى بذلك وحين الحصاد، جعل موسى ما ينفعه جانباً ورمى الباقي وأحرقه، فقال له الله: لما أخذت الحب، وأحرقت الباقي ورميته، قال موسى ذاك لا ينفع، فقال له الله كذلك هم عبادي.

الاستخلاف وموجباته يقتضي وجود أدواته التي تجعله مستمراً وأول هذه الأدوات العلم قال تعالى: (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾) [البقرة:36]، ويُراد بالعلم العقل، وإدراك الكائنات وعملها و حرية التصرف، والامتلاك، ومعرفة حقائق الأشياء، واستخدام العقل فيما ينفع الإنسان في الأرض، وجعلها موطناً له، أن يستخدم ما هو موجود فيها للأكل والشرب، والتثقل والنوم والراحة، وجعل هذا العلم ميراث ليس لآدم فقط بل للبشر جميعاً الذين سيكونون من بعده، ولا استخلاف إلا بالعمل ولا بدّ له أن يكون صالحاً فالغاية من ذلك إعمارها لا

خرابها، فبمقتضى هذا الأمر جعل الله العاقبة لخلفائه الصالحين (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾) [الأنبياء: 105].

وعادةً ما يُربط مفهوم الاستخلاف بالميراث، و يُنظر لمفهوم الميراث بالقدسيّة قال الواحد: (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾) [الأعراف: 137]، ولهذا جعل الله ميراثه لعباده الصالحين، والاستخلاف لا يكون إلا لهم دون غيرهم، حتى وإن كان هؤلاء ضعافاً، جاء ذكر الاستخلاف في القرآن الكريم مقروناً بالأرض أكثر من مرة: قال جل شأنه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أُمِّرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [التور: 53-53]، ومعنى الاستخلاف في الأرض: إمكان التصرف والتّوطين فيها؟، وتكرار ورود الاستخلاف مفترقاً بالأرض يُشير إلى سِمَتَيْنِ لهذا المفهوم:

الأولى: أن الاستخلاف منوطٌ بهذه الأرض التي جعلت مكاناً للاستقرار الدُّنيوي للإنسان، بما فيها من مكونات طبيعية جعلتها ملائمة لقيام حياة إنسانية فوقها، ومعنى هذا أن نجاح الإنسان في القيام بمهمّة الاستخلاف متوقف على حسن تدبيره لما في الأرض وما على الأرض من مكوّنات.

والسّمة الثّانية: هي وقتيّة الاستخلاف؛ لأن ارتباطه بالأرض يعني أنه ينتهي بانتهائها، وهذا ينسجم مع دلالة لفظ الاستخلاف، فهو يعني النّياية عن الغير أو التّصرف في ملك الغير، مع تحديد الأجل لذلك ويكون معلوماً ولأن الاستخلاف مجرد نيابة عن المالك للتّصرف في ملكه، فإن من حق المالك المستخلف أن يبدل المستخلفين إذا ما أخلوا بالشُّروط المنوطة بذلك، وهذا ما أكّدته الآيات: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾) [هود: 57]، وقال أيضاً

في موضع آخر يؤكد فيه أن المال والرزق جعله الله في يد الغني مستخلفاً، وبإمكانه أن ينزعه منه متى شاء: (ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ؕ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمُ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾) [الحديد:7]، " وقال الحسن : مستخلفين فيه بوراثكم إيّاه عمّن كان قبلكم، وهذا يدلُّ على أنّها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلّا بمنزلة النّواب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحقّ قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات منكم وأنفقوا في سبيل الله لهم أجر كبير وهو الجنة" ¹.

ونلمس هذه الفائدة القيّمة من القصص القرآني: (وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمُ خُلَفَاءَ مِنۢ بَعْدِ ءَادَ وَنُوحًا فِي الْأَرْضِ تُتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنَحِثُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَآذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾) [الأعراف:74]، فجعل الله عباده المؤمنين خُلفاء من بعد الكافرين (عاد)، وزاد عن ذلك الشّكر لله مقابل هذه النعمة، وإلا فسيكون مصيركم مثل مصير أجدادكم الكافرين، لن يكون الإنسان خليفة في الجنة إنّما الخلافة كانت للأرض، لحكم مفادها:

✓ أنّ الخلافة اختبارٌ وامتحان لمدى معرفة الإنسان بربه، وتمييز ربّاني بين الصّالح منه والطّالح، والخلافة حكم الله الأوّل على الأرض، فلا يكون الإنسان متمتعاً بالإرادة، مالم تكن لديه أدوات الاستخلاف وأولها العقل والإرادة.

✓ الخلافة لا تكون للأقوى كما هو شائع عند الشرائع المنحرفة كاليهودية، أو لدى الأفكار الهدامة كالماسونية والصهيونية، إنّما للأصلح والأأنفع لغيره، والاستخلاف سنّة كونيّة، حتّى وإن تمتّع بها قوم لطغيانهم فترة من الزمن، ولكن من مزايا الاستخلاف أنّه يكون متأخراً، حتّى ينالهُ من بقي صابراً مُحْتَسِباً، ودليل ذلك ما حصل مع الأنبياء عليهم السّلام

¹ القرطبي، أحكام القرآن، ج 17، ص 216

✓ عملية الإستخلاف تكون لإصلاح الأرض، وإعمارها بالحُسنَى، والله قادر أن يختار من يخلفه متى شاء، ولكنَّ الإستخلافَ فتنةٌ جعلها الله للعباد، وقد يستنَّبُ الأمرُ لقومٍ إمَّا لابتلاءٍ وهذا أمرٌ جلُّ أو لاستدراجٍ فيقعُ عليهم سخطُ الله وعذابه، لأنَّ عاقبة من طغى وتجبَّر وخيمة، وإما للأصلح وذلك غاية الأمر ونُبِّله.

✓ هناك ارتباط وثيق بين معنى التَّمكين ومعنى الاستخلاف، فالتَّمكين يكون بعد الاستخلاف، وإذا توفرت شروط التَّمكين كانت الخلافة التي أرادها الله في علمه الأزلي قبل خلق الكون.

ثانيا الحياة والموت والبعث:

جعل الله الأرض مستقرًّا للإنسان إلى حين، ومعناه إلى أن يرثها الله يوم القيامة، وجعلها موطنًا للخلافة وطاعة الله فيها وإقامة عدله وحكمه وعلمه، كانت ولتزال مأوى للإنسان ففيها رزقه وحياته ومماته منها نشأ وفيها يردُّ إليها، وقبل الخوض في دلالات الأرض في جانبها الوجودي من خلال الآيات الكريمات التي نصّت عليها نقف عند مفهوم الحياة في الأرض وأن الله جعلها للحياة، فقد ذكر منشأ الإنسان فيها ومردّه إليها.

أ/ الحياة والموت: ومن عجائب الأرض أنَّها تحمل الأحياء والأموات قال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾) [المرسلات: 25 26]، فجعل ما فوق الأرض للأحياء، وما تحتها للأموات، فقد سخّرها الله للإنسان حيًّا وميتًا، ومن قوله تعالى: (فجعلنا كفاتا لكم وأنتم أحياء، في الدُّور والقصور والكهوف وغيرها من مواطن الأرض وأمواتا تحت التُّراب وفي القبُور)، فكما كانت الدُّور والقصور من نعم الله على عباده، فكذلك القبور رحمةٌ في حقِّهم، وسترا لهم عن كون أجسادهم باديةً للسَّباع وغيرها¹.

¹ عبد الرحمن ابن ناصر السعدي، تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط1، دار ابن حزم، بيروت لبنان، 2003، ص 865

ارتكز تفسير ابن عاشور وفي هذا الموطن من الآية على التحليل الصّرفي والتركيبى لها، "كفّات: اسم للشّيء الذي يُكفّت فيه؛ أي يُجمع ويضمّ فيه، فهو اسم جاء على صيغة الفاعل من كفّت، إذا جمع، ومنه سُمى الوعاء كفّاتاً، كما سمّى ما يعي الشّيء وعاء، وما يضمّ الشّيء ضمّام، وأحياء مفعول كفّاتاً لأنّ كفّاتاً فيه معنى الفعل كأنه قيل كافنتهم أحياء، و قد يقال منصوب بفعل مقدّر دلّ عليه كفّاتاً وكل ذلك متقارب، و(أمواتاً)، عطفّ عليه، وهو إدماج لأن فيه مشاهدة الملازمة بين الأحياء و الأموات ¹، ومما سبق تبين أن الأرض جعلها الله وعاء يحمل الحياة من على فوقها، وعاء من تحتها للأموات فهي سبب النّشأة والخلقة وعليها تكون الحياة وفيها يكون الممات، وهذه الدّلالة تترجمها الآية الكريمة: ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:55]؛ "أي من الأرض مبدؤكم، فإنّ أباكم آدم مخلوق من تراب أديم الأرض، (وفيها نعيدكم) أي إليها تصيرون إذا متّم وبليثم، ومنها نخرجكم تارة أخرى، في الحديث الذي في السنن أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ بضّة من التّراب فألقاها في القبر ثم قال: (منها خلقناكم)، ثم أخذ أخرى وقال (وفيها نعيدكم)، ثم أخذ أخرى و قال: (ومنها نخرجكم تارة أخرى)"²، فالأرض دار جعلها الله كاملة لسننه التي خلقها من أجلها، وهذا دليل على أن الموت يكون حصراً في الأرض، ولا يكون في السّماء أو المكان الغيبيّ الجنّة والنّار.

ب/ البعث: وحتى البعث لا يكون خلا منها(قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٥٥﴾ [الأعراف:25] ، وفي الآية بالتّقديم والتّأخير وبلاغته تكمن في القصر والحصر بمعنى أنّ الأرض تحمل العوامل الثلاثة لوجود الإنسان الحياة الموت البعث والخروج، وجاءت هذه الآية في سياق قصّة آدم وحواء في الجنّة حينما أكل من الشّجرة التي نهاهما الله عنها، وهذا دليل جازم أن المعصية لا تكون في الجنّة، فالجنّة دار جزاء وفضل وكرم

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص434

² اسماعيل ابن عمر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط1، دار ابن حزم، بيروت لبنان، 2000، ص 1218

وطاعة وتسبيح لله، بينما الأرض جعلها الله دار اختبار وامتحان، ففيها تسفك الدماء ويُصنع الشر بين العباد، والظلم والعدوان، والفساد قال تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾) [الروم:41].

وقد علم الله وعلمه سابق ولاحق ولا ريب فيه ولا تخمين، أن آدم مزروع فيه جانب من الضعف قال تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾) [النساء:28]، فيميل إلى شهواته ونزواته فيضعف فجعله محل اختبار، وكان الله يعلم يقينا أنه سيكون محل طمع وسيُغويه الشيطان، لضعفه أمام رغباته وشهواته، فالشيطان يمثل جانب الشر، وحمّة الله هي باب الخير، وآدم كان موضع هذين القسمين، فانصاع لرغبته، فأنزله الله للأرض ليستقر فيها ولا يكون هذا الشر إلا فيها، ومنه كل ما يتعلق بهذا الامتحان العظيم سيكون في الأرض، ومنه خلق الله الموت والحياة ليختبرنا أي المقامين نختر لحياتنا ونجازي عليه بعد موتنا: قال جلّ شأنه (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ﴿٢١﴾) [الملك:2]، وكذلك الحال فلولا وجود الموت لما كان للحياة معنى.

فالعَمَل الصَّالِح أو الطَّالِح مقرون بالرجوع إلى الله، والجزاء من جنس العمل، فالأرض دار اختبار، والجنة دار القرار، وفي القصص القرآني نجد أن الأنبياء والرُّسل عليهم السلام يحتاجون أقوامهم بهذه المعادلة وهي: أن الأرض هي منشأكم وخلقتكم ومادتكم الأولية وفيها تعيشون وفيها تعودون وهي دليل وبرهان على أن الإنسان وُجد على هذه الأرض لغاية قال تعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾) [هود:61] بدأ بعبادة الله وحده الذي خلقكم من تراب الأرض ثم جعلكم عمرها و وسكانها¹، فقد قرن عبادة

¹ الصابوني، صفوة التفاسير، ج3، ص22

الله بالحجة والدليل من الواقع وهي الأرض التي نحن فوقها، ومن الأرض يكون البعث والنشور (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۖ ﴿٤٣﴾).

والأجداث لا يُقصد بها القبور في المفهوم اللساني وإنما حركة البحث وكيفية وطريقة الخروج من الأرض، ونلمس فائدة عظيمة حينما نستعرض هذه الآيات وسياقها وبناءها العجيب، وكيف يحدّد القرآن اللفظ اللساني بدقة في موضعه دون أن يختل المعنى بل يُناسبه ويُطابقه، فورد معنى الأجداث من " الحدث مَحركة القبر، ومن الجدثة والأجداث: صوت الحافر والخفّ ومضغ اللحم ¹، والآيات التي وردت فيها كلمة الأجداث نراها في سياق الخروج والسرعة في المشي، كما ذكرنا الآية الأولى، والآيات الأخرى مثل قوله تعالى: (خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ۖ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾) [القمر: 7-8].

فذكر لفظ مُهْطِعِينَ أي يمشون خفافاً وبسرعة، وقوله أيضاً: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾) [يس: 51]، وينسلون بمعنى يسرعون، فاقترنت كل هذه الآيات في سياق البعث يوم القيامة، فلم يستخدم القرآن لفظ الأجداث إلا وهو مقرون بكلمة السرعة بمعنى هيئة الخروج يشبه من خلال لفظ الجدثة المشي بالخفّ وعادة ما يكون هذا المشي سريعاً، ونظراً لهول المنظر فأكد أن هذا التصوير القرآني يذكر المشهد كأنه واقع أمامنا.

أما المعنى الأصيل والفريد المقرون بالأرض هو: إذا كان الجدثة تعنى مضغ اللحم، واستعمل القرآن هذا اللفظ دون غيره كالقبر مثلاً في طريقة البعث؛ فيعني أن الأرض قد مضغتهم ولم يبق منهم شيء، ولكن بأمر الله تعالى أخرجتهم من هذه الحالة والهيئة إلى

¹ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص 158

حالة أخرى كاملة، لأن هول الأمر عظيم وتكون كل هذه العملية سريعة. ومما يمكن استخلاصه ما يأتي:

- ✓ أن الله جعل الأرض مسرحاً للدنيا منها خلق الإنسان، وعلى أرضها يحي وبستقر ويعيش، وتحتها يدفن ويبنى ويموت ومنها يُخرج مرةً أخرى.
- ✓ تحمل الأرض كمكان ثلاثية ظرفية: (من، على، تحت أو في) فهي فضاء صالح لتأدية فكرة وجودية وهي البقاء (الاستمرارية الكونية) والفناء.
- ✓ تراب الأرض مادة أساسية لتركيبية الإنسان وأوليّة له، فمنها خلق آدم، ومنها كذلك يرد ويصبح تراباً كما كان، ولهذا نجد الإنسان يحنُّ الأرض ويودُّ الجلوس عليها، فهي تحمل دلالة الأم، فإذا كانت الأم مصدر الحياة، فإن الأم الحقيقية الأرض هي مصدر الحياة والموت معاً.
- ✓ كتب الله على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، وقصة خلق آدم كما وردت في القرآن، هي أنّ الله جعل الجنة للصالحين فقط من عباده، وإنّما الأرض تحمل الصالحين والطالحين، والكافرين والمنافقين، والفجار، وبالتالي كانت الأرض محلّ اختبار لتصفية البشر، ونزول آدم إلى الأرض كان من وراء معصية ارتكبت في الجنة، فالأرض موطن المعصية والطاعة، بينما الجنة موطن الثواب، والنار موطن العذاب.

ثالثاً: نسق الرزق والنماء:

يدعو القرآن الكريم إلى التدبر والسير في الأرض لكي ننظر في آياته قال تعالى: (وَكَايِّنَ مِن آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾) [يوسف:105]؛ كل ما هو موجود فوق الأرض يدعوك للتأمل فيها كيفية نشأة الحياة والنبات والرزق.

أ/ الرّزق: كل مخلوق في الأرض له رزقه ونوع الرّزق الذي يتغذى منه، فهناك حيوانات تأكل العشب، ومنها من تتغذى على اللحوم، ومنها ما تطير لتجلب رزقها ومنها من تسعى بذكائها الذي وهبها الله به، فمن علم الضفدع أن يعيش في البرّ والبحر معا أليس الله، ونرى هذا التّصور في ردّ موسى عليه السلام لفرعون لما سأله عن ربه قال تعالى (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾) [طه: 49-50]، أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاه، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهياً كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرّزق والنكاح، وقال بعض المفسرين عن هذه الآية، أي قدر قدرا، وهدي الخلائق إليه، أي كتب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشيون على ذلك، لا يحدون عنه، ولا يقدر أحد الخروج منه¹.

وهذا دليل قاطع على فرعون والذين اتبعوه من السّفهاء والذي ادّعى أن له أرض مصر والنّيل، فأفحمه موسى عليه السلام بهذه الآية، كيف لك أيّها العبد الضّعيف أن ترزق هذه الخلائق الموجودة على الأرض، وكل واحد منها لها طريقة طعامه وشرابه، فقد صنع الله جميع الخلائق بإتقان وجعل الأرض مسرحاً لتأدية كلّ مخلوق مهمّته.

والأرض هي مصدر الرّزق بعد السّماء فإن كانت السّماء هي السبب فإن الأرض هي المسبب، فمثلاً جعل في السماء الماء الذي هو مصدر للرّزق فجعل الأرض لإنبات هذا الرّزق كيفما شاء ومتى شاء قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾) [النحل: 10-11]، فالأرض مهمّتها إنبات هذا

¹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص 1218

الزَّرع، وبل وهذا الزَّرع والنبات مختلف ألوانه وطعمه، بل جعل كلَّ الثَّمرات مصدرها من الأرض، ولا منشأ غيرها فلا نرى السَّماء تنزل عنبًا أو قمحًا، بل هي من الأرض.

ولهذا نرى لفظ (كلّ)، لتأكيد المعنى السابق، هو أن النبات الذي ينبت الله من السماء قسمان أحدهما مُعدُّ لرعي الأنعام وهو المراد من قوله (فيه تسيمون) والثاني ماكان مخلوقا لأكل الإنسان وهو المراد من قوله (ينبت لكم به الزرع و الزيتون)،¹ ثم يدعونا الله إلى النظر إلى طعامنا كيف أوجده سبحانه فيذكر مراحل ذلك في سورة قال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبَبْنَا وَقَضَبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾) [عبس: 24-29]. يوجه الله خطابه للإنسان إلى أبسط شيء قد يغفل عنه وهو طعامه، أم لم تعلم من جعله لك مسخرًا، ومن الذي صوّغه لك مختلفا لونه وطعمه.

يلجأ الملحد إلى تفسير الظاهرة بشيء من التعمق الفيزيائي والبيولوجي فيذكر عناصر المادة وتشكلاتها وكيفية تكوينها الطبيعي، فيذكر عناصر الطبيعة التي ساعدت على نشوئها، فيجيب القرآن و يلفت النظر إلى مصدرها وهو الماء وتكوُّنها وهي من شقوق الأرض، ثم المرحلة الأصعب وهي انباتها لتصبح رزقا تطعمه البهائم والناس، على أشكال مختلفة، وسبحان الذي جعل من الماء الحياة و من الأرض النبات، فأطعم الله به كل مخلوق، قال جل شأنه: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ التَّحْلِ مِنِ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۚ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾) [الأنعام: 99]، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى كل ما ينبت من الأرض من نبات أخضر.

¹ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج19، ص239

وقال ابن عباس " يريد القمح والشعير والسلت والذرة والأرز، والمراد من هذا الخضر العود الأخضر الذي يخرج أولا ويكون السنبل في أعلاه وقوله (نخرج منه حبا متراكبا) أي حبا بعضه فوق بعض في سنبلة واحدة وقوله قنوان دانية يريد العراجين التي قد تدلت من الطلع الدانية من يجتنيها قال الولي القدير: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا ﴿١٤﴾ لِيُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾) [النبا: 14-15].

ب/ النماء: دائما يربط الله سبحانه وتعالى الأرض بالسماء من خلال ما يُنزل من المطر، وينسب إليه سبحانه آية الإنبات من الأرض، فكل ما على الأرض من زروع وحبوب وفاكهة وخضروات إنما هي من عند المولى عز وجل فلا يستطيع أي مخلوق أن يُنبِت كل هذا لضعفه وقلة حيلته ولقصر نظره، ومحدودية علمه وقوته، فجعل الله من مهمة الإنسان البحث والتقصي عن واجد هذا الوجود، (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾) [الرعد: 4].

وفي الأرض قطع متجاورات أي؛ أراض تجاور بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئا وهكذا، وكذلك يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميقة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات فهذه بصفقتها، وهذه بصفقتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

"روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم قوله: (وجنات من أعناب وزرع ونخيل) يحتمل أن تكون عاطفة على (جنات) فيكون وزرع ونخيل مرفوعين، ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب، فيكون مجرورا؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة وقول: (صنوان وغير صنوان)؛ هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان

والثَّين وبعض النَّخيل، ونحو ذلك، (وغير الصنوان)؛ ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سَمِّيَ عمَّ الرجل صنؤ أبيه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر: "أما شعرت أن عمَّ الرجل صنو أبيه" وقال سفيان الثوري، وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، رضي الله عنه: الصنوان: هي النَّخلات في أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات، وقاله ابن عباس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقوله: (يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل) قال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ، صَلَّى الله عليه وسلم: ونفضلُ بعضها على بعض في الأكل (قال: الدَّقْل والفارسيّ، والحلو والحامض "رواه الترمذي" وقال: حسن غريب.

هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة وذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة وذا عفص، وهذا عذب وهذا جمع، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق، وكذلك الزهورات مع أن كلّها يستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكبير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) أي المعجزة والفريدة، وبيّت الله في موضع آخر هذه المعجزة واضحة في أن الماء واحد ولكن تختلف أصنافها وألوانها وأشاكلها¹.

جعل الله الرزق للعباد ولكل كائن حيٍّ موفوراً في الأرض بأشكال مختلفة، ومن مصادر متنوعة، ولكن لا يتأهلها الإنسان كما هو في الجنة التي يكون فيها الطّعام صائغاً وذليلاً قال تعالى (فُطُوْفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾) [الحاقة: 23]، فهي تدنو من العباد في أي موضع كان، وهي

¹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص 1002

كناية عن صفة التّذليل في مقابل الاستراحة وانعدام التّعب في نيلها، بينما جعل الله الأرض ذليلة مسخرة للعباد ولكن رزقها لا يُنال إلا بالتّعب والشّقاء قال تعالى: (وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾) [فصلت:10]، المتأمل في الآية يرى هنالك ثلاثة أفعال كلّها دالة على حاملها، أي أفعال لا تكون إلا بعامل وهي: (جعل، بارك، وقدر)، ومعنى جعل يكون لكل شيء حقيقي في الوجود، لا يكون مخالفا لصانعه، فهو الذي أوجد كل ما يمكن للإنسان استخدامه من معادن مختلفة ووسائل تعينه على البحث والاكتشاف، وربط ذلك بالجبال، لأنّ جلّ المواد الأولية يكون مستقرّها الجبال، ولها دورها في حماية الأرض وتثبيتها كما سيأتي ذكره فيما بعد من الفصول، والفعل بارك، هو أيضا لا يكون إلا ممن جعل الحبة تثبت أكثر من حبة قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾) [البقرة:261].

فما على الإنسان إلى السّعي وبذل الجهد، وعلى الله انباتها وجعلها أكثر مما زُرعت، ونرى أيّ شجرة أصلها بذرة ثم تكون فسيلة ثم شجيرة وتكون بإذن الله شجرة، ثم تثمر آلاف الحبات، ثم إذا نظرت إلى تلك الحبة لوجدت بذرتها بداخلها وهذا من براءة الصّنع، فتلك دلائل وجود الله وعظمته، وحكمة صنعه سبحانه، "وقد جعل قدرا، أي مقدارا، قال تعالى قد جعل الله لكل شيء قدرا ، والمقدار: النّصاب المحدود بالنوع أو الكميّة، فمعنى قدر فيها أقواتها أنه خلق في الأرض القوى التي تنشأ منها الأقوات وخلق أصول أجناس الأقوات وأنواعها من الحب للحبوب، والكأ والكماة، والنوى للثمار، والحرارة التي يتأثر بها تولد الحيوان من الدواب والطيور.

وما يتولّد منه الحيتان ودواب البحار والأنهار، ومن التّقدير: تقدير كل نوع بما يصلح له من الأوقات من حر أو برد أو اعتدال، وأشار إلى ذلك قوله والله أنبتكم من الأرض نباتا ويأتي القول فيه، وقوله وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وقوله وجعل لكم من جلود الأنعام

بيوتا الآية، وجمع الأقوات مضافا إلى ضمير الأرض يفيد العموم، أي جميع أقواتها وعمومه باعتبار تعدد المقتاتين، فللدواب أقوات، وللطيّر أقوات، وللوحوش أقوات، وللزواحف أقوات، وللحشرات أقوات، وجعل للإنسان جميع تلك الأقوات مما استطاب منها كما أفاده قوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ومضى الكلام عليه في سورة البقرة¹، ومما مضى يمكن القول:

✓ أن الله جعل الأرض مستقرّا لكلّ كائن حيّ، ومن يكون الرّزق بإذنه تعالى، وقدّر الله أقوات كل من تدبّ فيه الحياة إلى يوم القيامة قال تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾) [هود:6]، "والرّزق حقيقته ما يتغذى به الحيّ، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده، ولا يجوز أن يكون الرّزق بمعنى الملك، لأنّ البهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنّها مالكة لعلفها، وهكذا الأطفال ترزق اللّبن ولا يقال: إن اللّبن الذي في الثدي ملك للطفل"².

وربط الله الرزق كل من في الأرض، بل ويعلم الله مكانها وأي بقعة في الأرض يوجد ذلك الكائن طائرا يخلق أو حوتا في بحر، أو أفعى في صحراء قاحلة، أو بعوضة وسط غابة كثيفة، ويعلم أيّان وفاتها ومكان دفنه، قاله مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الربيع بن أنس: مستقرها أيام حياتها، ومستودعها حيث تموت وحيث تبعث، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: "مستقرها" في الرّحم ومستودعها في الصّلب، وقيل: يعلم مستقرها في الجنة أو النار، ومستودعها في القبر، يدلّ عليه قوله تعالى في وصف أهل الجنّة وأهل النّار: "حسنّت مستقرّا ومقاما وساءت مستقرّا ومقاما"³.

¹ ابن عاشور، التحرير والتوير، ج24، ص244

² القرطبي، أحكام القرآن، ج9، ص8

³ المصدر نفسه، ص9

- ✓ الأرض مسرح للكائنات الحيّة ومنها النباتيّة، فهو الذي يُنبت الزّرع ليأكل منه كل من يتعدّى من حشائشها، وخلق الحيوانات أصنافا وجعلها في نظام عجيب تأكل بعضها بعضا، قط يأكل الفأر، والفأر يتعدّى من الذباب، والجراد، والحشرات، وكذلك الحال بالنّسبة لسائر المخلوقات، وهذا الإتقان العجيب، مقدر من المنعم سبحانه، أي جعله قدرا (بعدل)، وتقدير (أي حسابا)، ومقدرا أي معلوم زمنه ومكانه وميقاته.
- ✓ من دلالات المكان في الخطاب القرآني بالنّسبة للأرض أنّها الوجه الآخر من عظمة الله؛ فمن أثر قدرته سبحانه هذه الأرزاق المتنوّعة شكلا ومذاقا، وميقاتا، ومكانا، فبعض الفواكه لا تكون إلّا في بيئة معينة صالحة لها كالتمر مثلا، أو زمن معين دون غيره من فترات السنة كالبرتقال مثلا.
- ✓ الأرض كقضاء يُشكّل مدلول الاختلاف من ناحية طبيعته كحيز يجمع أصناف عديدة من الكائنات، وشكل مترامي الأطراف مختلف من سهول وجبال وصحاري، كذلك الحال في اختلافها من ناحية الرّزق، وهذا مدلوله يكمن في تأثير ذلك على نفسيّة الإنسان أو الحيوان، فهذا الاختلاف يحارب الملل الذي يتسلل إلى الإنسان، فالفصول الأربعة الموجودة في الأرض فيها حكم وتأمّلات لا حصر لها، وهذا التنوع فالتّضاريس هو إنّما جاء ليحمل هذا الاختلاف ويَجعل البقاء وسيرورة الأرض ممكنة، والعيش فيها مستقر ودائم إلى أن يحكم الله بإذنه.

➤ المبحث الثالث: دلالات السماء والأرض كفضاءٍ مُقترن:

كلام الله دقيق في لفظه، واسع في معناه متجلى في مقصده، لا يضع لفظاً إلا لغاية هدف، ولا يجمع اللفظ وضده في سياق إلا لعبرة وغاية، كذلك إذا كان مفرداً أو مقترناً بغيره فإن الاقتران بين السماء والأرض والسموات والأرض التي شكّلتها السياقات والأنساق القرآنية يقف وراء كلّ اقتران من هذه الاقتران مطلب إعجازي وهدف مقصود يتبيّن ظاهره وتبهرك بواطنه.

فالسّماء أو السّموات في حالة الانفراد تلقى ظلاً غير الظلّ الذي تلقّيه في حالة اقتران مع الأرض في نسقٍ واحدٍ، ولهذا ترتبط دلالة كل لفظة من هذه الألفاظ بالسياقات ارتباطاً واضحاً إذ إنّها تتسكّب منه بدلالات أخرى جديدة، فضلاً عن دلالة اللفظ صراحة فالسّماء جاءت مفردة تارة ومجموعة تارة أخرى، والأرض لم تأتِ إلا مفردة، وقد تأتي السّماء مع الأرض في سياق أو لا تأتي تماماً، والسموات كذلك؛ وذلك لاختصاص كل موضع بما يقتضيه لأن السياق في سور القرآن ونظام الآيات والفواصل ووحدّة المعاني يتطلب التّغاير والاختلاف، فلا يصلح تعبير مكان تعبير، فيلزم الأفراد في مكانه ولا يصلح غيره، وقد يكون هذا الاقتران غير متباعد أي ملتصق أو يفصل بين لفظ السماء أو السّموات فاصل.

وقد يأتي منفصلاً أي بينها وبينه سياق وتركيب معين نحو قوله تعالى: (إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ دُونَ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٥٠﴾) [فاطر: 40]، فنلاحظ لفظ الأرض ثم لفظ السماء مقترن فيما بينهما، ونرى أحياناً يسبق بالأرض وتأتي السماء ثانياً، كما هو الحال في الآية السابقة، وفي أحيان أخرى يكون العكس، كما في قوله تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾) [الأنعام: 73]، وقد

ورد موضع الإقتران بين السماء والأرض في ثلاثة عشر موضعا منها قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾) [الأعراف:96].

أما الإقتران البعيد فقد وقع في واحد وأربعين موضعا منها قوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ ﴿٤٨﴾) [الذاريات:47-48]، أما الفرق بين السماء والأرض في التقديم والتأخير كدلالة نصية في القرآن الكريم مرتبط أساسا بسياق النص، والقصد هنا ما وقفت عنده الآيات القليلة، أو النسق العام للخطاب، أو سياق النزول، وقال بعضهم السماوات والأرضون على صفتين، فالسماوات مؤثرة غير متأثرة، والأرضون متأثرة غير مؤثرة، والمؤثر أشرف من القابل¹ وجعل الله السماء قبلة للدعاء والأرض موطن للشقاء، وأن ما يوجد بالسماء خير مما في الأرض، والسماء جعلها الله منزلة بالنجوم وفوقها العرش وجعلها الأعلى والأرض تزينت بمن عليها من الكائنات الحية، وموطن العذاب والهلاك.

وقد ورد لفظ السماء والأرض في سياقات مختلفة دلالية وبلاغية كالتشبيه مثلا في قوله تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾) [يونس:24] "فقد شبَّهت الدنيا في سرعة انقضائها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته حتى خالط بعضه بعضا"².

¹الرازي، مفاتيح الغيب، ج2، ص118

²الزمخشري، الكشاف، ج2، ص233

فلا بدّ من تقديم السيّاق لأن مصدر انبات الزّرع هو الماء الذي ينزل من السماء، فحمل معنى النّص دلالة نسقيّة، والشّاهد منها كيفيّة بعث صورة المشبّه هو عمر الإنسان الفان وهو كائن حي، بصورة حياة كائن آخر هو النّبتة التي تجعل من المشهد متقارباً بتلك الإضافة الجماليّة للألوان على صيغة كناية في قوله (زخرفها وزيّنت) دلالة على جمال اللّون واخضرار الطبيعة، والكناية الثّانية عن صفة الاندثار واللّون المصفر في قوله: (فجعلناها حصيداً).

ويحمل تركيب السّماء والأرض مقترنين أنساقاً مضمرة تتحد في دلالة واحدة لتعطي جمالية للنّص القرآني، وكذلك لتعبر عن وحدانية الله وربوبيّته وألوهيّته، وأنه كلام الله الدّال على صنعه وقوته وعظمة شأنه، وسنرى كيف يعبر الخطاب القرآني عن السّماء والأرض باجتماعهما، ويكشف عن أسرار نسقيّة غاية في الرّوعة والجمال على غرار ما وضعناه من دلالة مفترقة.

أولاً: العقيدة التوحيد:

ورد لفظي السّموات والأرض مجتمعة مرتين في أعظم آية في كتاب الله وهي آية الكرسي قال تعالى: " (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)"، وهي آية اجتمعت فيها العقيدة الصّحيحة وهي عقيدة التّوحيد.

أ/العقيدة: المتأمّل في الآية يجد بأنّه بدأ باسمه سبحانه (الله) ثم ذكر التّوحيد أن لا إله غيره، لا يموت ويبلى بل هو قادر على كل شيء وهو منحصر في اسم قيوم بالتّشديد على الياء، ثم يأتي التّأكيد على نوع هذه الحياة التي تختلف تماماً عن حياة كل كائن حيّ خلقه الله، فهي حياة لا سبات فيها ولا نوم ولا غفوة ولا مرض ولا كسل ولا خمول، ثم ذكر السّموات

والأرض وهنا بيت القصيد وهو أنّ كل شيء في الأرض وفي السّماوات هو له سبحانه يرجع إليه الأمر كله فهو الذي أنشأها وخلق ما فيها فهي كلّها ملكه وهو الربّ والإلاه، ثم ذكر كرسيّه الذي وسع السّماوات والأرض، فالكرسيّ وسعته ظاهر القول فيها مجهول والكيفيّة أيضا.

أمّا المعنى فهو معلوم والمراد منه سياق الآية التي يدور حول علمه، بأنّ ما في السّماء والأرض يعلم بدايته ونهايته وما فيه وكل شيء أحصاه علما، وهنا يأتي لفظ لا يؤوده ويعني النقل، "حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس " ولا يؤوده حفظهما "قال: لا يتقل عليه حفظهما" ¹، "أي لا يتقله ولا يكرثه حفظ السّماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما؛ بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرّقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرّقيب العليّ العظيم لا إله غيره ولا ربّ سواه" ²، فالسّماوات والأرض ذكرها الله مقترنة في هذه الآية للدلالة على عظيم صنعه ودليل على ربوبيّته وألوهيّته، وعلى علمه الواسع، وهو الذي يدبر فيهما أمره.

ب/ التّوحيد: ومن دلالات التّوحيد أن الله سبحانه هو الذي خلق السّماء والأرض، وجاءت الإشارة إلى خلق السّماوات والأرض في ستة أيام في ثماني آيات قرآنية كريمة يقول فيها ربنا تبارك وتعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾ [الأعراف: 54])، وقال أيضا: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا

¹ ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، تح محمد شاكر، دار الرسالة، القاهرة، مصر، ط1، 2000، ج5، ص404.

² ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص431.

مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [يونس:3]، (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ [هود:7]، ويقترن خلق السموات والأرض بالعرش في قوله: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ [الفرقان:59].

ودائما ما يكون عدد الأيام حاضرا في الخلق في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ [السجدة:4]، ثم يفصل الله سبحانه وتعالى في هذا الخلق في قوله: ﴿قُلْ أَبْنِئْكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ [فصلت:9-12]، وذكر في موضع آخر: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ [ق:38]، وربط الخلق بالعلم في قوله: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ [الحديد:4]، ونلاحظ في كل آية من هذه الآيات ارتباط الخلق بالعلم والخبرة؛ أي أن هذا الخلق ليس بالعبث إنما عن علم ويعلم وخبرة من الله، ونرى كذلك في هذه الآيات تكرار عدد أيام الخلق وهي ستة ماعدا في سورة فصلت التي فصل فيها مراحل الخلق وهي خلق الأرض في يومين، ومن فيها في يومين، والسموات في يومين وهكذا تكون ستة أيام، والأيام في القرآن الكريم عادة لا تكون مرهونة بزمان محدد، إنما تكون

في سياق الحدث، ونرى هذا بارتباط لفظ يوم بالقيامة والساعة والدين، قال تعالى: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١﴾) [الفاتحة:4]، أولها علاقة بحدث معين بميقات أو بعبادة معينة مثل قوله تعالى (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾) [البقرة:196]، ففي هذه الآية حدد نوع العبادة وعدد أيامها وميقاتها ومكانها.

وقد يكون اليوم في كلام الله مرتبطاً بأحد أيام الأسبوع قال تعالى: (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾) [الجمعة:9]، وقد يطرح المتدبر لكلام الله هذا الطرح: كيف يكون ميقات اليوم قبل خلق الشمس والقمر المكلفين بالحساب؟، وهنا تجدر الإشارة إلى الآية التي دلت على أن أيام الله مختلفة عن أيام الناس قال تعالى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿١٧﴾) [الحج:47]، والحكمة في ذكر الأيام التي خلق فيها السموات والأرض وإظهار ذلك للعباد؛ أن الله سبحانه وتعالى بالرغم من عظيم قدرته وأنه يقول للشيء إذا أَرَادَهُ كُنْ فيكون، ولكن التَّعْجِيل ليس من الحكمة.

ومادام الله حكيماً فهو يريد أن يطلع عباده عن عظيم هذا التَّقَرُّد، وأن الله خالق كلِّ هذا فهو الربّ والإله الذي باستطاعته أن يذهب في لحظة، وهناك حكم آخر يحصيها ابن الجوزي في تفسيره لآية الأعراف "إن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة: أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة،

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبیت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون)، والرابع: أنه علّم عباده التثبیت، فإذا تثبت مَنْ لا يَزِلُّ، كان ذو الزلل أولى بالتثبیت، والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق¹، وبناء على ما سبق اتّضح ما يأتي ذكره:

- ✓ أن السموات والأرض دليل جليّ على وجود الله، وهو واجده وموجود قبل كلّ وجود، وأن هذا الإلاه هو المدبّر لها وبذلك تجلّت جميع صفاته وأسمائه التي أحصى معظمها في آية الكرسي: (الله، الواحد، الحي، القيوم، القادر، الواسع، القادر، العليم، العلي، العظيم)، وما خلقها إلّا لحكمة وأحداث عظام ستأتي تواليًا.
- ✓ ذكر الله زمن خلقها وإن كان هذا الزمن في مدّة استغراقه يحمل جدلا لليوم، ولكن المغزى من وراء هذا هو تبيان حكمة الله في خلقه، وأنّ الله لا يعجلّ أمرا إلّا لحكمة، ولا يُمهله إلّا لحكمة أيضا، وأن الله أطلع عباده عن بعض أسرار الكون ليُبَيِّن عظيم قدرته، ويتيقن المؤمن الموحد بالله ويزداد إيمانه ويشفي غليله ويطمئن.
- ✓ الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يزيلها في أي لحظة أراد، وبالتالي فكل مخلوق هو آخذ بناصيته، وما الأرض والسماء بالنسبة لله تعالى إلّا كحجرة في فلاة.
- ✓ يرتبط لفظ السماء والأرض مقترنتين دوما في باب الخلق والتوحيد، وهي مسخرة بما فيها للإنسان ليكفر أو يشكر، ولا يكون الجزاء إلّا من جنس العمل.

¹ جمال الدين ابن محمد ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ط1، دار الكتاب العربي بيروت لبنان 2000، ج3،

ثانيا: البداية والنهاية:

فإلى جانب دلائل الخلق والتّوحيد، يذكر الله سبحانه أن هذا الخلق كما بدأه سيعيده، ولكن قبل أن يكون ذلك فإن من عجائب هذا الخلق أنه مستقر لا يمسه لغوب ولا يندثر إلا بإذنه والشّاهد هو أنّ السّماء مرفوعة في مقابل الأرض، ولا تقع عليها أبداً، وأنها بلا عمد نراها قال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ [الحج:65]، " أي كراهية أن تقع وقال الكوفيون: لئلا تقع، وإمساكه لها خلق السكون فيها حالا بعد حال " ¹.

وليس فقط السّماء بل يمكن أن يحمل سياق الآية مجازاً لغويا وقرينته كلية فهو انطلق من السّماء بالتعبير الشامل لها وقصد كل ما تحمله السّماء من نجوم وأفلاك وأقمار ما الله به عليم وهي موجودة ترونها أو ترون بعضها "ولفظ (السماء) في قوله (ويمسك السماء) يجوز أن يكون بمعنى ما قابل الأرض في اصطلاح الناس، فيكون كلاً شاملاً للعوالم العلوية كلّها التي لا نحيط بها علماً كالكواكب السيّارة وما الله أعلم به وما يكشفه للناس في متعاقب الأزمان، ويكون وقوعها على الأرض بمعنى الخرور والسقوط.

فيكون المعنى أن الله بتدبير علمه وقدرته جعل للسّماء نظاماً يمنعها من الخرور على الأرض، فيكون قوله (ويمسك السماء) امتناناً على الناس بالسلامة مما يفسد حياتهم، ويكون قوله (إلا بإذنه) احتراساً جمعاً بين الامتتان والتّخويف، ويكون الناس شاكرين مستفيدين من النّعم خائفين من غضب ربّهم أن يأذن لبعض السّماء بالوقوع على الأرض" ².

¹القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص 87

²ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج18، ص321

أ/ البداية: يوم القيامة كما بدأ خلق هذه السموات وكما خلق الأرض سيعيدها إلى أصلها وتنفى بعدما كانت مسخرة من قبل قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ [العنكبوت:19])، ويكون المعنى تشبيها بين حياة الإنسان الذي يبدأ نطفة فعلاقة طفلا ثم صبيا وغلما وشابا وشيخا، كذلك الحال بالنسبة للأرض والسماء فهي كذلك سترجع إلى الحالة الأصلية لها وستنفى هي أيضا فذكر الله لفظ الخلق، والسماء والأرض من مخلوقات الله كما سلف الذكر، "حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة)، قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ (خلق السموات والأرض)، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ : (أي البعث بعد الموت)"¹.

وذكر الله أهوال يوم القيامة وكيف أن الله ينهي الخلق، فكلما ذكر مصير السماء أرففه بذكر مصير الأرض بعدها قال تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾) [الانفطار:1-5]، فمن أهوال القيامة زوال السماء وانشقاقها وكذلك الأرض تصبح مديدة لاستيعاب الخلق الذي سينشر، ويجمع بين السماء والأرض الإيذان لله وطاعته ولذا نجد تكرار قوله:(وأذنت لربها وحقت)، "قال الألوسي: تتشقق لهول يوم القيامة (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ) أي واستمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه وحق لها أن تسمع وتطيع وأن تتشقق من أهوال القيامة.

(وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ) أي وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وآكامها، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) أي رمت ما في جوفها من الموتى والكنوز والمعادن وتخلت عنهم قال القرطبي: أخرجت أماتها وتخلت عنهم، وألقت ما في

¹الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج20، ص21

بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقى الحامل ما في بطنها من الحمل، وذلك يؤذن بعظم الهول (وَأَذِنْتُ لِرَبِّيَّهَا وَحَقَّتْ) أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت، وحق لها أن تسمع وتطيع. وجواب (ذَا) محذوف ليكون أبلغ في التهويل أي إذا حدث كل ما تقدم، لقي الإنسان من الشدائد والأهوال، ما لا يحيط به الخيال¹، فالسّماء والأرض مُجْبَرَتَان بالطّاعة عكس الإنسان فهو مخير بين الطّاعة والرّفص، فالجامع المشترك بينهما هو بداية الخلق ونهايته ومادام الأمر بيد الله فهو على عظمة النشأة والبناء والأرزاق و ما فيهما من الخلائق فإنه سيذهبها أيما شاء، وهما من خلقه الطائعين المجيبين لندائه قال تعالى: (ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾) [فصلت:11].

ب/ النهاية: وفي موضع آخر يتحدث القرآن عن زوال ما في السّماء وما في الأرض في سورة التّكوير قال جل شأنه: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾) [التكوير:1-6]، فالشمس والنجوم هي من موضع السّماء، والجبال والبحار هي من موضع الأرض، ثم يتحدث عن زوال السّماء بقوله مستأنفاً: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ (التكوير:11)، وتسببق أحداث ما احتوت السّماء وما كان من الأرض ثم ذكر زوال السّماء، لبيان أن ما فوق السماء هو عرش الرحمن والجنة والنار.

وزوالها يعني انقضاء الحياة في الأرض وبداية حياة الآخرة، أي كُشِفَتْ وَأُزِيلَتْ عَمَّا فَوْقَهَا، وَهُوَ الْجَنَّةُ وَعَرْشُ اللَّهِ، كَمَا يُكْشَطُ الْإِهَابُ عَنِ الذَّبِيحَةِ، وَالْغِطَاءُ عَنِ الشَّيْءِ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: قُشِطَتْ، وَاعْتِقَابُ الْقَافِ وَالْكَافِ كَثِيرٌ، يُقَالُ لَبَكْتُ الثَّرِيدَ وَلَبَقْتُهُ، وَالْكَافُورُ وَالْقَافُورُ. قَالَ الْفَرَاءُ: نَزَعَتْ فَطُوِيَتْ"، فالأرض موطن الحساب، والسّماء آخر مخلوق يزول عن الحياة

¹ الصابوني، صفوة التفاسير، ج3، ص513

الدنيا، والشاهد هو سؤال الموعودة وهي المولودة التي تدفن حية وذنبها الوحي أنها ولدت أنثى، وكذا انتشار الصحف ليرى كل إنسان عمله، فكيف سيكون الحساب أولاً على الأرض، ثم تتقضي السماء، فتبدأ حياة الآخرة الخالدة، " وفي يوم القيامة تكشط يعني تُزال عن مكانها كما يكشط الجلد عند سلخ البعير عن اللحم يكشطها الله عز وجل "1.

فزوال الأرض أسبق من زوال السماء وهذا ما تبين في سورة التكوير، ولكن زوال ما في السماء وما في الأرض يكون أولاً، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾) [فاطر:41]، فهو القابض والممسك لها، ولا أحد بيده إزالتها إلا هو وهذا الزوال لا يكون إلا بميقات فكل شيء عنده بمقدار، يبدو جلياً ما يلي:

✓ السماء والأرض مخلوقات أوجدها الله لميقات وهي كائنة إلى أن يرثها الله، ومن عليها والتصریف يكون حصراً له سبحانه، فكما أنشأها ستزول بإذنه.

✓ ذكر الله بداية خلقها وغاية ذلك، كما ذكر نهايتها وكيفية ذلك، وأن الذي في السماء والأرض من بحار وجبال ونجوم وشمس وقمر زائلة وفانية، كما حدد القرآن طريقة زولها منها ما تكون كالعهن مثل الجبال منها ما تجف وتنحسر فتزول كالبهار، منها ما تختلط مع بعضها ثم تضمحل كالنجوم، والسماء تنقشع وتسحب كاشفة عن عرش الله، وهذا كله وارد في كتاب الله في سورة الزلزلة والقارعة والانشقاق والانفطار والتكوير.

✓ السماء والأرض مقترنتان في الزمن، والأرض تقابل السماء، كلما جاء لفظ الخلق كان في المقابل الفناء والنهاية، كما بدا الله الخلق يعيده، كما نرى سننه في خلقه كالإنسان والكائنات الحية الأخرى.

1 محمد ابن صالح العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ط1، دار الثريا للنشر، جدة، المملكة العربية السعودية، 2003 ج30، ص73

ثالثاً: التصريف والاستقرار:

تتشرك الأرض والسّماء كفضاءات مقترنة معبرة عن الفضل الموجود فيهما وبهما استقرّ الوجود واستمرّ وجعل الحياة متقنة بديعة، تجمع بين الأسباب والمسببات من خلال ما سخره الله من أماكن احتوتهما فنرى السّماء كحيز كوني أماكن حوتها وتتصوي تحتها وهي النّجوم والشّمس والقمر وهي فضاءات جعلت من السّماء كفضاء مكاني يحمل دلالات جمالية في القرآن الكريم، والنّاظر لآيات الله الكونية وسياقاتها الدّلالية في النصّ القرآني يجد أنّه مع ذكر السماء ذكر الشّمس والقمر والنّجوم وهي فضاءات حملت معاني ولمسات بيانية لا بدّ من ذكرها.

أ/ التصريف: ويمكن أن نفهم الأصل من أنّ جميع الكواكب التي ذكرها الله في كلامه والتي تُنسب إلى السّماء أو ما ذكره الله عن تحمله الأرض من بحار وجبال وجنّات هي منشأ كلّ عامل من عوامل الحياة فالشّمس مصدر للحرارة وأصل لها والقمر من شأنه أن يقبل النّور ويوزع ذلك على الأرض، ويعود أصل حساب الأيام إلى القمر قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:9].

وجاءت في سياق قصّة أصحاب الأخدود، وكأنّ الله يصف حال غفلتهم عن الله وتسّلط هؤلاء الفجّار على الخلق؛ أنّهم تناسوا مرجعهم وأصلهم وموعدهم ودليله هذه السّموات وهذه الأرض التي هم عليها أليست ملّكاً له سبحانه، وإليه يعود كلّ شيء حتى أصل الأشياء كلّها مصدرها السّماء والأرض وهي مرجعها إلى الملك تعالى شأنه، ومدام كلّ شيء بيده سبحانه فهو شهيد على أفعالهم الدّنيئة، "والله على فعل هؤلاء الكفار من أصحاب الأخدود بالمؤمنين الذين فتّوهم شاهد، وعلى غير ذلك من أفعالهم وأفعال جميع خلقه، وهو مجازيهم جزاءهم"¹ قال تعالى: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا^ط وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي^ط أَنْ تَمِيدَ

¹ الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج24، ص344

بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ [لقمان:10].

ويذكر الله في هذا المقام أصل كل شيء وهو الماء وهو العنصر الأصلي في وجود الحياة على الأرض، وهي الأصل الثابت في السماء؛ أي جعل منها مصدرا لمياه الأمطار الذي تسقي الناس والأنعام، فالسما يعود إليها أصل الحياة، والأرض منبتها، وهي على مرأى الإنسان، والحرارة والحساب أصل الوجود وجعل مسببها الشمس والقمر، قال تعالى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٠﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣١﴾) [يس: 38 39] فهي مسخرة لعباده، وإذا نظرنا إلى الأرض وجدنا أن خطاب المولى عز وجل يرتكز على أصل الإنسان، وأن الأرض سخرها له لينعم فيها ويأكل من ثمرها قال تعالى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلْنَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾) [النازعات: 30 31]، والقصد هنا البسط والمهاد وجعل منها نعمة، فالأصل فيها التسخير فهي أصل الرزق التسخير من الفعل المدغم سخر " وسخره تسخيراً ذلله، وكلفه عملا بلا أجرة "1.

إذاً فكل ما ذلله الله لعباده فهو مسخر، والنعمة مرادفة لكلمة الفضل، ولعل النعمة أوسع منها دلالة لوجود منعم لها أو صاحبها، "النعيم والنعمى بالضم: الخفض، والدعة، المال، كالنعمة بالكسر، وجمعها نعم وأنعم، والتنعّم الترفّة، والاسم النعمة، بالفتح نِعَم، كسمع، ونصر، وضرب، والنعمة بالكسر: المسرة، واليد البيضاء الصالحة"2، وبالتالي فالنعمة كل ما هو لين جميل وفير بائن على صاحبه، ويقنضي في النعمة التمتع، وفي المنعم المقدرة قال تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾) [الضحى: 11-11].

1 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص 366.

2 المصدر نفسه، ص 1047

فإنَّه سبحانه وتعالى جعل ما داخل السَّماء وما داخل الأرض مسَّخراً للعباد، ورجوع الإنسان إلى ربِّه يكون حين النَّظر إلى أصل الموجودات فهي من السَّماء ومن الأرض، وإليها تعود كلُّ فضيلة، وكلُّ نعمة يتحلَّى بها الكائن الحي، فالحرارة أصلها من الشَّمس وهي وسيلة من وسائل التَّسخير في الحياة، والهواء أصله من طبقات السَّماء وهو من ضَروريَّات الحياة، والسَّماء والأرض يعبر عنهما القرآن بأنَّهما ملكه، وإليه تعود كلُّ حسنة، وبذلك فلا يحتاج الله شهيدا على أنَّ لا إله غيره، بل أثر ذلك، فلا أحد يتصرَّف في ملكوته إلَّا هو سبحانه، فحينما قال الباري: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾) [آل عمران: 18].

شهد تعالى وكفى به شهيدا، وهو أصدق الشَّاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين (أنه لا إله إلَّا هو) أي: المتفرد بالإلهية لجميع الخلاق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغني عما سواه¹، فالكلَّ يشهد على أن الله إليه المرجع والتَّصريف، ولو كان أحد غيره لفسد السموات والأرض، وفسد هذا النِّظام في الوجود، واتخذ الملك غيره بتبديلها وتحويله.

ب/ الإستقرار: يؤكِّد الخطاب القرآني هذا المدلول للسَّماء والأرض بالاستقرار، أن جعل الله كلَّ ما فيها يعمل عمله دون خلل أو ملل ومستقر ثابت في عمله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا المفهوم نجده مبيثوثا في كلام الله عن لفظ المستقر، والاستقرار، والمقر، أو في الأفعال مثل (قرن، استقر)، والشَّمس مستقرَّة في عملها لا تضيف شيئا من حرارتها ولا حجمها، فهي كما سخرها الله تعالى لا تزيد ولا تنقص في دورانها أو عدَّ الأيام والسَّاعات، فالزَّمن واحد وإن اختلفت أشكال ونمط حياة البشريَّة منذ آدم بل وقبله، وهذا من قوله تعالى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾) [يس: 38].

11 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص25

فالله هو الذي قدر عملها بعلمه وقوته فهو لا يذله شيء، كذلك الحال بالنسبة للقمر فهو يعمل عمله بإتقان وفي استقرار دائم لا يختلف ولا يتخلف، والسماء التي فوقنا بناها الله بإحكام فلا يمكن ان تتزحزح أو تتزاح عنا، فهي لابتنة إلى منتهاها قال الكبير: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ۝٢٦ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩) [النازعات: 26 27 28 29]، " أنتم أشد خلقا يريد أهل مكة، أي أخلقكم بعد الموت أشد في تقديركم أم السماء؟، فمن قدر على السماء قدر على الإعادة؛ كقوله تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧) [غافر: 57] وقوله تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ بِقَدِيرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨١) [يس: 81].

حمل الكلام توبيخاً، ثم وصف السماء فقال: بناها أي رفعها فوقكم كالبناء، رفع سمكها أي أعلى سقفها في الهواء؛ يقال: سمكت الشيء أي رفعته في الهواء، وسمك الشيء سموكا: ارتفع وقال الفراء: كل شيء حمل شيئا من البناء وغيره فهو سمك، وبناء مسموك وسمام سامك أي عال، والمسموكات: السماوات، ويقال: اسمك في الدِّيم، أي اصعد في الدرجة قوله تعالى: (فسواها) أي خلقها خلقا مستويات، لا تفاوت فيه، ولا شقوق، ولا فطور، وأغطش ليلها أي جعله مظلماً؛ غطش الليل وأغطشه الله؛ كقولك: ظلم الليل وأظلمه الله¹، فجعل الله السماء مستقرة لا تفاوت فيها ومنها جاء تعاقب الليل والنهار، وجميع الأفلاك تدور بنظام وتعاقب لا تقدّم فيه ولا تأخير.

وإذا أتينا إلى دلالة الأرض في باب الاستقرار، فإنّ الاستقرار سنة الله في عباده، فلا ينجح الإنسان في حياته إلّا إذا كان مستقراً ثابتاً في كامل شؤونه الدنيوية، ومستقراً من الناحية الدينية، وتمثّل الأرض بالنسبة للإنسان استقرار دائم، ونلمس هذا الفهم في قصّة نزول آدم

¹القرطبي، أحكام القرآن، ج19 ص 179

إلى الأرض مع زوجه أن خاطبهم القرآن بخطاب اللطف والرحمة أن الأرض التي أنتم عليها هي مكان وفضاء تستقرون فيه ولكم فيها كل شيء، ولكن كتب الله عليها رزقها بالسعي قال تعالى: (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ [البقرة:36].

ولما كان الاستقرار بهذه المكانة من الأهمية فقد جعله الله سنة كونية في السماء والأرض، أما في السماء فقد تم ذكره، أما على الأرض نجد دين الله هو الاستقرار البشري للأرض وللنفس، والزواج سنن من سنن الاستقرار، واجتماع الكمة على رجل واحد وعلى دين واحد، ولا استقرار يؤدي إلى الخلاف وليس الاختلاف، والخلاف يُورد المهالك، وجعل الله استقرار الكائنات واختلافها من بين سنن الاستقرار، وفي هذا باب واسع لا يمكن إحاطته.

ومما نتج عن هذا الشرح والتحليل الذي يخص السماء والأرض كمدلول مجتمِع ما يلي:

- ✓ السماء والأرض باقترانهما يحملان مدلولات تكتنز فيهما معاني الجمال البياني لكلام الله تعالى، والغاية فيهما الرئيسية توحيد الله والجزم بالاعتقاد واليقين لوجود مدبر للكون لا تأخذه غفلة ولا سهو، عليم بها، إليه تتقاد جميع مخلوقاته طائعة ذليلة.
- ✓ الأرض والسماء جعلهما الله ركائز ملكه، وأصل الأشياء منها تبدأ كل نعمة من نعم الله واليهما يستقر كل شيء.

➤ الاستقرار سنة كونية شملت الأرض والسماء، ولو اختلفا لفسدتا، وهذا الاستقرار من دلائل التوحيد، ووحدة الكون، ومبدأ التصريف الواحد، إلى الله تجتبي كل المخلوقات، وكما أنشأها قادر على إزالتها.

❖ الفصل الثاني:

الأنساق الثقافية والمعرفية للآيات الكونية:

• تمهيد: ماهية المعرفة:

❖ المبحث الأول: الأنساق الثقافية للآيات الكونية:

➤ أولاً: نسق التسخير والنعمة

➤ ثانياً: نسق الحجة والرفعة

➤ ثالثاً: نسق التكريم والتنوع

❖ المبحث الثاني: الأنساق المعرفية لآية السماء وما فيها

➤ أولاً: السماء بُرُوج مشيدة

➤ ثانياً: السماء سقف محفوظ

➤ ثالثاً: السماء طرائق متقنة

❖ المبحث الثالث: الأنساق المعرفية لآية الأرض وما فيها

➤ أولاً: الأرض كوكب ذكي

➤ ثانياً: الأرض مهاد وبساط

➤ ثالثاً: الأرض توازن وثبات

❖ الفصل الثاني: الأنساق الثقافية والمعرفية للآيات الكونية:

تمهيد: ماهية المعرفة:

مغزى وجود الإنسان في هذا الكون هو البحث عن المعرفة، فهي هدف كل التجارب الفكرية، وعصارة كل المباحث الإنسانية، وهي مزاج كل التقلبات الذهنية، فبالمعرفة يمكن أن تجعلك منك مؤمناً؛ لأنك تعرف عن الله ما لا يعرف الآخرون، ومعرفتك بما تخفيه نفسك وبما تفكر به هو مقدار تجعل منك إنساناً مختلفاً، وشخصية محترمة وأكثر راحة، كذلك معرفتك بالعالم الذي من حولك وبالأشخاص المحيطين بك تجعلك منك إنساناً اجتماعياً ولذا مكانتك بين أقرانك تستدعي حظاً كبيراً من المعرفة، هي التي تميّز بها بين شخصية مثقفة أو سطحية، هي المعرفة التي يمكن أن تتدرج بالإنسان إلى جبل شاهق، أو أن تنزله إلى أسفل الوديان، إذاً فما هي المعرفة؟ وما مجالاتها؟ وماهي المعرفة العلمية، هل القرآن يملك منها معرفة؟ أو يمكن قراءته قراءة معرفية إن جاز الاصطلاح؟

وعرف كسمِع أي علم، المعرفة الدليل على الشيء، واعترافهم سألهم¹، ومنه فالمعرفة هي البحث عن الحقيقة، والاعتقاد بالشيء على وجه المعلوم به وبالدليل، وقد اختلف الفلاسفة في إعطاء مفهوم لمصطلح المعرفة، باختلاف المناهج والمذاهب الدينية والمعتقدات.

فمنهم من يرى بأن المعرفة حقيقة إدراكية انطلاقاً من الأبعاد الحسية، ومنهم من يرى بأنها حقيقة مكتسبة ومنهم من يرى بأنها مجموعة من التجارب البشرية، ومنهم من فضل أن يربطها بالحقيقة العلمية، وآخرون يعتقدون بأنه ملكة بشرية، موجودة في التاموس الفطري للإنسان، بينما يرى أهل الشك أن الإنسان لا يمكنه أن يصل إلى المعرفة مالم يربط العالم بمبدأ الشك الموصل إلى الحقيقة، وذهب جماعة إلى وجود شك مطلق في كل ما في

¹ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص 752

الوجود، ومنه جاء المذهب المادي، وفي الحديث عن المعرفة ونظريتها باب واسع في ذلك، خاصة عند علماء الإسلام ومذاهبهم الكلامية.

ولا شك أنّ أول من تناول نظرية المعرفة هو أبو منصور الماتردي، فقد أدرك في كتابه (التوحيد) أهمية استعمال الوسائل والقوى الإدراكية كلّها دون الاعتماد على وسيلة أو قوة معينة في الوصول إلى المعرفة الحقّة، وقد بيّن فيه ما يؤيد بعضها بعضاً، ثمّ تناول كل المتكلّمين بعد الماتردي نظرية المعرفة، حيث لا نكاد نجد متكلماً تخلوا مؤلفاته عن نظرية المعرفة، فمنهم من أفردوا لها مباحث مستقلة تبوّأت مكانة الصّدارة في كتبهم مثل (الباقاني ت 403 هـ).

ومنهم من خصّص مجلداً (كالقاضي عبد الجبار ت 415 هـ)، فالقاضي عبد الجبار المعتزلي صنّف مجلداً من موسوعته (المغني) سماه (النظر والمعارف) تحدّث فيه بالتفصيل عن العلم والمعرفة وطرقها وحقيقتها، وطرق معرفة صحة النّظر ودرجات المعرفة من الشّك إلى اليقين، وتحدّث عن الدّليل العقلي والسّمعّي، وأوّل ما يجب على المتكلّف، وطريق وجوب المعرفة، ثم نجد الباقاني يقدم لكتابه (التمهيد) (بباب العلوم في العلم وأقسامه وطرقه)، ثم (البغدادي ت 429 هـ) في كتابه أصول الدّين جعل الأصل معقوداً على بيان الحقائق وطرق إثباتها وتحصيلها وأقسامها، والرّازي أيضاً جعل الركن الأوّل لكتابه (التّحصيل) في العلم والنظر والآمدي في (الإحكام في أصول الأحكام) الذي تحدّث فيه عن العلم والكلّي والجزئي وغيره من المفاهيم وكما نجدها أيضاً في مقالات الفرق ككتاب (مقالات الإسلاميين) للأشعري (والمنقذ من الضلال) للغزالي وهناك عدد كبير من علماء المسلمين من الأصوليين والفقهاء والمتكلّمين وغيرهم ممن تناول موضوعاً أو أكثر من موضوعات المعرفة في كتبه.

والدّارس لتاريخ نشأة نظرية المعرفة عند العلماء المسلمين من المتكلّمين والأصوليين يجد أنّ المتكلّمين والأصوليين قد سبقوا غيرهم من الفلاسفة في إفراد بحث المعرفة

بصورة مستقلة في كتبهم، وذلك لأهمية هذا الموضوع بالنسبة لهم، وعلاقته بالوجود، بينما لم يبدأ أفرادها عند الفلاسفة الغربيين إلا في القرن السابع عشر مع جون لوك وغيره.

أما عند المتصوفة فقد كانت نظرية المعرفة عندهم أيضاً لها مكانة بالغة، إذ أنها تكشف حقيقة السبل التي يسلكها المتصوفة لمعرفة الله، ومعرفة الله عندهم، هي مقياس نباهة الانسان وسر تفوقه على سائر المخلوقات، والمذهب المعرفي للمتصوفة ظهر في أول الأمر على شكل أقوال متناثرة مجردة من الأدلة عارية عن الحجج، غير أن نمو التصوف والاتجاهات الفكرية الأخرى جعله يولي أهمية للحجج والأدلة الشرعية حسبهم هي الأدلة العقلية المتناقضة مع الاتجاهات المعرفية الأخرى/ مما جعل للمعرفة الصوفية أدلتها وحجتها النظرية والشرعية، ولقد كان (أبو سليمان الداراني ت 205 هـ) والحاتم المحاسبي (ت 243 هـ) (وذو النون المصري ت 245 هـ) هم أول من تكلم في المعرفة.

وتختلف المعالجة الكلامية عن التناول الصوفي لنظرية المعرفة اختلافاً كبيراً، ذلك أنه إذا كان كل من البحث الكلامي والفلسفي للمعرفة قد انحصرت موضوعاتها وتجمدت في حدود وسائل الإدراك، إما عن طريق العقل أو الحواس، ومدى قدرة تلك الوسائل على اكتساب اليقين أو الوصول إلى معرفة موضوعية يقينية وكيف يكون البرهان الصحيح، فإن المجال الصوفي للمعرفة أوسع من ذلك بكثير، فهو يتناول أنماط كل معرفة من حيث هي وسائل للإدراك وكيفية الاستدلال، وجعل الوسائل المجدية للمعرفة متسقة فيما بينها لتصل إلى المعرفة الحقة وهي المولى عز وجل.

وحين الفهم الصحيح للمعرفة فيما ورد في كتاب الله نجد بأنه يركز على ثلاث محاور أساسية الوحي الإلهي، وهنا لا نقصد به الوحي الذي ينزل على الأنبياء والرسل إنما الوحي الفطري السلوكي (الإلهام)، والرؤيا، والهداية، والنبوة، أما دلالة الوحي المعبر عن كلام الله

تعالى فقال سبحانه: ﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ [طه 1-2] ، أمّا دلالة الوحي الفطري المُعبّر عن الإلهام قال تعالى: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾) [النحل:68] وهو الإلهام، والمراد من الإلهام أنه تعالى قرّر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر¹، والإلهام الفطري يقدر نراه في كلّ حيوان لا يقدر على معيشتة، أو فيه من عجيب خلقه آيات ودلائل عظمة الله نرى هذا الوحي قائما في الموهبة، ومن أسماء الله تعالى (الوهاب)، أي يمنح لمخلوقه سُبُلًا تقدر عليها بقية المخلوقات، ومن الوحي أيضا النبوة قال تعالى: (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿٤﴾) [النجم:4]، وهذا كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أمرٌ ضمنى بطاعة الله ورسوله في أوامره ونواهيه مدام هذا وحي من الله، ومن الوحي أيضا الهداية قل سبحانه: ((وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا عَامَتًا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٣١﴾) [المائدة:111]، ويكون الوحي أمر في القلب للعبد بفعل شيء أو الكف عنه كقصّة أمّ موسى قال تعالى: (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴿٣٩﴾ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٤٠﴾) [طه:38-39]، ويكون الوحي رؤيا يراها المؤمن في منامه تحذيرا أو تبشيرا بشيء قال تعالى: ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ ﴿٥١﴾) [الشورى:51]، والقصد هنا من وراء حجاب، هذا كلّ ما يتعلّق بمعرفة الإنسان وهذا لا نجده في أقوال الفلاسفة الغربيين، لما لهم من جهل بالإسلام غفلة أو عمداً.

ومن المعرفة في الدلائل القرآنية ما كان بحثا عن الله وآياته، وهذا لا يتأتى أمره إلا بإعمال العقل، والتفرّغ لفهم العالم وخالقه، ونجد هذا في أكثر من موضع في كلام الله إذ يقول

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، ج20، ص57

سبحانه: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ [العنكبوت:20]، ويحث القرآن الكريم على طالب المعرفة بل والبحث في ملكوت الله تعالى والغاية واحدة هي التقرب من الله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ [يوسف:109]، فاستخدام العقل يوصل إلى الحقائق وإلى معرفة الله تعالى، ومن المعرفة أيضا الوجه الثالث من أدواته وهي الحواس قال تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ [النحل:78].

فالإنسان وُلد صفحة بيضاء لا يعلم شيئا، ولكن أوجد الله سبل معرفته بالكون وما حوله وهي البصر والسمع والفؤاد (الإدراك) وهذه النعم التي يكسب بها المعرفة، ولذا فتنقسم المعرفة إلى قسمين حسب النص القرآني، معرفة غيبية ومعرفة وجودية، أما الأول منها لا داعي لذكرها فهي في حكم الغيب ولنا في قصة موسى والخضر عليهما السلام لعبرة، إن علم الغيب علم واسع لا يدركه العقل البشري المحدود في حدود عالم الموجودات الحسية والادراكية، ومما سبق يمكن أن نخلص إلى أن المعرفة استعداد فطري، وأخرى مكتسبة عن طريق الحواس، أما المعرفة المجردة فهي تكون بقرار من الإنسان، وبهذا فالمعرفة تنهي في فهم الوجود بما هو موجود، وهذا يقودنا إلى التساؤل عن منهجية الخطاب القرآني هل هي معرفية أم لا؟.

المبحث الأول: الأنساق الثقافية للآيات الكونية:

شاعت حكمة الله أن تحمل السماء معها النجوم والكواكب والقمر ولكن هذه الأفلاك كلها سخرها الله لعباده وجعل فيها نعمه، فكل مكان يحمل دلالة بيانية تخفي من ورائها كنوزاً مضمرة، فإلى جانب مدلولها الجمالي سنستعرض هذه الأماكن ومدلولاتها في نسق الآيات القرآنية.

أولاً نسق النعمة والتسخير:

الشمس والقمر هي أكبر الكواكب حجماً، وقد اتخذها بعض الناس إلهاً يعبد لضخامة حجمها، ومنافعها التي تمس الإنسان بالدرجة الأولى.

أ: النعمة: عطاء لا ينفذ وأثر بائن على الكون، فهذه الفضاءات الكونية على سعتها تزود الإنسان بما يحتاجه الشمس والقمر على كونهما فضاء وجودي، فالشمس تُعطيهِ الأمان والاطمئنان بعد ظلام كئيب، وهي ترعاه في يومه تزوده بالطاقة الحرارية لكي يعمل ويتحرك، وهي أيضاً تلبسه النور الذي يبصر بها الأشياء فهي أساس الحياة، وإذا نظرنا إلى القمر فقد اتخذهُ الناس قرباناً آلهة من دونه سبحانه يذبحون له وله يسجدون.

وفي الثقافة الإنسانية نجد القمر يعبر دوماً عن الجمال وصفاء الروح، والرفعة والضياء، ونجد كثيراً من الشعراء من تغزل باستخدام ألفاظ القمر والبدر والهِلال وقد عبّر القرآن الكريم عن مدى هذا التأثير في جدلية الأنا والنفس في قصة إيمان إبراهيم عليه السلام، لما اتخذهما إلهاً، ولكن سرعان ما تراجع لأفولها قال تعالى: (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقِيمُ إِلَهِ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾) [الأنعام: 77-78]، فقد أدرك إبراهيم عليه السلام أن هذه الكواكب إنما هي مسخرة بقوة خارقة.

ونجد أثر نعمة الآيات الكونية في أنها توصل العبد إلى ربه، فهي باب من أبواب الإعجاز الرباني، وأثر من آثار الإيمان به سبحانه، وتكون النجوم نعمة على العبد أنها تتسيه وحشة الليل وظلمته وتأنسه، وتظهر نعم الله في آياته الكونية في الجبال العظيمة التي تمسك الأرض كالوتد الحامل للخيمة، أم نعم البحار فلا نظير لها ومن نعمها أنها تحافظ على استقرار الأرض، وهي تحمل في جوفها طعاماً للبشر، وحين الحديث عن نعم القمر فهي كثيرة وتأثيره على البحرانات عجيب، وتأثيره على البحار بالرطوبة وعلى المد والجزر الذي له أهمية بالغة في تنقية البحار.

والقصد من وراء الآيات الكونية ما هو بجوف السماء وما هو على ظهر الأرض من فضاءات يستغلها الإنسان، فتظهر هذه النعم على ملبسه ومأكله ومشربه، وذكر الله نعمه على الأرض في أوائل سورة النحل: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾) [النحل: 3-10].

فقد ذكر نعم الله بدءاً بخلق السموات والأرض، وبعدها مباشرة خلق الإنسان وهذا دليل على أن هذا الخلق إنما هو للإنسان، ثم ذكر ما على الأرض من نعم الدواب والحرث والمشى على الأرض بلا مشقة واستغلال ما فيها من طعام وشراب، وكل هذه النعم لا تحصى لأنكم تعيشون أثرها بشكل مستمر، قال الولي القدير: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) [النحل: ١٨] ونرى في كلام الله اقتران الشمس والقمر كمتلازمين

لمعنى التسخير والنعمة في غير موضع من كلامه سبحانه، فإذا أراد استخدام التسخير وظف فعله سَخَّرَ، وإذا أراد استخدام مدلول النعمة استخدم لفظ جعل، وهكذا بشكل متناسق منسجم نحو قوله سبحانه في سورة الرعد: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ [يونس:5] ، وهذا يعني أن الضياء هو فعل كوني وجودي فيه كانت الحياة على الأرض، فهو من مصدر الشمس، ونعمة النور لا تكون نعمة إلا إذا ظهر أثرها على العباد وعلى الحياة، وهذا بائن في علوم الأحياء فالنعمة مرتبطة بالتيسير.

واستغلال هذه الفضاءات الكونية واستخلاص ما ينفع الحياة على هذه الأرض، إنا هو بيد الإلاه الذي يمكن أن يخلق ما يشاء ويجعل مما خلق خلقاً آخر، فالعلاقة بين الخلق الأول والخلق الثاني المستتب منه علاقة تلازمية ترابطية.

ب/ التسخير: ومن معانيه التذليل والاستسلام، وتأدية المهمة الوجودية بلا خلل ولا ملل، وغاية التسخير من الشمس والقمر على وجه المثال الحساب ومعرفة الأيام والشهور والأعوام، ومنها جاءت تسمية الأشهر الشمسية والقمرية، وقال أيضاً: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢٩﴾ [الرعد:2]، فالجريان عملية تسخيرية مقدرة من الله تعالى ولأن من ورائها نعمة، خلقها الله بهذا التذليل، وفي موضع آخر قال: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ [لقمان:29]).

ونجد في كلام الله أيضاً علاقة الشمس والقمر بالليل والنهار للدلالة على تسخير هذه النعمة لعدم الملل أو لانقضاء أجل اليوم وبداية يوم موالى قال سبحانه: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ [إبراهيم:33] ، وفي موضع الجدل

يورد القرآن مسألة الخلق وهذا التسخير الذي نراه من حولنا في قوله: (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦٦﴾) [العنكبوت:61]، وفي موضع آخر يبين الله تعالى قوته وعظمته في الصنع وهو الانضباط في أداء مهام هذا الكون، واستمراريته، وعدم تداخله في قوله: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٥٠﴾) [يس:40].

ونجد لفظ التسخير يتردد في أزيد من آية مثل قوله في الزمر: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ﴿٥٠﴾) [الزمر:5]، ومن نعم الشمس والقمر أن جعلهما الله مصدر ضياء ونور يهتدي بهما الإنسان ليلا ونهارا قال جل في علاه: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿٦٦﴾) [نوح:16]، التسخير يعني التذليل في وجوه عديدة، والله جمع بين السماء والأرض في آياته، ليبين هذه الحكمة الإلهية في الوجود، فكل شيء مسخر لبعضه، وهي مدللة على ضخامتها لأداء مهامها المنوط بها.

الشمس أعظم الفضاءات الكونية تؤدي عملها بإتقان دون هواده أو ملل، فحرارتها بقت على حالها منذ أن خلق الله الكون، وهي تسري لمستقر لها وحالها حال القمر، والكون والأفلاك تسري في بحر من المهام دون اختلال أو تداخل وهذا معنى التسخير، وإن أُلقيت نظرة إلى الأرض، وجدتها ذليلة للعباد، فسفوحها وجبالها وأنهارها وكل ما فيها في تذليل للإنسان، فيحرث ويزرع ويقيم، ويتنقل ويطور من حاله على هذه الأرض فيطرح أثافيه، ويلقي عليها رحله وطعامه، فشق الأنفاق، واستغل المعادن، ونال من باطنها، وظهرها واستغل جوف بحرها، وفي بحرها ركبت سفن كالجبال ضخامة.

وبهذا فيحمل الخطاب القرآني هذا المدلول ويبثه لإبقاء الحجة على الإنسان، الذي وإن كان صغيرا في حجمه وكثافته في الوجود فهذه الفضاءات الواسعة جعلها الله رحيمة بها

ستغلّ نعمها، بل وأظهر الفساد فيها قال الواحد الواجد: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾) [الروم: 41].

✓ التسخير من المسخر وهو الله القاهر القادر على جعلها كذلك، فالجعل هو من التصريف، والتسخير من التدليل، والبيّنة الأثر الذي نراه في الوجود، فالحرارة من أثر الشمس، والغيث من أثر السحاب، والنبات من أثر التراب، وأخلاق الحياة من أثر الماء، والكون مسخر يحمل معه الرحمة والرأفة واللطف بالعباد، حتى ترى الإنسان على ضعفه في هذا الكون لا يؤدي الصلاح بل يفسد فيها.

✓ نعمة الله في كلام الله مرتبطة بجعل، وهو فعل من أفعال التقرير، ولا يكون الجعل إلا إذا كانت البداية، والبادئ هو الله تعالى، وإليه يرجع الأمر كله، فنعمة ما في البحر من كنوز وطعام لا يمكن للإنسان أن يأتيه، لولا نعمة الله أن جعل هذا البحر بهذه الطريقة من الحمل، فحمل الإنسان على ظهره، فهناك مقدرة من أن نجعل هذا البحر بهذا الوصف الدقيق، أما التسخير، هو تذليل الصعوبات وتسهيل هذه النعمة حتى تكون سهلة المنال.

ثانيا نسق الحجة والزفة

النجوم أو الأفلاك جعلها الله سبحانه وتعالى ضمن فضاء السماء لهدفين هامين، الهدف الأول هو الجمال والبهاء، لأن من عادة الإنسان الملل، وقد يتسلل إلى قلبه فيمل من نهار دائم أو من ليل دائم، وحتى الليل جعل الله فيه الضياء والبهاء، والإنسان محب للجمال فلا يمكن أن يرى الكون بوجهه القبيح، والغاية الثانية أنها مسخرة في جوف السماء لهداية البشر إن ظلوا الطريق في فيافي الأرض.

أ/ الحجة: وقد وردت النجوم مثلاً في مقام الحجاج والبرهان كذلك للدلالة على عظمة الله تعالى وقدرته في سورة الأنعام وهي سورة البرهان والاستدلال، ووجه البرهان الإتيان عمل

الكون، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾) [الأنعام: 97]، وبهذا يعدّ النجم سبيلاً للهداية، ومنبعاً أصيلاً للتدبر في هذا الكائن الذي وإن كان بعيداً، ولكن بضوئه وتشكيلاته جعله الله آيةً بُرهانية على الخالق البارئ سبحانه، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالنجوم ومواقعها في قوله: (فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾) [الواقعة: 75]، وأقسم بالنجم في قوله: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾).

والناظر لكلام الله يجد بأن هذا الفضاء يحمل مدلول التسخير كقوله تعالى: ((وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾) [النحل: 12]، ففي هذه الآية يحدد الله المغزى من وراء هذه النجوم التي جعلها الله ضياءً ونورا ليلا فهو سخرها من أجل الهداية في ظلمات البر والبحر وهي حجة للإنسان وعليه لمعرفة خالقه، قال سبحانه: (وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾) [النحل: 16]، أي أنّ للنجوم علامات يُستدل بها إذا سار الإنسان ليلا فلا يضل وقد برهنت التجارب أن بوصلة البشرية قديما كانت النجوم التي تتشكل على شكل دب كبير، فإذا ظهرت كان ذاك الاتجاه هو الشمال ومنه تتحدد الجهات الأربع؛ فالمقابل لها الجنوب وعلى اليمين الشرق وعلى اليسار الغرب.

فبهذه النجوم يمكن أن يستدل الإنسان بوجود خالقه، ومن النعم التي دلّت عليها النجوم أنها تعطي جمالاً ساحراً للسماء، فلو كانت السماء بلا نجوم لملّ من بشاعتها الإنسان فمن رحماته سبحانه أنه قدّر هذا الإنسان وأعطاه مرتبة مشرفة وفكر في كل ما يسر خاطره، ولا يضجر باله، فقد شبه النجوم بالمصابيح في سورة الملّك، وهي أيضاً مصدر للحماية من جوسسة الشياطين، ولو نظر الإنسان إلى الشهب لأدرك وجه البرهان الإلهي على

وجود الربّ سبحانه، ويظهر وجه الحجاج ما استدلّ به الله عن ألوهيته ورؤيبيته من خلال كلام رُسُلِهِ الكرام عليهم السّلام.

ونذكر في هذا المقام قصّة إبراهيم عليه السّلام والنمرود، أين ألجمه بالحجّة الدامغة في وجود الله بقوله: (أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾) [البقرة: 258]، فلما ذكر نمرود هذا السؤال على هذا الوجه أجاب إبراهيم عليه السلام بأن قال: هب أن الإحياء والإماتة حصلا من الله تعالى بواسطة الاتصالات الفلكية إلا أنه لابدّ لتلك الاتصالات والحركات الفلكية من فاعل مدبّر، فإذا كان المدبّر لتلك الحركات الفلكية هو الله تعالى، كان الإحياء والإماتة الحاصلان بواسطة تلك الحركات الفلكية أيضا من الله تعالى.

وأما الإحياء والإماتة الصّادران على البشر بواسطة الأسباب الفلكية والعنصرية فليست كذلك؛ لأنه لا قدرة للبشر على الاتصالات الفلكية، فظهر الفرق، وإذا عرفت هذا فقول: (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق) ليس دليلا آخر، بل تمام الدليل الأول؛ ومعناه: أنه وإن كان الإحياء والإماتة من الله بواسطة حركات الأفلاك، إلّا أن حركات الأفلاك من الله فكان الإحياء والإماتة أيضا من الله تعالى¹.

وتظهر حجة الله في الكائنات التي يستغلّها الإنسان، أليست دليلاً على قدرة إلهية جعلت الإبل التي تتقلّ الإنسان في قفار البراري، مقاومة العطش، فهي آية كونية على وجود المنعم سبحانه، قال تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾) [الغاشية: 17]، وعادة ما يكون الفعل (رأى) في كلام الله من التأمل وإعمال الفكر والجوارح والحواس مع أخذ العقل إلى جوهر الأشياء، وتعدّ هذه الكائنات الفضائية أو التي تتعايش مع الطبيعة، حجة الله في

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، ج7، ص21

خلقه، وإذا أراد الرّسلُ عليهم السّلامُ، مقارنة الكفرة بالبرهنة على الحقيقة، يطرحون لهم سؤالاً دقيقاً في مغزاه، يحمل معنى الإعجاز، وهذا السؤال عادةً ما يكون طرحاً عقلياً وهو: (هاتوا بُرهانكم إن كنتم صادقين)، وفي هذا بلاغٌ أنّ الكونَ وما يحتويه من ارتباطٍ ونسقٍ واتقانٍ من ورائه يدُ خفيةً قويّةٌ وهو الله، وكلّ إله يُعبدُ من دونِ الله لا يستطيعُ مقارنة هذا الاتقانِ، فإن كانت الشّمسُ مصدرُ طلوعها المشرق فلي يستطيعِ إلهٌ غيره استبدالَ وجهتها.

ب/ الرّفعة: يتماهى المدلول النّسقي للأمكنة في كتاب الله مع معاني مشتركة، أي كلما ذكرها مجتمعةً مقترنة أو منفردة إلّا ودلّت على وجود الله فهي الأثر على ربوبيته وألوهيته فهي أماكن لا تملك مصيرها، بل منقادة لحكمة وغاية، ويجمع بين هذه الفضاءات جميعاً مسألة التّسخير إذ دلّلها الله تعالى وجعلها في غاية وهدفاً، فمن غايات الشّمس الحرارة والنّور والحساب، والقمر والنّجوم غايتها النّور والهداية والحساب أيضاً.

وكل فضاء له فضاء أوسع منه وأرحب فالشّمس جزء لا يتجزأ من مجموعتها وهي على سعتها وحجمها تكون ضمن فضاء أرحب وهي السّماء وهكذا، فالله بدأ خلقه بالكليّات ثمّ راح على الجزئيات ولكن دون انفصام أو انقطاع، وهي تكمل بعضها البعض متواترة فعند غياب الشمس يَجُزُّ اللَّيْلُ ويغشى، فيظهر القمر أوّل اللَّيْلِ ثم تأتي النّجوم مصاحبة له مؤنسة لوحشتها، جعل اللَّيْلُ تعاقب هذه الأمكنة لمغزى بليغ وهو دفع الضّجر الملل عن الإنسان وجعل العالم مختلفاً.

فالاختلاف سنّة إلهية، فالإنسان يميل على التّنوع في كل شيء قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٦﴾) [القصص: 72]، فيذكر الله عباده بهذا التّنوع الذي هيّاه لكم حتى أصبحتم تتمنون الخلد في الدنيا، فلا يصلح معبود سواه أن يجلب لكم النّهار أو اللَّيْل وقد

ذكر هذا الجانب النفسي امرؤ القيس حينما وصف الليل بالوحشة لولا تلك الشهب والنجوم التي ربطته وصاحبه حتى ينتظر الصُّباح، ليخرج من غياهب الخنوع والخوف إذ يقول:

ألا أيُّها الليل الطَّويل ألا انجلِ بصبحٍ ومَا الإصباحُ منك بأمثلِ
فيا لك من ليلٍ كأنَّ نجومه بكلِّ مُغارِ الفُتل شدَّتْ بيذبل¹

وإذا اتيت إلى الأرض التي هي مطن الحياة فلم يجعلها الله تعالى قاحلة جرداء ولا مستوية ولا تحمل تربة واحدة ولا مناخا واحدا بل فضاء فسيح يجمع بين عديد الأماكن من جبال وسهول وجنات، وصحاري، وبحار، فهي متنوعة ثريّة وهذه الفضاءات جميعا هي مسخرة للبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكل قطعة من هذه الأمكنة إلا ولها غاية، فهذا التنوع في الفضاءات لها من الدلالات الكثير وسنستعرض جمالها على سبيل اللّمسات البيانية والنسقية لا على سبيل الحصر أو التطويل.

والرّفعة هي المقامُ العالي، الذي يحملُ معاني التّكريم، فقد كرّم الله آدمَ، وفي المقابل رفع له من شأن الأشياء من حوله ويظهر هذا في رفع السّماء بلاعمدٍ، قال جلّ في علاه: (اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢٢﴾ [الرعد:2]، " فإن كان علو فهذا أعلى، وإن كانت عظمة فهذا أعظم، وهو الاستعلاء المطلق، يرسمه في صورة على طريقة القرآن في تقريب الأمور المطلقة لمدارك البشر المحدود، وهي لمسة أخرى هائلة من لمسات الرّيشة المعجزة، لمسة في العلوّ المطلق إلى جانب اللّمسة الأولى في العلو المنظور، تتجاوران وتتسقان في السّياق، ومن الاستعلاء المطلق إلى التّسخير، تسخير الشمس والقمر، تسخير العلو المنظور للناس على ما فيه من عظمة أخاذة، أخذت بألبابهم في اللّمسة الأولى، ثم إذا هي مسخرة بعد ذلك لله الكبير المتعال، ونقف لحظة أمام التّقابلات المتداخلة في المشهد قبل أن نمضي معه إلى غايته، فإذا نحن أمام ارتفاع في

¹ امرؤ القيس، الديوان الشعري، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، ص47.

الفضاء المنظور يقابله ارتفاع في الغيب المجهول، وإذا نحن أمام استعلاء يقابله التسخير، وإذا نحن أمام الشمس والقمر يتقابلان في الجنس: نجم وكوكب، ويتقابلان في الأوان، بالليل والنهار ثم نمضي مع السياق، فمع الاستعلاء والتسخير الحكمة والتدبير¹.

وقد وردَ لفظ الرِّفَع في كلامِ الله اثْنانِ وعشرين مرَّةً كُلُّها بمعاني حُسْنِ المقامِ، وضدِّه الدَّلَّ والهوان، وإذا أراد الله أن يُعبِّرَ عن الفسادِ استخدمَ كلمةَ العُلُوِّ، وهو من التَّكَبُّرِ والفسادِ، قال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾) [القصص:4]، والرِّفَعَة من التَّعْظِيمِ، وقد جعل الله السَّمَاءَ مرفوعةً، وجعل النَّاسَ في رِفْعَةٍ ورفعَ ذكرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الوليُّ الحميدُ في هذا الشَّانِ: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤١﴾) [الشرح:4] وأقام الرِّفَعَة بين النَّاسِ ودرجاتٍ في المالِ والعلمِ والدينِ، وقد نهى المولى على العُلُوِّ في الأرض.

وذكرَ عن اليهودِ في سورةِ الإسراءِ أنَّهم سيعلُّوا في الأرضِ مرَّتَيْنِ، دلالةً على طُغْيَانِهِمْ وفسادِهِمْ، فالله يحبُّ الرِّفَعَة، والأرضُ رفعها بأن كَرَّمَ الإنسانَ فيها، والسَّمَاءُ رفعها بأن كَرَّمَهَا بالملائكةِ، كما رفعَ عرشه سُبْحَانَهُ، وكَرَّمَهُ بذاته العُلِّيَّةِ سُبْحَانَهُ، ويدعون المولى عزَّ وجلَّ إلى فهم هذا المعنى في سورة الغاشية: (وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾) [الغاشية:18]، فهذا تذكيرٌ لِلْإِنْسَانِ ودعوةٌ لِأَعْمَالِ الحَوَاسِّ بالنَّظَرِ، والفؤادِ بالتَّفَكُّيرِ في كَيْفِيَّةِ رَفْعِ السَّمَاءِ، ونحن نراها بعيدةً عَنَّا بلا عمْدٍ حوت الأرضُ ومن عليها في سترٍ وطُمَأْنِينَةٍ.

✓ يظهرُ وجهُ الاستدلالِ في آياتِ الله الكونيَّةِ المُحْكَمَةِ بِإِتْقَانٍ وهي من أثرٍ عظيمٍ صنَّعَ اللهُ، ودليلٌ على قدرته وعلمه وحكمته، ووُظِّفَ هذا المدلولُ في كلامِ الله في أوجهٍ عديدةٍ، منها الاستدلالُ النَّبَوِيُّ الذي قاده رُسُلُ الله عليهم السَّلَامُ وجِدَالُهُمُ لِلْكَفَرَةِ الْفَسَقَةِ الْمُجْرِمِينَ.

¹ السَّيِّد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2045

✓ رفع الله السماء بالتكريم وزينها بالنجوم، وجعلها سترًا للأرض ومن عليها من الأحياء، فهي الوجه المستنير لها، الحافظ، ورفع الأرض وكرمها بالحياة، وهذا ما نلمسه في كلام الله عند ذكر ما فيهما من الكائنات، والرفعة سنة كونية فرفع الإنسان بأن جعل التباين في الأرزاق، ورفع أهل العلم درجات ورفع نبيه ورفع حملة عرشه، ورفع عرشه، وهذا من البيّنات.

ثالثا: نسق التكريم والتنوع:

ونتطرق إلى مسألة الرزق وإلى آية كونية تخصّان الأرض، وهي البحر والجئات ومنها الرواسي.

سمي البحر بهذا اللفظ انطلاقا من جذره اللغوي (ب، ح، ر) أي الماء الكثير، أو الملح فقط ومنه أبحر وبحور وبحار¹، وقد ورد لفظ البحر في كلام الله مرادفا لهذا المفهوم، ولم يرد لفظ المحيط لأنّ هذا التعبير كان غرضه جغرافيا فقط فعلماء الجغرافيا قديما أو حديثا حينما أرادوا أن يميزوا بين شساعة مساحة المياه وتقسيم القارّات ذكروا الفرق بين البحر والمحيط من هذا الباب، ومساحة اليابسة بالنسبة للبحار قليلة، فمساحة البحار تمثل ثلثي المساحة الأرضية، دون احتساب ما تحوي اليابسة من أنهار وأودية جارية.

أ/التكريم: وإذا ألقينا نظرة إلى لفظ البحر في كلام الله نجده مذكورا في كتاب الله خمسا وعشرين مرة، فنجد لفظ البحر ضمن سياقات مختلفة، فقد يرد في سياق القصص القرآني كما هو الحال بالنسبة لقصة موسى عليه السلام وفرعون قال تعالى: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ [البقرة:50]، وقوله: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أُضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ [الشعراء:63].

¹ الفيروز آبادي القاموس المحط، ص312

أو في الحديث عن موسى عليه السلام ولخضر العبد الصالح قال سبحانه: ((وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۖ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ)) [الكهف: 60-61] أو في معرض حديثه عن قصة أصحاب السبب إذ يقول: ((قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۖ)) [الكهف: 109] "والمِداد اسم لما تمدُّ به الدواة من الحبر ولما يمدُّ به السَّرَّاج من السِّلِيط ، والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمه وكان البحر مدادا لها والمراد بالبحر الجنس؛ لنفد قبل أن تنفد الكلمات، وتقدير الكلام أن البحار كيفما فرضت في الاتساع والعظمة فهي متناهية ومعلومات الله غير متناهية والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي"¹.

ومن الجوانب الخفية النسقية المعبرة عن جمال ما أورده الله عن هذا الفضاء المنضوي ضمن مدلولات أوسع للأرض هو النعمة التسخير إذ يقول سبحانه: ((وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۖ)) [النحل: 14]، فهذا المخلوق العظيم الواسع العميق المبهج ناظره، المخيف راكبه جعله الله مسخرًا لعبد ضعيف لا حول له ولا قوة، كما جعلها نعمًا في أربعة منافع جليلة، الطعام، اللباس، السفر، السعي، فالأولى والثانية فيها منافع تخص الإنسان ككائن حي عاقل يجمع بين الرزق والجمال.

أما الثالثة والرابعة تخص الإنسان كمخلوق مثل غيره من المخلوقات تسافر في الأرض كالبهائم والطيور، وتسعى لرزقها وتدب في الأرض كغيره من الكائنات الحية، وتعيد نعم الله، وتسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه، وتذليله للركوب والأفراد وغيره، والبحر: الماء الكثير ملحا كان أو عذبا، كله يسمى بحرا، والبحر هنا اسم جنس، وإذا كان

¹ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج 21، ص 150

كذلك فمنه أكل اللحم الطري، ومنه استخراج الحلية، و أكل اللحم يكون من ملحه وعذبه، وإخراج الحلية إنما هو -فيما عرف- من الملح فقط، ومما عرف من ذلك اللؤلؤ والمرجان والصّدف والصّوف البحري.

وقد يوجد في العذب لؤلؤ لا يلبس إلا قليلا، وإنما يتداوى به، ويقال: إن في الزمرد بحريًا، وقد خطئ الهذلي في قوله في وصف الدرة وتأمل قوله: "يموج" على أنه وصف بريقها ومائيتها فشبهه بماء الفرات، ولم يذهب إلى الغرض الذي خطئ فيه. و"اللحم الطري": السمك، و"الحلية": ما تقدم، و"الفلك" هنا جمع، و"مواخر" جمع ماخرة، و"المخر" في اللغة الصّوت الذي يكون من هبوب الريح على شيء يشقّ، أو يصحب في الجملة الماء، فيترتب منه أن يكون "المخر" من الرّيح، وقوله: "ولتبتغوا" عطف على قوله: "تأكلوا"، وهذا ذكر نعمة لها تفاصيل لا تحصى، وفيه ركوب البحر للتجارة وطلب الأرباح،¹.

وذكر في موطن آخر: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:70)، "وكرّمنا تضعيف كرم؛ أي جعلنا لهم كرما أي شرفا وفضلا، وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال، وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره"² التّكريم، هو إعطاء الإنسان منزلة رفيعة ومقام عالٍ؛ إذ أنزله منزلة تليق به فحمله في البر مشيًا وحمله برًا وبحرًا وغاية الأمر منحه نعمة الرّزق والفضل.

إلى جانب مدلول التّسخير والتّكريم، فإن من دلالات البحر في باب النّعمة هو تتجية الانسان من هوله، فقد عبّر القرآن عن هول البحر، ومشهده المخيف في تلاطم الأمواج

¹ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، د، ت، ج5،

ص335

² القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص264.

والأعاصير المربعة، فمن فضل الله أن يُخَلِّصَ الإنسان من هذا المصيبة إلى أمان بالبر، وفي هذا تذكير بنعمه سبحانه، فالبحر والبر بيده سبحانه، وكل شيء له دون سواه، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾) [يونس: 22].

"واعلم أنّ الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود، حصل له الفرح التام والمسرّة القويّة، ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة، فأولها: أن تجيئهم الرياح العاصفة الشديدة، وثانيه أن تأتيهم الأمواج العظيمة من كل جانب، وثالثها: أن يغلب على ظنونهم أنّ الهلاك واقع، وأنّ النّجاة ليست متوقّعة، ولا شكّ أن الانتقال من تلك الأحوال الطيبة الموافقة إلى هذه الأحوال القاهرة الشّديدة يوجب الخوف العظيم، والرّعب الشّديد، وأيضا مشاهدة هذه الأحوال والأهوال في البحر مختصة بإيجاب مزيداً من الرّعب، والخوف.

ثم إنّ الإنسان في هذه الحالة لا يطمع إلّا في فضل الله ورحمته، ويصير منقطع الطّمع عن جميع الخلق، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرّعا إلى الله تعالى، ثم إذا نجاه الله تعالى من هذه البلية العظيمة، ونقله من هذه المضرة القويّة إلى الخلاص والنّجاة، ففي الحال ينسى تلك النّعمة ويرجع إلى ما ألفه واعتاده من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة، فظهر أنه لا يمكن تقرير ذلك المعنى الكلّي المذكور في الآية المتقدّمة بمثال أحسن وأكمل من المثال المذكور في هذه الآية¹.

ومنه فالبحر أكسبه نعمه التي من غاياتها الرّزق السّعي فيه، فعلى ظهره يسافر الإنسان ومن جوفه يتنعم بلس اللؤلؤ والزبرجد والمرجان وغيرها من الأحجار الكريمة وحصاها القرآن في لفظ (الحليّة)، ومنها يطعم الأسماك المختلفة، وعلى ظهرها يُحمل في الفلك وهذا فضل

¹ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج 17، ص 42

ومعجزة لا يقدر عليها إلا من خلقها، فمدلول البحر يجمع بين ما دلّت عليه الأرض من التوحيد والرُّبوبيّة والألوهية، وعلى وحدانية الله وتفردّه في التصرف، وكذلك من مدلولاتها أنها مسخرة مثلها مثل النجوم والشمس والقمر من الأفلاك العلوية وجعل الله فيها نعمًا غايتها خدمة الإنسان في مأكله وملبسه، وترحاله.

ويحمل البحر دلالة الرّهبة والعظمة فهو ليس مكان آمنًا وهادئًا بل مكان مرعبٌ مخيف، لولا أنّ الله ومن لطفه ورحمته أن جعله على هاتِهِ الهَيأة، وهو أيضًا محل اختبار لنفسية الإنسان فهو لا يرى ربًا سواه إذما وقع في هوله وتلاطم موجه وغضبه، " يحكى أن واحدًا قال لجعفر الصادق: اذكر لي دليلًا على إثبات الصّانع فقال: أخبرني عن حرفتك: فقال: أنا رجل أتّجر في البحر، فقال: صف لي كيفية حالك فقال: ركبّت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها، وجاءت الرياحُ العاصفةُ، فقال جعفر: هل وجدت في قلبك تضرعًا ودعاءً، فقال نعم، فقال جعفر: فإلهك هو الذي تضرّعت إليه في ذلك الوقت"¹. فالمشهد الذي يقع فيه الإنسان في البحر هو فعلا اختبار له عن مدى إيمانه، وإدراكه بأنّ هناك من يتحكّم في هذا البحر وهو خالقه، لم يخلق الله الأرض فضاء خال من الحياة بل جعل فيها التنوع والثراء لحكم منها الديمومة والسيّورة.

التنوّع: كما أنّ الأرض موطن الحياة، فلا بدّ لها من جينات بقائها، وفي هذا نذكرُ نعمة الجنّات وقد ورد لفظ الجبال في أكثر من أربعين موضعًا منها ما كان عرضًا أو في سياق القصص القرآني، ومنها تسمية جبال بعينها كالطّور، وعرفات، ومنها ما جاء في مفهوم ومعنى الدلالي الخاص بالنعم والتسخير، وفي معرض حديثه عن قوم ثمود قال تعالى: (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾) [الحجر: 82]، وقال أيضًا: (وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ

¹ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج17، ص43

خُلِفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ [الأعراف: 74].

وقد ضرب الله مثلا بالجمال في تعظيم شأن القرآن الكريم قال سبحانه: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَلْشًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [الحشر: 21]، عظمة القرآن جعلت الجبل على ضخامته وطوله يُشَقُّ ويكون متصدعا خشية وتضرعا، وذكر مصير الجبال يوم القيامة مثلها مثل الأرض وشبهها بالصوف من تحللها قال تعالى: (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ [القارعة: 5]، وقال أيضا: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ [النبا: 21]، وغيرها من الآيات الدالة على زوالها يوم القيامة، لكن المعنى الدلالي الأدق للجبل الذي يحمل معاني متناسقة مع الأمكنة الأخرى هي شدَّ إحكامها بالأرض.

ومزيئتها التي تحمل الإتقان في الصنع وبين الله فضلها في قوله قال تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ [النحل: 81] "حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة قال: إبي والله، من الشجر ومن غيرها، وقوله: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا)، يقول: وجعل لكم من الجبال مواضع تسكنون فيها: وهي جمع كن¹.

ومن اللّمسات البيانية لكلام الله وجود المعنى متطابق مع المبنى فكلما ورد الفعل جعل إلا ووجدته مقترنا مع الفضل والنعمة، فالجبال مسخرة للإنسان والحكمة فيها أنها تقي الحر

¹ محمد ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج 17، ص 270

الموجود في المنخفضات، وهي ملجأ وسكن فيه من الطمأنينة والسكينة المتوفر في مغاراتها وكهوفها.

كما كان النبي صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه أبو بكر في غار ثور ثلاث ليال سويا، وكما كان صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد، وإن هذا كله يدل على أنها أكنان، إما استتارا للعبادة، أو فرارا من عدو متربص، أو كان من مطر غامر، أو استظلال، ولماذا سماها الله تعالى أكنانا، ولم يسمها بيوتا مثل أهل الكهف.

ويرمز الكهف في كلام الله إلى الفرار بالدين؛ "والجبال لم يتخذوها الناس بيوتا يسكنون فيها فتكون مسكنا لهم فتسكن فيها نفوسهم، ويطمئنون بعد تعب ومكان راحة؛ والجبال في البلاد العربية لم تكن موضع اطمئنان كالجبال الخضراء الكثيفة، فلم تكن مساكن تكون للسترة، بل كانت أكنانا للاستتار من عدو أو مطر منهمر، أو انقواء لحرارة الشمس أو نحو ذلك.

وإذا كان من العرب من ينحتون من الجبال بيوتا فارهين كما جاء ذلك في قصص القرآن الحكيم، فإن ذلك لم يكن عند أهل الحجاز ونجد ونحوها¹ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوْنُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوْنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ [فاطر: 27]) ونرى التنوع والاختلاف الذي سنّه الله في كل المخلوقات متجليا في الجبال من حيث أنها مرتفعة وأقل ارتفاعا، وفي اختلاف ألونها وقد سخرها الله للإنسان يأخذ من المعادن الموجودة بها، فكل لون من هذه الجبال إلا وله خاصية معدن من المعادن، والجانب الآخر يتمثل في نعمة الجمال.

"والجدد الطرائق والشعاب، وهنا لفظة في النص صادقة، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها، مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان

¹ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر 2007، ج8، ص4237

الأخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد غرابيب سود، حالكة شديدة السّواد، وللفتة إلى ألوان الصّخور وتعدّدها وتنوّعها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان النّمار، تهزّ القلب هزّا، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصّخرة كما تراه في الثّمرة، على بعد ما بين طبيعة الصّخرة وطبيعة الثّمرة، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان.

ولكن النّظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصرا مشتركا بين هذه وتلك، يستحق النّظر والالتفات، ثم ألوان الناس، وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه، بل متميز من توأمه الذي شاركه حملا واحدا في بطن واحدة!، وكذلك ألوان الدّواب والأنعام.

والدّواب أشمل والأنعام أخصّ، إن هذا الاختلاف والتنّوع نراه في الحقائق والزّروع والنّمار، فلقد جعل الله في الأرض ما ينتعم به الإنسان من فواكه وثمار وزروع، وأشجار يستظلّ بها أيام الحرّ، ويبني بجنوعها منازل تقيهم أيام القرّ، قال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾) [الرعد:4]، فاستهلّ الآية بأسلوب حصر فيه تقديم الخبر شبه الجملة (في الأرض) على المبتدأ، لاقتضاء الحال، فهذه الجنّات والزّروع وغيرها لا توجد إلا على الأرض وهي نعم ظاهرة، فسبحان من سخر هذا الكوكب لينتعم به الإنسان.

وأعيد اسم الأرض الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضى ليستقل الكلام ويتجدّد الأسلوب، وأصل انتظام الكلام أن يقال: جعل فيها زوجين اثنين، وفيها قطع متجاورات، فعدل إلى هذا توضيحا وإيجازا، والقطع: جمع قطعة بكسر القاف، وهي الجزء من الشيء تشبيها لها بما يقطع وليس وصف القطع بمتجاورات مقصودا بالذّات في هذا المقام إذ ليس

هو محل العبرة بالآيات، بل المقصود وصف محذوف دلّ عليه السياق تقديره: مختلفات الألوان والمنابت، كما دل عليه قوله تعالى (ونفضل بعضها على بعض في الأكل) وإنما وصفت بمتجاورات؛ لأن اختلاف الألوان والمنابت مع التجاوز أشدّ دلالة على القدرة العظيمة، وهذا كقوله تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود).

فمعنى (قطع متجاورات) بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة، والاقتصار على ذكر الأرض وقطعها يشير إلى اختلاف حاصل فيها عن غير صنع الناس وذلك اختلاف المراعي والكلاء، ومجرد ذكر القطع كافٍ في ذلك فأحالهم على المشاهدة المعروفة من اختلاف منابت قطع الأرض من الكلاء وهي مراعي أنعامهم ودوابهم، ولذلك لم يقع التعرض هنا لاختلاف أكله إذ لا مذاق للآدمي فيه ولكنه يختلف شره بعض الحيوان على بعضه دون بعض¹.

تسخير الأرض للعباد يقتضي نعمًا مختلفة ومتنوعة والتنوع في الأرض له دلالات العظمة والتفرد في الصنع، ومن دلالات اقتران الأرض بالسّماء أن جعل الماء مصدرًا للحياة في كلّ ما تنبته الأرض، وهذا الفضل الإلهي إنما هو مسخر للإنسان لئلا يحتجّ يوم القيامة، وأنّ كل ما في الأرض فهو له ولذا نجد الله تعالى يقيم الحجة على المستضعفين فيقول: ((إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧ [النساء: 97])، فالهجرة فرارًا بالدين هي من سمات المتقين، فالهجرة لا تكون إلا ابتغاء مرضاة الله، والأرض مسخرة لعباده مؤمنًا أو كافرًا، لكن المؤمن عليه أن يكون كَيِّسًا فطِنًا و ليعلم أن الأرض لله يورثها لعباده الصالحين.

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص86

ومن هذا النعيم أن جعل الأرض مسخرة يدب فيها ويسافر ويهاجر فيها عباده ومنه جاء قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾) [الملك:15]، "سهلة تستقرون عليها، والذلول الذي يذل لك والمصدر الذل وهو اللين والانقياد، أي لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغلظة، وقيل: أي ثبتها بالجمال لئلا تزول بأهلها ولو كانت مُنتَكِفَةً متمائلة لما كانت منقادة لنا، وقيل: أشار إلى التمكن من الزرع والغرس وشق العيون والأنهار وحفر الآبار" ¹.

وأمرنا الله أن نسعى فيها ونتدبر في ملكوت الله وأن لا توقفنا حدود أو أمصار، "فامشوا في مناكبها أمر بالتصرف فيها والاكتساب، ومناكبها، قال ابن عباس وقتادة وبشر بن كعب: أطرافها، وهي الجبال، وقال الفراء والكلبي ومُنذر بن سعيد: جوانبها، ومنكبا الرجل: جانباه، وقال الحسن والسدي: طرفها وفجاجها، قال الزمخشري: والمشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجاورته الغاية؛ لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير، وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم ينزل، وقال الزجاج: سهل لكم السلوك في جبالها فهو أبلغ التذليل، وإليه النشور أي: البعث، فيسألکم عن شكر هذه النعمة عليكم" ².

وقال سبحانه: (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾) [الأنبياء:31]، وفوق هذه الأمكنة الموجودة في الأرض أرزاق الناس قال جل شأنه: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾) [الأنعام:99]، فدلالة اقتران السماء والأرض كفضاء حاملٍ لأمكنة متواجدة بينهما هو

¹ القرطبي، أحكام القرآن، ج18، ص199

² أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الفكر، بيروت لبنان، ط1 2000، ج8، ص297

الفضل والنعم المختلفة فالماء من السماء، والتُّراب من الأرض فشكّلت هذه الثنائية نسق النعمة فالنَّمار الموجودة على الأرض لا حصر لها ولكن يبيّن له لعباده هذا الاختلاف في النَّمار من حيث المناخ نوع التُّربة مع أنها تسقى بماء واحد فمنها السُّهول الخضراء، والحبُّ ويُقصد به الحبوب والبقوليات المختلفة، و فواكه ذكر منها العنب والرَّمان لاختلاف الشكل والمذاق ثم ذكر النخيل القانية.

وجملةُ الفوائد من هذا المبحث هي:

✓ النعمة في الخطاب القرآني متلازمة مع المبنى الدلالي للفعل (جعل) والفعل (سخر) مُناسِق للتَّسخيرِ وحينما يتحدث القرآن عن هذا الفضل فإنه يذكر في قالب مقترن بين السَّماء والأرض ككل مجتمع متناسِقٍ ومترابٍ، كل مكان من هذه الأمكنة إلّا ولها ارتباط وثيق مع المكان المتجانس لها، ويجمع بينهما التَّسخير الذي يحمل حكما كثيرة وغايات تشكّل بينها جمالا وعظمةً.

وعلى سبيل المثال لا الحصر ظاهرة الماء في الطبيعة فهي من فضاء السَّماء كما هو موجود في النص القرآني، ثم ينزل إلى الأرض، فتأخذه السَّواقي إلى أماكن مختلفة، فجاء منه ينبت الله به الزرع، والآخر يذهب للبحار ويعاد تشكيل بسبب حرارة الشَّمس ليصبح بخارا، ومن خلال ذلك نجد هذه السلسلة متناسقة، فيربط القرآن الكريم هذه السلسلة في أكثر من آية كما وضَّحنا ذلك فنجد هذا التناسق في مدول التَّسخير (السماء، الأرض، الجنات، البحار، الشمس، وينتهي عند السماء في النهاية).

✓ يُركِّز الخطاب القرآني عند سرد هذه الأمكنة مجتمعة على البعدين الجمالي والتَّأملي، ونجد سياقات وأفعال (قل سيروا، ألم تر، أرايت، أنظر)، فهي أفعال فيها دعوة إلى استخدام العقل في تفسير هذه الظواهر، وكذلك التَّنكير بالنَّعم التي حباها الله للإنسان، وأن هذا الكون لم يُخلق عبثا بل لغاية وحكمة.

➤ المبحث الثاني: الأنساق المعرفية لآية السماء وما فيها :

ورد في خلق السماء والارض في كتاب الله عدد الأيام التي أُسْتُعْرِقَتْ في خلق السماء والأرض، في كثير من الآيات وعددها ثمانية: (الأعراف، يونس، السجدة، ق، هود، الفرقان الحديد) منها قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾) [يونس:3]، وقد ذكرنا الحكمة في ذلك.

أما خلق السماء في يومين وخلق الكون في ستة ايام من الناحية المعرفية، فلم نر أثراً لأساطير الإغريق ولا الحضارات القديمة شأن يذكر ماعدا في فهم أبراج السماء ونجومها وسعته أما مسألة الزمن الوارد فيها، أو المدة الحرجة في ذلك يحتاج إلى دراية وعلم، وأدوات معرفية متطورة في ذلك، وتحديد مفهوم اليوم في الدلالة الزمانية القرآنية تختلف عن الدلالة الزمانية البشرية، وهذه الدلالة قد خاض فيه العلماء قديما وحديثا وحتى العلم الحديث كان قد سلك هذا المذهب كما سنبين ذلك.

والحجة في ذلك أن لا وجود للزمن كما هو معلوم بالحساب الشمسي أو القمري، وثانيها ما قاله القزويني من أن: "اليوم في اللغة الكون الحادث والأيام ههنا مراتب مصنوعاته لأن قبل الزمان لا يمكن تجدد الزمان، فمن الأيام الستة يوم الأرض لصورتها، ويوم لمادة السماء ويوم لصورتها، ويوم لمكملاتها من الجبال، والكواكب، والنفوس وغيرها"¹، ولكن نظرته كانت قاصرة، فلا نرى جهدا علميا ماعدا أنه اجتهد منه، وإن كان يصب في قالب المنطق والعقلانية، وقد جاء مفهوم اليوم في القرآن الكريم ضمن دلالات وسياقات مختلفة، ويمكن أن يكون اليوم دالا على حدث كيوم الحج ويوم القيامة، ويمكن أن يحمل معاني أخرى هي

¹ القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تح محمود عبد الإلاه سعد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1

المدة الزمنية كما في قوله تعالى: (يَدَّبُّرُ الْأُمْرِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾) [السجدة:5]، وإذا كان الخطاب القرآني موجها للعقل العربي في تلك الفترة، فقد كان العربي يقدر الزمن بالنسبية، كأن يقول مثلا: المسير بين عدن ومكة، أو بين الشام ومكة (مسيرة شهر)، وبالتالي كان العربي يفهم الدلالة في النص القرآني انطلاقا من فهمه المعرفي للزمن والثنائية التي يُشكّلها الزمن مع المكان.

وقد انتبه ابن عربي لنسبية الزمن من خلال تصوّره الصوفي، وذاك من أنّ النص القرآني يؤمن بذلك، وانتبه أيضا إلى أنّ الأيام الستة المذكورة عن الخلق إنّما هي أطوار، أو مراحل (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾) [نوح:14]، "بذلك فإنّ ابن عربي قد سبق ألبرت أنشتين بمئات السنين في الإشارة إلى حقيقة أن الكون وجود مادي في كل من المكان والزمان، كما سبقه بالإشارة إلى العامة تحدّب الكون بتحدّب الزمان، وهي قضية تعتبر اليوم من أهم نتائج النظرية النسبية بل إنّ في إشارة القرآن إلى يوم كألف سنة، ويوم كخمسين ألف سنة ليمثل أساس النسبية.

ليس هذا فقط بل إنّ القرآن الكريم قد أشار إلى سرعات تقارب سرعة الضوء وسرعات تفوقها بدرجات عديدة وذلك بقول الحق سبحانه: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾) [النمل:40]¹، وبذلك نجد القرآن الكريم يشير إلى هذا التفاوت الزمني من خلال استخدام العبارة (مِمَّا تَعُدُّونَ)، للإشارة إلى تعدّد الأزمنة من خلال اختلاف الأمكنة وتداخل عناصر ثابتة وهي الجاذبية والحركة والكتلة (الطاقة).

¹ زغلول النجار، السماء في القرآن الكريم، ص160

وثبت علمياً أنّ الكون أخذ في الاتساع وباستمرار، ولو رجعنا به إلى الوراء مع الزمن فلا بدّ أن تلتقي المادّة الأولى للكون في حالة قريبة من العدم أي لا أثر للزمن لا نهائية في الطاقة، وبالتالي كان لابدّ من عملية للانفجار وهذا بأمر من الخالق، "وتفيد النظرية النسبية أنّ كتلة الأجسام المادّية المتحركة تزداد بازدياد سرعتها، وتكتمش هذه الأجسام في اتجاه الحركة، وعندما تصل سرعتها إلى سرعة الضوء ينكمش طولها إلى الصفر أي تتلاشى وتتحوّل إلى طاقة حسب المعادلة التّالية: (الطّاقة الناتجة تساوي كتلة الجسم بسرعة الضّوء ضرب مربع سرعة الضوء)¹.

وبالتّالي فالنّظرية النسبية تفيد بأنّ الكون زمنه نسبي يعتمد على سرعة تحرك الجسم وطاقته بالنسبة لجسم آخر، وهكذا فإنّ سرعة الزمن وعدم الإحساس به تُقاس بسرعة تحرّكه، وهكذا نفهم بأنّ اليوم الذي ذكره الله في خلقه يعنى الطور أو المرحلة، وهكذا فإنّ المعرفة الإنسانية اليوم قد توصّلت إلى المراحل التالية: مرحلة المادّة الأولى وانفجارها (الزّيق)، مرحلة توسّع الكون (الفنق)، ومرحلة الثّالثة تشكّل السّماء (خلق السّموات) الدخانية وتشكّل المادّة والمادّة المضادّة لها، وتكوّن النواة للمواد المختلفة، والرابعة انفصام هذه المواد و تكاثفها بفعل الجاذبيّة وبداية تكوّن الأجرام ومنها الأرض، والخامسة تشكّل الأرض وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصّخرية، وانقسام الماء عن التّربة لتتشكّل بذلك القارّات والمحيطات، وبروز الجبال التي تحفظ التوازن، والسادسة هي خلق جميع المخلوقات ومنها الإنسان.

كنا قد شرحنا لفظ السّماء الذي يحمل دلالة الارتفاع، ومنه فكلّ شيء ارتفع عن الأرض فهو سماء، ولذلك كانت النّظرة البدائية للإنسان عن السّماء نظرة قاصرة، لأنّ وسائل المعرفة لديهم محدودة، وقد ذكر اليونانيون أنّ السّماء هو الإله (زيوس)، وسنتطرق في الدّلالة المعرفيّة للسّماء في جوانب مختلفة، وهي ما معنى بروج السماء في الفهم المعرفي للإنسان،

¹ زغلول النجّار، السماء في القرآن الكريم، ص 161

ومسار العلم في اكتشافات تثبت ذلك، ثم ما دلالة حفظ السماء، وما معنى السماء بناء قوي مؤيد.

أولاً: السماء بروج مشيدة:

قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ①) [البروج:1]، "واختلف أهل التأويل في معنى البروج في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني بذلك: والسماء ذات القصور، قالوا: والبروج؛ القصور، حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس والسماء ذات البروج، قال ابن عباس: قصور في السماء، قال غيره: بل هي الكواكب"¹.

"واختلف العلماء في المراد بالبروج في الآيات المذكورة ، فقال بعضهم: البروج: الكواكب، وممن روي عنه هذا القول مجاهد وقتادة، وعن أبي صالح: أنها الكواكب العظام، وقيل: هي قصور في السماء عليها الحرس، وممن قال به عطية، وقيل: هي منازل الشمس والقمر، قاله ابن عباس: وأسماء هذه البروج: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوث، قال مقبده - عفا الله عنه - : أطلق تعالى في (سورة النساء) البروج على القصور الحصينة في قوله: (أَيَّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ②) [النساء:78].

أصل البروج في اللغة الظهور، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها، فالكواكب ظاهرة، والقصور ظاهرة، ومنازل القمر والشمس كالقصور، بجامع أن الكل محل ينزل فيه، والعلم عند الله

¹ الطبري، جامع البيان، ج24، ص328

تعالى" ¹، ولفظ قصور ينحدر من الأساطير الكلدانية وأساطير بلاد الرافدين، تخيل القدماء أنّ مواقع النجوم في السماء تكون على شكل تجمّعات نجمية، قبل أن يتم رسمها، ويُعدّ السومريون هم أول من قسّم السماء إلى نجميات (constellations)، وذلك في الألفية الرابعة قبل الميلاد، وتأثرت الحضارات المتجاورة بهذه الفكرة وبتخيّلها للسماء، فتخيّل العرب والبابليون والمصريّون لأشكال الكويكبات كان مشابهًا بصورة كبيرة لتخيّل الإغريق لها، والذين تخيلوا وجود 48 موقعًا نجميًا في السماء.

ولكن اختلف شكل السماء من حضارة إلى أخرى، وهكذا يرجع إلى الصّحابة تفسيرهم للبروج بالقصور، ولكن اجتمع الفكر الإنساني على أنّ "تقسيم الحزام المحيط بواسطة الكرة السماوية إلى اثنا عشر برجاً بعدد شهور السنة، من مثل برج (الحمل)، الذي يبدأ ظهوره في حدود الحادي والعشرين من شهر مارس، ثمّ برج (الثور) في حدود الحادي والعشرين من شهر أبريل، وهكذا لكلّ شهر زمني برج من هذه الأبراج بالترتيب التّالي: الحمل، الثور، الأسد، الجوزاء، السرطان، العذراء (السنبلة)، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت،" ²، وحقيقة هذه التّجمّعات النّجميّة (البروج)، أنّها مساحات محدّدة من السماء الدّنيا، يحوي كلّ منها في كلّ فترة زمنيّة محدّدة أعداداً من النّجوم التي تبدو لنا متقاربة مع بعضها البعض رغم المسافات الشّاسعة التي تفضلها نظراً لبعدها الشاسع عنّا" ³ وقد خلق الله النجوم من بداية الكون.

أ/ النّجوم: النّجوم أجرام سماويّة شديدة الحرارة، ملتهبة ومشتعلة ومضيئة، تبدأ حياة أي نجم على شكل نجم أولي، وهي مرحلة يكون فيها النّجم عبارة عن كتلة من الغبار الكوني في طور التّكدس لتكوين نجم، تستمر هذه المرحلة لمليار سنة لنجم بحجم شمسنا، وبعدها يدخل

¹ محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج2، ص256

² زغلول النّجار، السماء في القرآن، ص329

³ المرجع نفسه، ص330

النجم في مرحلته الثانية، مرحلة النسق الأساسي، وهي المرحلة التي يكون فيها النجم نجماً بمعنى الكلمة، حيث يقوم النجم بعمليات الاندماج النووي لذرات الهيدروجين لتكوين الهيليوم، وفي هذه المرحلة قد تتخذ أي لون من الأحمر (أبرد النجوم) إلى الأصفر ثم الأبيض وصولاً للأزرق (أشدها حرارة وإضاءة).

وشمسنا بيضاء مصفرة، ويوجد في الجزء المدرك من السماء حوالي سبعين بليون ترليون نجم كما تتعرض هذه النجوم إلى الانفجارات العظيمة وإلى الاحتضار حتى تصبح كالحبة في فلاة، وهذه البروج الموجودة في السماء الدنيا تشير إلى مواقع الشمس الظاهرية ولكن الحقيقة أنها تشير إلى مواقع الأرض الحقيقية في حركتها السنوية حول الشمس وبالتالي تظهر المجموعات النجمية مساء لتعطي مدلولاً على كل برج تتواجد فيه الشمس الظاهرية أو مواقع الأرض الحقيقية، وتعتبر أهم هذه البروج هي البروج الرئيسية الأربعة.

حيث البرج الأول هو برج الحمل، والذي تبدأ عنده السنة الشمسية، وهو ينتج من تقاطع لدائرة البروج مع دائرة خط الاستواء، وفيه يكون إعلان للربيع في نصف الكرة الشمالي، بينما يكون إعلان للخريف في نصف الكرة الجنوبي ويتساوى الليل والنهار وتمر الشمس الظاهرية تبعاً ببرج الثور ثم برج الجوزاء لتحل بعدها الشمس الظاهرية في (22 يونيو) برج السرطان ليعلن بدء فصل الصيف وأطول نهار في نصف الكرة الشمالي، بينما يكون في الوقت نفسه بدء فصل الشتاء في نصف الكرة الجنوبي وأقصر نهار، ثم تمر الشمس تبعاً بالنزول إلى أسفل برج الأسد والعذراء إلى أن تأتي إلى برج الميزان في (23 سبتمبر)، حيث يعلن بدء الخريف في نصف الكرة الشمالي والربيع في نصف الكرة الجنوبي، كما يعلن في هذه اللحظة تساوي الليل والنهار على جميع أنحاء كوكب الأرض.

ثم تستمر الشمس الظاهرية في النزول إلى الأسفل مارةً ببرج العقرب والقوس إلى أن تصل إلى برج الجدي في يوم (22 ديسمبر) لتعلن بداية فصل الشتاء، وكذلك لتعلن أطول ليل في نصف الكرة الشمالي، بينما تعلن في اللحظة نفسها أقصر ليل في نصف الكرة الجنوبي

ثم تبدأ الشمس الظاهرية في الصعود إلى أعلى لتمرّ بـ برج الدلو ثم برج الحوت لتصل إلى برج الحمل مرة ثانية في (21 مارس)، لتعلن بدء السنة الشمسية الجديدة، ويوجد فرق كبير بين السنة الشمسية والسنة الميلادية رغم تساويهما في عدد الأيام، ولكن نقطة البداية تختلف، حيث السنة الميلادية تبدأ في أول يناير، وهي من صنع الإنسان ولا تعبر عن أحداث فلكية، ولكنها تعبر عن مولد المسيح، إذ اختلف في مولده، فمن قال أنها في 7 يناير للمسيحيين الشرقيين ومن قال انها في 25 ديسمبر للمسيحيين الغربيين، واتفقوا فيما بينهم على أخذ القيمة المنتصفة بين الوقتين لتكون هي أول يناير من كل سنة.

أما التوقيت الفلكي الذي يتبع حركة الشمس الظاهرية فهي السنة الشمسية التي تبدأ في 21 مارس من كل سنة الذي يحتفل فيه بعيد الأم، حيث أن شمسنا الجديدة هي أم لجميع كواكب المجموعة الشمسية، وقد ذكر القرآن الكريم فوائد النجوم، بالنسبة للإنسان الذي اتخذ من عقله وسيلة للتعرف على حقائق الكون منذ القدم، ومنها أن النجوم وسيلة للاهتداء في ظلمات البر والبحر قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ [الأنعام:97]، ومن الأدلة والحقائق عن هذه الآية أن النجم القطبي يستخدم كوسيلة لتحديد الاتجاه الشمالي ومنه تُحدّد الاتجاهات الأربع، وهو نجم عملاق لامع يُشكّل الدبّ الأصغر، وهو بعيد عن الأرض مسافة ست مائة وخمسين سنة ضوئية، ويكبر عن الشمس بمائة مرة أما شعاعه فيتجاوز شعاع الشمس بخمسة آلاف مرة.

وجعل الله النجوم زينةً للسماء الدنيا قال تعالى (فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾) [فصلت:12]، (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ

خَطَفَ الْحُطَفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ [الصّافات: 6-10]، ومن النّاس من يعتقد بأنّ الشّهب وحدها كفيّلة بذلك، لكن " تنتج الشّهب والنّيّازك عن بقايا " وكل من البروج والنّجوم (مصاييح)، والكواكب والأقمار من أهم الوسائل في إنارة ظلمة اللّيل، الأولى بأضوائها الذاتية، والكواكب والأقمار بانعكاس أضواء النجوم عليها نورا، ولولا ذلك لأصبح ليل الأرض حالك السّواد، قابض للأنفس، مخيفا مزعجا¹.

وقد جعل الله النّجوم والكواكب رجوماً للشّياطين في سورة الحجر، وسورة الصّافات وسورة الجن، قال تعالى انفجار أيّ من النّجوم أو الكواكب وهما من مكّونات البروج²، والشّهاب عبارة عن كتلة صلبة تخترق الغلاف الغازي للأرض بسرعة هائلة مقدّرة بأربعين كيلومتر في الثانية، وحين احتكاكها بجزئيات ذلك الغلاف الغازي يؤدّي إلى اشتعال الكتلة أو احتراقها كاملة أو شيئا منها، ففي حالة احتراقها تصبح رمادا وفي الحالة الثّانية تصبح نيزكا.

ومن عجائب النّجوم أنّها مصدرٌ للرّزق وقد ذكرنا في تحليلنا للأنساق الثقافيّة للتّفسير، " ولكن يأتي العلم التجريبي في أواخر القرن العشرين ليؤكد لنا أنّ كافّة العناصر يخلقها ربنا سبحانه وتعالى في قلب النّجوم، والذي لا يخلق في النجوم يتم خلقه في صفحة السماء³ ارتباط الرّزق بالسّماء تتمثّل في النّجوم المنفجرة التي تشكّل نواة ذرّات الهيدروجين، وفي قلب النّجم العادي تتكون ذرّات الهيليوم، وباتّحاد نواة ذرّات الهيليوم تتكون ذرّات نواة البريليوم، وعند انفجار النّجم يساعد في تشكّل السحاب، ومن مظاهر الرّزق أنّ ضوء النّجوم يساعد النباتات الأخضر في عملية (الليخضور) الذي يكون طرح الأكسجين واستنشاق ثاني أكسيد الكربون، وبهذا يكون الهواء نقيّا لاستمرار الحياة في الأرض، وكثيرا من المنافع التي لايزال العلم الحديث يكتشفها لليوم.

¹ زغلول النّجار، السماء في القرآن الكريم، ص335

² المرجع نفسه ص336

³ المرجع نفسه، ص337

ومن فوائد النجوم أنها تمسك السماء أن تقع على الأرض قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾) [الحج: 65]، "إنّ البروج وبنجومها وباقي أجرامها، وكلّ ذلك بمواقعه، وكتله، وجاذبيّته، وحركاته جند مسخرة من قبل الله للإمساك بأطراف السماء الدنيا على رغم المسافات الشاسعة، التي تفصلها، فهي مرتبطة مع بعضها باتزان دقيق بين كل من القوى الجاذبية والقوى الطاردة المركزية على الرغم من تحرّكها بسرعات مذهلة في صفحة السماء وفي حركات عديدة معقدة"¹، ولم يذكر الله تعالى في كتابه علم التجيم كما يدّعي أهل الظلال، ذلك أنّ النجوم ليس لها علاقة بالإنسان وتأثيرات حياته.

ولم يجعل الله البروج الشمسية والمنازل القمرية لهواً وعبثاً، بل خلقت كآيات علمية لأصحاب العقول الذين يتدبرون في خلق الله، فمن خلال البروج الشمسية الأربعة الرئيسية وهي الحمل والسرطان والميزان والجدي يمكن تحديد الفصول الأربعة، وهي على التوالي الربيع والصيف والخريف والشتاء وبالتالي تحديد مواعيد الزراعة وحصاد المحاصيل، وكذلك يمكن تحديد مواسم الصيد البحري للأسماك والصيد البري للحيوانات والصيد الجوي للطيور المهاجرة، وكذلك يمكن تحقيق مواقيت المدّ والجزر وبصفة خاصة بعد تحديد مواعيد الكسوف الشمسي والخسوف القمري والذي تتفق فيه البروج الشمسية مع المنازل القمرية وكذلك يمكن تحديد مواسم فيضان الأنهار وأخيراً تحديد حساب طول السنة الشمسية والسنة القمرية.

ويبرع في ذلك العرب بأحوال الجوّ والطّقس وخاصة بطول الأمطار ومواعيد الأنواء بارتباط المنازل القمرية داخل البروج الشمسية، ومن ثم تأتي بعد ذلك كل الآيات العلمية ليكذب المنجمون فيقولون حظك اليوم، وهذا الأمر مرفوض علمياً وعقلياً والسرّ في الرّفص القاطع

¹ زغلول النّجار، السماء في القرآن الكريم، ص 339

هو أن هذه النجوم والتي تزين البروج السماوية قد تكون مئة من آلاف بل ملايين السنين، وعلم الغيب لا يعلمه إلا هو سبحانه إذ يقول: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٥٩﴾ [الأنعام:59]، ونحن نرى منها اليوم ما تبقى منها من ضوء بناء على سريان الضوء بالسرعة الضوئية المعروفة والتي قدرها العلماء بمقدار 186 ألف كيلومتر في الثانية فكيف يأتي برج سماوي قد تكون نجومه مئة من هذا الزمن البعيد ثم يتحكم في حاضر ومستقبل إنسان حي، إن الحي الذي لا يموت هو الله وهو جل جلاله الذي يتحكم في الحاضر والمستقبل بكل إنسان، وقد أقسم الله تعالى ببعض النجوم منها: (نجم الطارق)، قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢) النُّجْمُ الثَّاقِبُ ٣) [الطارق:1-3]، (وَالسَّمَاءِ) مجرورة بواو القسم متعلقان بفعل (أقسم) (وَالطَّارِقِ) عطف على السماء، (وَمَا) اسم استفهام مبتدأ، وجملة أدراك الخبر، (أَدْرَاكَ) فعل ماض والفاعل مستتر (هو) والكاف مفعول به أول، (مَا الطَّارِقُ) مبتدأ وخبر، والجملة سدّت مسدّ مفعول أدراك الثاني، (النُّجْمُ) بدل من الطارق، (الثَّاقِبُ) نعت.

ومن خلال إعراب هذه البداية من السورة نجد بأن حرف الواو لا يحمل دلالة الجمع ولا دلالة التفصيل بل دلالة العطف على القسم والتعقيب، فقد أقسم الله تعالى بالسماء، وأقسم بالطارق، ثم عرّفه ووصفه من يكون هذا النجم وذكر أنه ثاقب، ومن خلال لفظ الطارق يمكن أن نقول أن الدلالة الصرفية هو اسم فاعل من الفعل طرق، وكانت العرب تُسمّي الشخص الذي يدقّ الباب ليلاً بالطارق، وربما هذا المعنى قريب من المعنى العلمي لهذا النجم الذي يبدو أنه لا يظهر إلا ليلاً، والثاقب، من المصدر (الثَّاقِبُ)، وهذا لا يكون إلا بواسطة قوّة هائلة له، " الوصف القرآني بالطارق النجم الثاقب ينطبق على مصادر الإشعاع الراديوي المميّز في السماء الدنيا ومن أهمّها النجوم النيوترونية شديدة التضاغط، والمعروفة

باسم النجوم النابضة أو النبضات أو النباض وهي نجوم ذات كثافة وجاذبية فائقة وحجم صغير¹.

وقبل الخوض في الأدلة العلمية حول النجم الثاقب علينا أن نعرف ماهي النجوم النيوترونية؟ النيوترونات هي مكونات دقيقة داخل الذرة فنحن نعلم أن الذرة وهي أصغر وحدة بناء في الكون تتألف من نواة، فيها جسيمات موجبة وهي البروتونات، وجسيمات أخرى عديمة الشحنة هي النيوترونات، هذه النواة مغلقة بأغلفة الكترونية (طبقات من الإلكترونات تدور حولها) تماماً مثل المجموعة الشمسية حيث تكون الشمس في المركز وتدور الكواكب من حولها.

فالإلكترون: شحنته سالبة وهو موجود في الغلاف الخارجي للذرة. والبروتون: شحنته موجبة وهو موجود في نواة الذرة، وعندما يتحد الإلكترون مع البروتون وينصهر هذين الجسيمين الموجب مع السالب فإن هذه العملية تحرر كمية كبيرة من الطاقة ويتحول هذان الجسيما إلى جسيم واحد هو النيوترون الذي لا شحنة لها، فالإلكترون السالب يتحد مع البروتون الموجب ويندمجان وتختفي الشحنة وينتج جسم لا شحنة له، وهذا مبدأ عمل النجوم النيوترونية.

أما الطارق هو نجم يقوم بالدوران حول نفسه بشكل هائل، فيدور مئات الدورات في الثانية مما يُولد حوله مجالاً كهرومغناطيسياً قوياً جداً، هذا المجال يولد أيضاً صوتاً يشبه صوت المطرقة، لذلك فإن العلماء وجدوا أن أفضل تسمية لهذه النجوم هي المطارق العملاقة، حتى إنهم يطلقون عليها في أبحاثهم هذا الاسم، ولكن لماذا؟ لأنهم وجدوا أن هذه النجوم تصدر أصواتاً تشبه تماماً صوت المطرقة، ولكن هنالك بعض العلماء تساءلوا: كيف يمكن أن يكون الصوت حقيقياً، ونحن نعلم أن الصوت لا ينتشر في الفراغ، فهذه النجوم بعيدة عنا

¹ زغلول النجار، السماء في القرآن الكريم، ص 269

جداً وتفصلنا عنها سنوات ضوئية فكيف يصلنا هذا الصوت مع العلم أن الصوت يحتاج لوسط لكي يسير فيه، لأن الصوت لا ينتشر في الفراغ، إن هذه النجوم تصدر صوتاً حقيقياً، لو أننا اقتربنا منها لسمعنا هذه الأصوات، إنها تصدرها وتنتشر في مجال معين حولها، ولكن بعد ذلك تختفي هذه الأصوات ويبقى منها الأثر الراديوي لها، أي تبقى فقط الموجات الراديوية.

والذي فعله العلماء أنهم جاءوا بهذه التسجيلات وقاموا بردها إلى شكلها الأصلي، تماماً مثل موجات الراديو، فالراديو يستقبل موجات ولا يستقبل أصواتاً، لأن الصوت لا ينتشر آلاف الكيلومترات، ولكن يتم تحويل هذا الصوت إلى موجات راديوية، يستقبلها هذا الجهاز ثم يعيد بناءها ويحولها إلى شكلها الأصلي، فنسمعها أصواتاً، العملية ذاتها تحدث مع النجم الطارق، ولذلك فإن الله تبارك وتعالى.

سمى هذا النجم (الطارق) وهنا أشير إلى أن العلماء يسمونها النجوم النابضة، وهذه التسمية غير دقيقة لأن العلماء ظنوا في بداية الأمر أن هذه النجوم تشبه نبضات القلب، ولكن بعد ذلك تبين لهم أن التسمية الأدق هي تسمية مطرقة أو مطارق، فأسموها المطارق العملاقة، وبالفعل فإن الصوت الذي تصدره هذه النجوم يشبه تماماً صوت المطرقة، أما صفة الثاقب ببسط النابلسي بالقول: "الموضوع معقد جداً، لكن على سبيل التبسيط حينما تكبر النجوم تتكمش، وتزول الفراغات البينية بين ذراتها، إلى أن تصبح بحجم صغير جداً، ووزن ثقيل، فهي كرة القدم، وهذه النجوم النيوترونية المنكمشة يعدل وزنها خمسين ألف بليون من الأطنان، فإذا وضعت هذه الكرة على الأرض ثقتها، ووصلت إلى طرفها الآخر، كما لو أتيت بقطن أو بسائل هلامي، ووضعت فيه كرة حديد فإنها تسقط إلى الأسفل فوراً، وهذا هو النجم الثاقب، النجم النيوتروني الذي ضُغِطَ حتى أصبح بحجم الكرة، وله وزن يعدل وزن الأرض، فلو أن الأرض شاخت بلغت الشيخوخة فإنها تصبح بحجم البيضة، بالوزن نفسه،

ووزن الأرض نفسه، لكنه يصبح بحجم بيضة، هذا هو النجم الثاقب كما يرى بعض العلماء، والقرآن حمّالٌ أَوْجِه¹.

ولهذا فالدلالة اللغوية لاسم الفاعل الطّارق والثّاقب تنطبق على الأبحاث العلمية الحديثة، ويبحث العلماء اليوم التعرف من خلال هذه النجوم على طبيعة المادة في الكون وكيف تشكلت، فهم يظنون أن نواة النجم الطّارق تحوي جسيمات تسمى "كواركات" وهي كتل بناء البروتون والنيوترون.

ويقولون إن دراسة هذه النجوم تساعد على معرفة أصل تشكّل النجوم والمادة في الكون، ومن هنا ربما ندرك لماذا جاء الأمر الإلهي للإنسان أن يبحث عن أصله: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) وكان هذه السورة تربط بين أصل تشكّل المادة والطاقة في الكون من خلال دراسة هذه النجوم، وأصل الإنسان من خلال دراسة النّطفة التي خُلِقَ منها، وهذا الارتباط يؤكد أنّ القرآن مترابط، أي هناك علاقة بين النجم الطّارق وبين خلق الإنسان، فالنجم الطارق (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) هو دليلنا لمعرفة أصل المادة والطاقة، والماء الدافق (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ) هو دليلنا لمعرفة أصل الإنسان.

وأما عن النجوم ومواقعها قال تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾) [الواقية: 75]، الحقيقة أنّ هذه الآية تحمل عدّة معاني أولها أنّ الإنسان لا يرى النجوم أبداً ولكن يرى مواقع النجوم التي مرّت بها ثم غادرت " لأنّ الضّوء كأيّ صورة من صور المادّة والطاقة لا يستطيع أن يتحرّك في صفحة السّماء إلّا في خطوط منحنية "²، والمعنى الثّاني هو أن المسافة بين النجوم بعيدة فأقرب المجرات تبعد بعشرين ألف سنة ضوئية، والضّوء يقطع مسافة ثلاثمائة كيلومتر تقريبا في الثانية الواحدة فما بالك بالدقيقة، والسّاعة، واليوم، والشّهر، والسّنة،

¹ محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، دار المكتبي، دمشق سوريا، ط1، 2005، ج2، ص78.

² زغلول التّجّار، السماء في القرآن الكريم، 196.

وبالتالي نحن لا نرى النجوم بل مواقعها، والمعنى الثالث أن " بعض الدراسات أثبتت أن نجومًا قديمة قد تلاشت ومنذ أزمنة بعيدة ، والضوء الذي ينبثق منها في عدد المواقع التي مرّت بها"¹.

والمعنى الرابع أن هذه النجوم دائمة الحركة حول ذاتها وفي المجرة التي فيها قال تعالى: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾) (يس40)، وبالتالي فالقسم يعني الحركة فالموقع في الآية غير ثابت ولذا كان القسم بصيغة الجمع مواقع، فمثلا " تدور الأرض حول الشمس في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، غير أن نجماً آخر في المجموعة الشمسية يدور حول الشمس في سنتين أو ثلاث أرضية، وبعضها في أقل من سنة، فكل نجم له مواقعه الخاصة، وله مدار طويل أو قصير، وشكل مداره دائري، أو إهليلجي، فكل نجم له موقع في كل ثانية، وأدق ساعات العالم تُضبط على بعض النجوم، قد يجدُ صانعوها أنها تأخرت، أو تقدمت في العام ثانية واحدة، فما الذي يضبطها؟ يضبطها مرور نجم لا يتقدم ولا يتأخر عن مواعده الدقيق.

فهذه المواقع وفق نظام عجيب، ففي كل ثانية يكون للنجم موقع جديد، حتى إن المذنب هالي يقطع مساره في سنة وسبعين عاماً، وقد رآه الناس في عام (1910)، ورأيناه في عام (1986)، وكان قد رُئي قبل الميلاد بألفي عام، لم يتقدم ولم يتأخر، ويكون على بُعد ثلاثة ملايين كيلومتر من الأرض، هذا هو المعنى الثاني لمواقع النجوم"²، والمعنى الأخير أن هذه النجوم تمر بمراحل ميلاد وشباب وشيخوخة كمثل الإنسان " فهي تولد من الدخان الكوني بتكدس هذا الدخان على ذاته بإرادة الخالق سبحانه، فتتكون نجومًا ابتدائية، ثم تتحول هذه النجوم الابتدائية إلى النجوم العادية ، ثم تنتفخ متحوّلة إلى العماليق الحمر،

¹ المرجع نفسه، ص 197

² محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ج2، ص222.

فإذا فقدت العماليق الحمر هالاتها الغازية تحولت إلى ما يعرف باسم السدم الكوكبية، ثم تتكمش على هيئة ما يعرف باسم الأقزام البيض¹.

وهذه العملية تتكرر عدة مرّات ومنه كان لزاما عليها أن تترك أثرا للضوء متفاوت الشدة حسب الحجم وتجاذب الكتلة، وعليه كان المعنى الأول خاص بتصور الإنسان ورؤيته الضعيفة للكون، والمعنى الثاني، زوال هذه النجوم تاركة أثر الضوء، والمعنى الثالث، مسار الضوء وسرعته بالنسبة للزمن الموجود على كوكب الأرض وبذلك تتغير الحركة وتتبدل المواقع بين النجوم، وأخيرا مرحلة حياة النجم والضوء الصادر منه.

ب/ الشمس والقمر: وبعد معرفة أسرار النجوم نحاول التعرف على أسرار القمر والشمس، فهي كذلك من الكواكب، أمّا القمر في حجمه فقد ذكر القزويني "أنّه أصغر الكواكب فلكا، وأسرعها سيرا، وزعموا أنّ جرم القمر جزء من تسعة وثلاثين جزءا وربع الجزء من جرم الشمس، ودورة القمر أربع واثنتان وخمسون ميلا بالتقريب، هذا ما وصل إليه آراء الحكماء بحكم المقدمات الحسابية"²، وهكذا يمكن ان نجزم بأنّ العرب في زمن حضارتهم قد توصّلوا إلى حساب حجم القمر وكذا الحساب الفلكي ونور القمر، إذ يقول: "القمر جرم كثيف مظلم قابل للضياء منه على ما يرى في ظاهره، فالوجه المظلم مواجهها للأرض، وإذا بعد عن الشمس إلى المشرق ومال النصف المظلم من الجانب الذي يلي المغرب إلى الأرض تظهر من النصف المضيء قطعة الهلال"³.

ومن هنا جاءت الترتيب الشهري للقمر وقد كان هذا التقسيم في الجاهلية قبل نزول الإسلام، فالقمر وسيلة لحساب الشهور والأعوام قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ

¹ زغلول النّجّار، السماء في القرآن الكريم، ص200

² القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص19

³ المصدر نفسه، ص20

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ [يونس:5]، يستكمل القمر دورته حول نفسه وحول الأرض تسعة وعشرين يوماً وثمانين ساعات، فالوقت متساوٍ بينهما، " لكن الشيء الذي يلفت النظر أن القمر يقطع في كل يوم من دائرة سيره من فلكه حول الأرض ثلاث عشرة درجة، ويتأخر في شروقه عن اليوم السابق تسعاً وأربعين دقيقة كل يوم، ولولا هذا التأخر لبدا القمر بدياً طوال الحياة، ولكن تأخره تسعاً وأربعين دقيقة عن شروقه السابق كل يوم هو الذي يُرينا القمر في مراتب، من هلال، إلى رُبْع، إلى بَدْر، إلى عُرْجون، إلى غيابٍ كامل¹.

كما أن تأثيره في البحر أمر عجيب، فهو يؤثر بواسطة الرطوبة بينما الشمس بواسطة الحرارة، وإذا أضحى القمر في أفق من أفاق البحر، جاء المدّ مقبلاً مع البحر، حتّى يصير القمر في كبد سماء ذلك الموضع من البحر، فينتهي المدّ، ويأخذ القمر بالعودة إلى المغرب فيكون الجزر حتّى ينتهي بالمغرب، فإذا كان كذلك ابتدأ المدّ مرّة ثانية حتّى يصبح في كبد السماء، فإذا عاد إلى المشرق كان الجزر، وهكذا ، ففي اليوم واللييلة يكون مدّان وجزران، " إن بُعد القمر عن الأرض بحسبان دقيق، فالمدّ والجزر يفعّان بتأثير القمر، ولكن بتأثير محدود، فلو قلّت هذه المسافة لارتفع البحر، ولغطى اليابسة، ثم انحسر عنها، وكانت الحياة على اليابسة مستحيلة، ولو اقترب أكثر من ذلك لجذبته الأرض، وارتطم بها، ولو ابتعد القمر عن الأرض أكثر لانعدم المدّ والجزر، وللمدّ والجزر في البحار وظيفة خطيرة، فلو ابتعد أكثر وأكثر لجذبته كواكب أخرى، ولدارت الأرض حول نفسها في أربع ساعات!! فيصبح النهار ساعتين، والليل ساعتين²، ومنه نفهم قوله تعالى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ [الرحمن:5].

وفي النصّ القرآني تتناغم بين الشمس والقمر، كلّما ذكرت الشمس إلّا وكان القمر، وعن نور القمر، فإنّ العلم الحديث أثبت أن تربة القمر تربة عاكسة للضوء، " فنور القمر ناتج

¹ محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ج2، ص205

² المصدر نفسه، ص219

عن تشتيت ضوء الشمس على سطحه بواسطة القوى التي يبذلها الحقل الكهرومغناطيسي على الشحنات الكهربائية التي تحتويها كل صور المادة، فالحقل الكهرومغناطيسي المتذبذب لضوء الشمس الساقط يحدث قوة دورية ضاغطة على كل شحنة الكترونية مما يجعلها تقوم بحركة متناسقة مع تردد موجات الطيف الأبيض¹.

وبالتالي فالشمس ضوء صادر من جسم مشتعل بينما النور انعكاس ضوء، ويمكن أن نجد لفظ الضياء في قوله تعالى (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٧﴾) [البقرة: 17]، فالضوء في الدلالة اللغوية القرينة هو عملية مرتبطة أساسا بالنار واشتعالها، بينما النور هو عملية انعكاس الضوء، والآية الكريمة هي شاهدة على ذلك، فلما اشتعلت النار سمى ذلك نورا، ولما تعكس ضوء النار على جسم ووجه الإنسان ذكرها بالنور، وفي نفس السياق وصف وميض البرق بالضوء لأنه عملية اشتعال قال تعالى: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾) [البقرة: 20].

إن هذه الدقة في التعبير القرآني واستخدامه المتقن للفظ والسياق، مع ما توصل إليه الإنسان من معرفة علمية دليل على أن هذا الكتاب هو من لدن المنعم سبحانه، وأن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل ولا الزيف، بل هو محفوظ بلفظه ومعناه منذ خمسة عشر قرنا، وعن مسألة انشقاق القمر قال تعالى: (أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾) [القمر: 1-2]، وقد ذكر في الأثر وفي الصحيحين مسلم والبخاري أن حادثة انشقاق القمر كانت بميلاد المصطفى صلى الله عليه وسلم لكن العلم الحديث له رأي في هذا الشأن، فبواسطة الأقمار الصناعية وما استخدمه الإنسان من وسائل

¹ زغلول النجار، السماء في القرآن الكريم، ص 505

عالية الدقة والتصوير، ثبت أن القمر به تشققات غائرة وعميقة تتراوح بين الكيلومتر والنصف منه، وكذلك وجود حفر عميقة تزيد عن ثمانية كيلومتر عمقا " وقد فسّرت هذه الحُفر العميقة باصطدام أجرام سماوية بحجم الكويكبات، بينما الشقوق التي تُعرف باسم شقوق القمر فقد فسّرت على أنها شروخ ناتجة عن الشدّ الجانبي أو المتداخلات النارية على هيئة الجدد القاطعة"¹.

وبعد أن ذكرنا نور القمر ووظيفته، نتطرق إلى الشمس، فقد ذكرت في القرآن وهي أقرب النجوم إلى الأرض وهي إحدى نُجوم مجرة درب التبانة التي تحوي تقريباً نحو 200 مليار نجم ويبلغ قطر الشمس 1,392,684 كيلومتر وهو ما يعادل (109) أضعاف قطر الأرض وكتلتها 2×1030 كيلوغرام وهو ما يعادل (330,0000) ضعف كتلة الأرض، والشمس هي مصدر الطاقة الأساسي حيث توفر الحرارة والضوء للأرض.

وهي عبارة عن كرة ضخمة من الغازات الساخنة مثل كلّ النجوم حيث تنتج كميات هائلة من الطاقة عن طريق تحويل الهيدروجين إلى هيليوم في أعماقها، ونظراً لشدة هذا الشعاع يمكنه إلحاق الضرر بالعيون لذلك لا ينبغي أبداً النظر مباشرة إلى الشمس بالعين المجردة أو بواسطة المقراب (التلسكوب) ما لم تكن مزودة بفلتر شمسي خاص حيث لا توفر النظارات الشمسية الداكنة أي حماية، تقع الشمس في مركز النظام الشمسي وتشكّل حيز 99% من كتلة النظام وتسحب جاذبيتها الضخمة الكواكب والكواكب القزمة والكويكبات والمذنبات والأجسام الأخرى في مدار حولها.

ويبلغ متوسط المسافة بين الشمس والأرض حوالي 150 مليون كيلومتر وينتقل الضوء عبر الفضاء بسرعة حوالي 299,792 كيلومتراً في الثانية لذلك يستغرق شعاع ضوء الشمس حوالي ثماني دقائق فقط للوصول إلى الأرض وأما الضوء المنبعث من النجوم

¹المرجع نفسه، ص 547.

يستغرق وقتاً أطول للوصول إلى الأرض فالضوء القادم من أقرب نجم يستغرق أكثر من أربع سنوات للوصول إلى الأرض، والشمس عبارة عن هيدروجين ويمثل النسبة الأكثر بأكثر من 80٪، بالإضافة إلى الهيليوم ومع بقايا أكسجين، الكربون والنيتروجين، والسيلكون والحديد والمغنيزيوم. "وتقدر درجة حرارة لبّ الشمس بحوالي 15 مليون درجة مطلقة، ودرجة حرارة سطحها حوالي ستة آلاف درجة، بينما تصل درجة حرارة هالة الشمس؛ أي إكليلها إلى مليون درجة مطلقة"¹.

وقد وصفها القرآن الكريم بأنها سراج وهّاج وهذا نظراً لما قلناه عن درجة حرارتها، فهي متوهّجة من السخونة، ودائمة الاشتعال قال تعالى: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴿١٦﴾) [نوح:16]، وتكمن أهمية الشمس في توفير الحرارة اللازمة لكوكب الأرض، فأقصى درجة يمكن أن تصلها حرارة الأرض ستون درجة مئوية، وتكمن أهمية الشمس في أنها المصدر الأساسي للطاقة على كوكب الأرض، فبدونها يبدو كل شيء جامد، ومتوسط بعدها هو من جعلها تكون فائدتها للأرض بشكل متوازن، ولو كانت قريبة لاحتترقت الأرض، ولو كانت بعيدة لأضحى التجمّد في جميع أنحاء الأرض.

فالحياة عليها قد هيأ الله لها كل سبل العيش السليم، ويحتاج النبات إلى ضوء الشمس من أجل بناء عملية التركيب الضوئي، بطرح الأكسجين واستنشاق ثاني أكسيد الكربون وهذا حفاظاً على صفاء الجو لاستمرار العيش فيه، كما تحتاجها جميع الكائنات الحية للاستفادة من الحرارة، فجسم الرضيع مثلاً يحتاج إلى أشعة الشمس من أجل الاستفادة من الفيتامين (دال) الذي يساعد على نمو العظام والنّخاع، كما أشار القرآن الكريم إلى حركة الشمس في قوله (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾) [الأنبياء:33]، وقال أيضاً: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾) [يس:40]، قد ثبت أنها نتيجة للانجذاب باتجاه مركز المجرة تدور في فلك خاص بها

¹ زغلول النجار، السماء في القرآن الكريم، ص202

وحولها وتبعد الشمس عن مركزها مسافة تتراوح ما بين أربع وعشرون ألف إلى ست وعشرين ألف سنة ضوئية، وتقدر سرعتها بحوالي 220 كلم/ث وتستغرق حوالي 250 مليون سنة لتنتهي الدورة الواحدة، وقد أكملت ثمانى عشرة دورة فقط خلال عمرها البالغ 4.6 مليار سنة، وأرضنا التي نعيش عليها ليست إلا كوكباً من كواكب المجموعة الشمسية التي تجري في ركب الشمس وتتناقل معها وفقاً لتقدير الخالق العزيز العليم.

والشمس تحدث بها التفاعلات النووية الاندماجية لغاز الهيدروجين، حيث تساعد درجة حرارة باطن الشمس المرتفعة في اندماج ذرتين من ذرات غاز الهيدروجين فتتحولان إلى ذرة واحدة من غاز الهيليوم تقل كتلتها عن كتلة ذرتي الهيدروجين، ويتحول الفرق في الكتلة إلى طاقة تبعثها الشمس إلينا، وتستمر الشمس في سيرها الدؤوب كغيرها من النجوم وتمرّ بمراحل البداية والوسط والشيخوخة حتى تصبح سديماً، فإنه من المرجح أن تنقلص شمسنا من عملاق أحمر لتصبح قزماً أبيض ثم تنتهي كسديم كوكبي، وبذلك يقول المولى عز وجل: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾) [يس:38].

ومنه كان قوله تعالى عن أحداث يوم القيامة: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾) [التكوير:1]، " ونظراً لارتفاع الضغط في قلب الشمس إلى ما يساوي أربع مائة مليار ضغط جوي فإن عملية الاندماج النووي بين نوى ذرات الأيدروجين تنشط منتجة نوى ذرات الهيليوم وتتطلق الطاقة التي ترفع درجة حرارة قلب الشمس إلى أكثر من 15 مليون درجة مطلقة، وبواسطة عملية الاندماج النووي تفقد الشمس في كل ثانية نحو خمس ملايين من الأطنان (4,6)، من كتلتها على هيئة طاقة مما يؤكد أنّ الشمس تتحرك إلى فناء حتمي¹ وهذا ما نصّت عليه الآية: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

¹ زغلول النجار، السماء في القرآن الكريم، ص 436 و437.

وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢٥﴾ [الرعد:2].

ثانيا: السماء سقف محفوظ:

من القضايا التي انكرها الكفار هي مسألة الخلق، والبعث من جديد بعد الفناء، وبالرغم من أنهم يدركون بأن الذي خلق هذا الكون هو الله، ولكن انعدام إعمالهم للفكر جعلهم لا يسمعون كلام الله ولا يهتدون إليه طريقا يقول سبحانه: (وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ [لقمان:25])، والله سبحانه لم يخلق الكون عبثا وإنما كل شيء كان مدبرا منه سبحانه لنتذكر آياته، جلاله وقدره.

ومن الكون السماوات والأرض، قال سبحانه: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ [الروم:8])، إن هذه الآيات تحاكي العقل، وتبعث فيه روح التفكير، أن الذي خلق هذا الكون بقادر على أن يخلق مثله أو أن يذهبه، والنص القرآني يربط مسألة الخلق بالإبداع فكلمنا ذكر الفعل خلق، إلا وفصل فيه، لإبراز أثر القوة والتنوع، وأن هذا الخلق لا يُنازعه فيه أحد، ولا يُشاركه فيه أحد وما يؤكد ذلك آيات سورة القصص، وآيات سورة الواقعة حينما يُقيم الحجة على من دعى أنه إله، أو ما يعبد به بسذاجته الفكرية قال سبحانه: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلُمٍ إِنْ تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ [القصص:71])، وقال أيضا: (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٧٢﴾ إِنْ أُنزِلْنَاهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٧٣﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٤﴾ [الواقعة:68-70]) إن هذا النوع من الحوار الرباني لدليل وبرهان ومزيج أسلوب الحجاج والرافة واللطف تاركا وراءه أثرا بلاغي راقيا ومراد ذلك هو أن يجعل الإنسان يواصل مسيرته في البحث عن أسرار الله، وعن عظيم قدرته.

أ/ **الحفظ:** وقد ذكر الله السماء مصحوبة بكثير من الأوصاف منها أنها بناء مشيد ومنها أنها محفوظة، وأنها متعددة وهي سبع طرائق، وأنها محبوبة منسوجة، ما تحمل دلالة معرفية بأن هذه السماء بناء محفوظ، وقال تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٥٧﴾) [الذاريات:47]، لو نلاحظ ما جاء بعد حرف الجرّ الباء يفيد التصاق الجملة السببية بالتوكيد، وتشير الآية لمراحل تشكّل الكون الذي مرّ بعملية الرتق ثم الفتح ثم مرحلة الدخان، فمرحلة الإتيان، وهذا الكون منذ لحظة انفجاره أخذ في التوسع وبشكل مستمر، "وبذلك تدرّج الخلق، من المادة (كواركات والالكترونات) ثم نوايا الذرات ثم ذرات الهيدروجين الثقيل والهيليوم، ثم نشأة المجرات، وبعدها نشأ الجيل الأول من النجوم، ثم تكوّن عناصر الجدول الدوري، ثم نشأة الجيل الثاني والثالث من النجوم ثم مولد المجموعة الشمسية، ثم استقرار كوكب الأرض" ¹.

إنّ هذا الاتساع لم يكن صدفة وإنما أوجد الله لها القوى الكامنة التي بفضلها اتّسع الكون هذا الاتساع المذهل والحتمي، فما هي هذه القوى؟، "لم يكن للخطوات السابقة أن تحدث دون ولادة القوى الطبيعية الأربع التي وجّهت عملية الخلق، فبعد حدوث الانفجار الكوني الأعظم والانخفاض المتوالي لدرجة حرارة الكون الوليد ولدت (قوة الجاذبية)، التي حالت دون تبعثر نواتج الانفجار، وعندما هبطت درجة حرارة الكون إلى مستوى سمح بميلاد (القوة النووية الشديدة)، ترابطت الكواركات ببعضها مكونة البروتونات والنيوترونات، كما ربطت تلك القوة هذه الجسيمات لتكوّن نواة ذرات الهيدروجين الثقيل والهيليوم، وعندما هبطت درجة حرارة الكون إلى مستوى سمح بميلاد (القوة الكهرومغناطيسية)، قامت هذه القوة بأسر الإلكترونات حول النويات لتتشكّل الذرات الخفيفة، وولدت معها (القوة النووية الضعيفة)، ثم انشطرت القوتان الأخيرتان مع المزيد من هبوط درجة حرارة الكون" ².

¹ عمرو الشّريف، كيف بدأ الخلق، ص50

² عمرو الشّريف، كيف بدأ الخلق، ص51

ومن هنا ندرك بأنّ القوة التي ذكرها القرآن الكريم هي نتاج (الجاذبية، والنووية الشديدة، والكهرومغناطيسية، والنووية الضعيفة)، وهذه الاكتشافات جاءت تباعا في القرن العشرين، فمُنذ اكتشاف العالم النّمسائي دويلر الموجات الصوتية، التي تتحكم فيها المسافة والسرعة، وطبقها على الموجات الضوئية وآتت نتيجتها، وقام العالم الأمريكي سلايفر بتطبيق ذلك على الضوء القادم إلينا من النّجوم فأدرك أنّ المجرة (مجموعة من النّجوم)، تتحرك بسرعة هائلة بينما ضوءها يصل إلينا من مواقع مختلفة، ثمّ تمكّن إدوين هيل من وضع قانون هيل، واكتشف أنّ المجرات في تباعد مستمرّ وأنّ سرعة هذا التّباعّد عَنّا تتناسب مع المسافة.

وبعد اكتشاف انشتاين نظريته عن النسبية حينما شرح طبيعة الجاذبية، حينها أدرك العلماء الفلكيون أمثال العالم الهولندي وليام دي سيتر، وتوماس جولد وهيرمان بوندي أنّ الكون المدرك في اتّساع مستمرّ وأنّه سينكمش في يومٍ ما منذرا برجوعه كما كان على الحالة الأولى، ومن هنا يمكن أن ندرك خمس نقاط أساسية لهذه الآية: " أوّلا: أن السّماء بناء محكم التّشديد، دقيق مترابط، وليس فراغا كما كان يعتقد، وأنّ المسافات بين أجرام السّماء مليئة بغلالة رقيقة جدّا من الغازات التي يغلب عليها غاز الهيدروجين، وينتشر في الغلاة الغازية بعض الجسيمات المتناهية في الصّغر من المواد الصّلبة، على هيئة هباءات من غبار دقيق الحبيبات، يغلب على تركيبه درات من الكلسيوم، والصوديوم، والبوتاسيوم، والتيتانيوم والحديد، بالإضافة إلى جزيئات من بخار الماء وغيرها، ثانيا: أنّ هذا الكون ضخم محكم صنعه، منضبطة حركاته، دقيق وثابت متماسك.

يحصي العلماء أنّ بهذا الجزء المدرك من السّماء الدّنيا مائتي بليون مجرة على التّقدير، بعضها أكبر كثيرا من مجرتنا (درب التّبانة)، وبعضها أصغر قليلا منها، وتتراوح أعداد النّجوم في المجرات بين المليون، والعشرة ملايين، وتمرّ هذه النجوم بمراحل الميلاد، الطفولة، والشّباب والكهولة، والشّيخوخة ثمّ الوفاة).

وثالثها أنّ الجزء المدرك لنا من هذا الكون شاسع الاتساع بصورة لا يكاد عقل الإنسان إدراكها إذ المسافات تقدّر ببلايين السنين الضوئية والمجرات من حولنا تتراجع متباعدة عنا، وقد أدرك العلماء تلك الحقيقة من ظاهرة انزياح الموجات الطيفية للضوء المجرات الخارجة عنا في اتجاه الطيف الأحمر، ورابعها أنّ هذا التوسّع يشكّل كل من المادة والطاقة لتماماً المساحات الناتجة عن هذا التوسّع والخامس أدّى إثبات توسّع الكون إلى التصور الصحيح بأننا إذا عدنا بهذا التوسّع إلى الوراء مع الزمن، فلا بدّ وأنّ تلتقي كلّ صور الطاقة والمادة كما يلتقي المكان والزمان في نقطة واحدة، وأدّى ذلك إلى الاستنتاج الصحيح بأن الكون قد بدأ من هذه النقطة الواحدة بعملية الانفجار العظيم، وهو ممّا يؤكّد أنّ الكون مخلوق له بداية، وكلّ ما له بداية ستكون له نهاية¹.

السّماء الدّنيا بناء قويّ متماسك آخذ بالتمدّد، وهذا فقط الجزء المدرك منه، وهنا وجب التّصديق بأنّ كلام الله صالح لكلّ زمان مادام الإنسان دائم البحث والتّحرّي عن حقائق هذا الوجود.

ب/ النّسيج: أمّ عن قوله تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾) [الذاريات:7]، بقول صاحب القاموس المحيط، مادة (ح، ب، ك)، الشّد والإحكام، وتحسين أثر الصّنع في الثّوب²، فالعرب تقول عن كلّ من أجاد النّسيج، وجعل الثّوب مشدوداً، بالحبك، ومن خلال الشّرح اللّغوي اتّضح أنّ السّماء ذات صنع محكم، وأنّ لها طرائق وأنسجة متشابكة كالثّوب المطرز، " والحبك: بضمّتين جمع حبّاك ككتاب وكتب ومثال ومثل، أو جمع حبيكة مثل طريقة وطرق، وهي مشتقة من الحبك بفتح فسكون وهو إجادة النّسيج وإتقان الصّنع، فيجوز أن يكون المراد

¹ زغلول النّجّار، السّماء في القرآن الكريم، ص 88، 89

² الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص 846

بحبك السماء نجومها لأنها تُشبه الطرائق الموشاة في الثوب المحبوك المتقن، وروي عن الحسن وسعيد بن جبير وقيل الحبك: طرائق المجرة التي تبدو ليلاً في قبة الجوّ¹.

ومن من ذهب في تفسير الآية الكريمة إلى نسيج السحب المتراكمة، ومنهم من قال طبقات السماء، وذهب آخرون إلى القول بأنها الكواكب والنجوم، ولكن إذا ألقينا نظرنا إلى السماء لا نجد أثراً لهذا الحبك، وهذا النسيج، والسحب قد يتراكم وقد يزول بفعل الرياح، بل نجد أثراً لأضواء النجوم، وفهم ذلك علمياً يندرج في حالات أربع، وهو أنّ العلم الحديث توصل إلى القول: بأنّ الجزء المدرك للنجوم من السماء شاسع وضخم البناء، وأنه مترابط بين أجزائه، متباين في كثافته، ولكلّ منها مدارها الخاص بها بالرغم من عددها الهائل ودورانها.

✓ أما بالنسبة للشّساعة فقد أحصى علماء الفلك أنّ الجزء الذي تمّ إدراكه بالتّقنيات الحديثة من الكون يحتوي على مائتي بليون مجرة، وتحمل هذه المجرات أكثر من سبعين بليون نجم، وكلّها متفاوتة في الحجم والكتلة وسرعة دورانها على محورها، ومدى سرعتها في مدارها، ومسافة التباعد بينها، وكذا مراحل تطورها، والتفاوت الحاصل في شكل تجمّعاتها في مدارها.

هذه الحالة الفريدة في الاختلاف لا بدّ لها من قوّة تحافظ عليه وتناسقه، وهي (القوّة النووية الشديدة والضعيفة، والقوّة الكهرومغناطيسية، بالإضافة إلى قوّة الجاذبية)، ولا بدّ لها من كثافات متباينة في مختلف أجزائها، وإذا انتقلنا من أجرام السماء إلى المادّة كلّ من النجوم والمجرات، والمادّة في السّدم وفي دحّان السماء، وجدنا درجة أخرى من التّباين في كثافة المادّة السّماوية، يجعلها تبدو مجمّعة كتجعد الرمل وغيره من أنواع الفئات الصّخري، إذا مرّت به أمواج المياه المندفعة، أو تيّارات الرياح اللّينة، فتحدث بها من التّكسر والتّفتت ما ينطبق مع المدلول اللغوي للّفظة (الحبك)².

¹ ابن عاشور، التّحرير والتّأويل، ج 27، ص 324

² زغلول النّجار، السماء في القرآن الكريم، ص 321

ونرى هذا النسيج في آية أخرى من آيات عجائب الكون وهي التباعد بين هذه الأجرام، واختلاف مساراتها المتعددة، مما لا يجعلها تتصادم أو تتضارب فيما بينها، مشكلة بذلك نسيجاً شديداً للإحكام، إنَّ هذا الاكتشاف الكوني هو ما جعل العلماء ينظرون إلى كتاب الله المعجز، ومعارف الإنسان لا تقتضي باكتشاف واحد، فربما تأتي أبحاث أخرى تكتشف هذا النسيج بصورة مغايرة، ويبقى كلام الله نحت، لا تصل إليه معارف الإنسان بالتقادم وإنَّما هو شكل من أشكال الكلام الشامل الكامل الفريد الذي وإن أردت أن تسرق معناه زادك عطشا وبحثا.

ثالثاً: السماء طرائق متقنة:

من التوحيد أن تؤمن بالله الواحد، فلا يمكن أن يخلق هذا الكون البديع إله سواه، ولا أن يشترك معه غيره في الملك، ولا يمكن أن يكون هذا الإبداع إلّا من لدنه سبحانه.

أ/ الرجوع: وقبل الخوض في عدد السماوات فقد ورد في كلام الله لفظ الرجوع قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾) (الطّارق 11)، "قول تعالى ذكره: (والسماء ذات الرجوع)؛ ترجع بالغيوم وأرزاق العباد كل عام، ومنه قول المتنخل في صفة سيف:

أبيض كالرجع رسوب إذا ما شاخ في محتفل يختلي

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: (والسماء ذات الرجوع) قال: شمسها وقمرها ونجومها يأتين من هاهنا¹.

وقد ورد الفعل رجع واشتقاقاته في كلام الله مائة وأربع مرّات، وجاءت في تصريف الفعل (رجع، ارجعي، رجعوا، رجعت، ترجع، يرجع يرجعون يتراجعا) ومثال قوله تعالى: (يَأْتِيَتْهَا الْتَفُّسُ الْمُطْمِئِنَّةُ ﴿٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٨﴾) [الفجر: 27-28] ، أو أسماء مشتقة

¹ الطبري، جامع البيان، ج24، ص361

(الرجعى، راجعون، مرجعكم، الرجع، مرجعهم)، ومثال ذلك قوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق:11].

ولو كان بهذا المفهوم لكان القول (والسَّمَاء ذات المطر، أو ذات القمر والشمس)، ولكن لم يقتصر هذا المفهوم على هذا النسق، بل له أبعاد أخرى، وقد ذكر أهل العلم أنّ الرجوع يتمثل في أنّ كلّ شيء له رجوع إلى أصله، فالماء الذي نشره ينزل من السماء على شكل قطرات فيمكث في الأرض ما شاء الله له ذلك في أعماقها أو وديانها أو بركها، ومع عامل الحرارة تتشكّل سحابات البخار، المنبعث من تبخّر الماء، ثمّ بفعل الرياح تصعد إلى طبقات الجوّ وبفعل الرطوبة والبرودة الموجودة تتشكل سحب ركامية فتعود قطرات المطر من جديد. كذلك الحال بالنسبة لعنصر آخر من عناصر الحياة، وهو الهواء أو الأكسجين، الذي يستنشقه الكائن الحي ومنه الإنسان، فهو يطرح من طرف النبات الأخضر بعملية التركيب الضوئي بفعل الحرارة والضوء المنبعث من الشمس نهاراً، والمعنى المستتبط من هذا أنّ السَّمَاء وما فيها مرتدّ إلى أصله، ويمرّ بمراحل حتى يعود إلى ما كان عليه.

ومن مقاصد الآية معرفياً مقصدين أولهما: هو الغلاف الغازي " وقد أكدت لنا الدراسات أنّ كثيراً مما يرتفع من الأرض إليه من مختلف صور المادّة و الطّاقة (من مثل هباءات الغبار المتناهية الدقة في الصغر، بخار الماء كثير من غازات أو وثاني أكسيد الكربون، أكاسيد النيتروجين، النوشادر، والميثان وغيرها، الموجات الحرارية، كالأشعة تحت الحمراء، والراديوية كموجات البثّ الإذاعي، والصّوتية، والضّوئية، والمغناطيسية، وغيرها) كلّ ذلك يرتدّ ثانية إلى الأرض راجعا إليها"¹، فأرضنا محمية من كلّ التأثيرات الخارجيّة بواسطة عدد من نطاق الحماية المختلفة، والنّطاق الغازي للغلاف سمكه آلاف الكيلومترات هو طبقات الغازات المحيطة بكوكب أو جرم من الأجرام السّماوية، ويتكون الغلاف الجوّي

¹ زغلول النّجار، السماء في القرآن الكريم، ص298

للأرض من حوالي 78% نيتروجين و 21% أكسجين وواحد في المئة غازات أخرى ويكمن دوره في تلطيف درجات الحرارة والبرودة الشديدة على الأرض فأتناء النهار حيث تخرق حرارة الشمس الهواء وتدفع الأرض يحبس الغلاف الجوي هذه الحرارة داخله لتتسرب ببطء إلى الفضاء مما يجعل درجات الحرارة في الليل معتدلة بغياب الشمس.

ويحمي الغلاف الجوي أيضاً الأرض من جزيئات النيازك والأشعة الكونية والإشعاعات الصادرة عن الشمس والنجوم والغبار الجوي والمخاطر الأخرى ويعدّ خزاناً ضخماً للحرارة والرطوبة وثاني أكسيد الكربون إذ يُزود الغلاف الجوي أسطح المحيطات والبحار بطاقة حركية تنتج عنها تيارات المحيطات والمقصود الثاني: " أن كل أجرام السماء قد خلقها الله تعالى من الدخان الكوني (دخان السماء)، الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم التي يسميها القرآن الكريم بعملية الفتح والرتق، ويتكون الغلاف الجوي للأرض من حوالي 78% نيتروجين و 2% أكسجين وواحد في المئة غازات أخرى، وأن كل أجرام السماء الدنيا تمر في حياة تنتهي بالعودة إلى دخان السماء عن طريق الانفجار أو الإثثار، لتتخلق من هذا الدخان السماوي أجرام جديدة تعيد الكرة في دورات مستمرة من تبادل المادة والطاقة"¹.

وإذا اعتبرنا بأن السماء الدنيا ذات رجح، يمكن أن نحصي المشاهد التالية لمسألة الرجح:

1. الرجح الاهتزازي للهواء وهي: أن الغلاف الغازي للأرض يحتوي على حجم عالي من النيتروجين وحجم أقل من الأكسجين وبعضاً من بخار الماء، وثاني أكسيد الكربون والأوزون وقليلاً من الغبار الكوني، والكبريت والهيليوم، وهذا التركيب الكيميائي يساعد على إرجاع الاهتزازات والارتدادات الصوتية المساعدة على السمع.

¹ زغلول النجار، السماء في القرآن الكريم، ص 299

2. **والرجع الثاني:** رجوع المياه؛ فدورة المياه في الطبيعة من بين أهم أسبابه هو الغلاف الغازي، إذا اعتبرنا أن ثلاث أرباع الأرض هو من المياه، فيتبخر سنوياً نصف مليون متر مكعب من المياه الموجودة في البحار أو الأنهار والبرك المائية أو تبخر الماء الموجود في اليابسة، وبفعل عامل الرياح يُدفع هذا البخار إلى الغلاف الجوي فتأتي الكثافة من التركيب الكيميائي لطبقات الجو فينزل مطراً أو ثلجاً، وبذلك تكون الفصول الأربعة، والبرودة والحرارة، هذا الاتقان في الصُّنع جعل الحياة على الأرض مستمرة.

3. **والوجه الثالث من الرجع:** هو الرجوع الحراري للأرض؛ فالشمس تطلق كميات هائلة من الطاقة، فيعمل الغلاف الجوي بامتصاص تلك الطاقة الهائلة مخلفة وقاية للأرض من فرط الطاقة والحرارة، وترجعه إلى فضاء الكون، وتشتت تلك الإشعاعات في كل اتجاهات الأرض، فتمتص الأرض نصف أشعة الشمس فتكون في الصخور والتربة، والغلاف الغازي للأرض يمتص النصف الآخر، وأثناء وجود السحب الكثيفة شتاءً، تكون الصخور قد امتصت تلك الطاقة، فترجعها إلى الجو أيضاً لتخلق التوازن الحراري.

4. **والوجه الرابع:** هو رجوع الغازات والغبار المرتفع من سطح الأرض، فعند ثوران البركان، أو الأعاصير والزوابع الرملية الكثيفة، يتشكل بخار وغبار، ولا يرجع دفعة واحدة إلى الأرض بفعل الجاذبية، وإنما تقوم المنخفضات الجوية المنتشرة في الغلاف الغازي للكون من جمعها وإعادة انتشارها ببطيء وأيضاً بانتشار أوسع.

5. **والرجوع الخامس:** هو الرجوع الخارجي للأشعة فوق البنفسجية بفضل طبقة تُدعى طبقة الأوزون طبقة الأوزون هي جزء من الغلاف الجوي لكوكب الأرض والتي تحتوي على غاز الأوزون بشكل مكثف، وتكون طبقة الأوزون متمركزة بشكل كبير في الجزء السفلي من طبقة الستراتوسفير من الغلاف الجوي للأرض وهي ذات لون أزرق.

الأوزون هو شكل من أشكال الأكسجين حيث يتحوّل جزء من غاز الأوكسجين إلى غاز الأوزون بفعل الأشعة فوق البنفسجية القوية التي تصدرها الشمس وتؤثر في هذا الجزء من الغلاف الجوي نظراً لعدم وجود طبقات سميكة من الهواء فوقه لوقايتها، ويحتوي الأوزون على ثلاث ذرات من الأكسجين والصيغة الكيميائية لجزيئه هو O₃ بينما جزيء الشكل الشائع للأكسجين فصيغته O₂، فهي تحمي الأرض من أخطار تلك الأشعة المهلكة وتردّ جزءاً كبيراً منها إلى خارج ذلك النطاق.

ب/ الأطباق: ورد لفظ السماء في كلام الله بصيغة المفرد مائة وعشرين مرّة وورد بصيغة الجمع (سماوات) مائة وتسعين مرّة وقال تعالى: (وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٣﴾) [النبا:12]، وهي كناية عن موصوف وتعني السموات السبع ووصفها القرآن بالشّداد نسبة إلى الشدّة وتعني القوة وقد شرحنا معنى القوة في ذكر التأييد، "إذ كانت وثاقاً مُحكمة الخلق، لا صدوع فيهن ولا فطور، ولا يُبليهن مرُّ الليالي والأَيّام " ¹.

وقد وصف القرآن الكريم السماوات بالطباق والطرائق، فقد قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٢﴾) [الملك:3]، وقال أيضاً: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾) [نوح:15-16]، وعن الطرائق قال: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾) [المؤمنون:17-17].

ومن اختصاص القرآن الكريم اعتماده على لغة الأرقام لما فيه من الأسرار ولم يصل المفسّرون إلى شرح وتأويل الرقم في القرآن الكريم ودلالاته المعنوية وحتى المعرفية، ولكن من اللافت والمبهر في لغة الخطاب القرآني؛ أنّه كلّما ذكر أمراً بالدعوة إلى التأمّل في وصفها وزينتها أو في سياقه ذكر لفظ (السماء مفردة)، (وكّلما كان حديثاً عن السموات

¹ الطبري، أحكام القرآن، ج24، ص153

(السبع) ذكر الفعل خلق، ويرجع زغلول النّجّار ذلك إلى قصر نظر الإنسان وعلمه وحتى عمره فإنه في الجزء المدرك من سمائنا " وهنا يقف العلم البشري وهو - في قمة من قممه - عاجزاً عن إدراك حدود السّماء الدّنيا، فضلاً عمّا فوقها، وعاجزاً كلّ العجز عن إثبات أو نفي وجود سموات فوق السّماء الدّنيا، لفُصور قدراته، وقصور عمره كذلك¹.

أمّ الشيخ النّابلسي فيري بأنّ السّموات لا علم لنا بها لقلة العلم اليوم باستتباط أحكامها العلميّة، ولأنّ الكون في اتّساع مستمرّ، أمّا الطّبقات فلها رؤية علميّة، الطبقة الأولى هي طبقة الهواء السفلى، التي تعيش فيها الأحياء، من طيور وكائنات، وما شاكل ذلك، وهذه الطبقة أيضاً مؤلفة من عدّة طبقات، وهي متقلّبة من حالٍ إلى حالٍ، ومتحوّلة من مكانٍ إلى مكانٍ، من حالة الحرّ، إلى حالة البرد، إلى حالة الغيوم، إلى حالة الأمطار، إلى حالة العواصف، إلى حالة الزّرع، تنتقل فيها هذه المنخفضات، وهذه المرتفعات من مكانٍ إلى مكانٍ، وانتقالها أساس التنبؤات الجوية، فهذه الطبقة السفلى لا يزيد ارتفاعها أول الأمر على ستة عشر كيلو متراً.

والطبقة الثانية، هي طبقة فيها جزيئات غازية كبريتيّة، هذه الجزيئات الغازية الكبريتيّة، تلقح السحاب، وتسهّل عملية الأمطار، ولولا هذه الطبقة الكبريتيّة لما هطّلت الأمطار، ولما كانت الحياة على سطح الأرض، وفي هذه الثانية أيضاً طبقة الأوزون، وهي غلاف من الأكسجين الثلاثي، الذي يمتصّ الأشعة فوق البنفسجية القاتلة، لأنّ هناك في الشمس أشعة فوق البنفسجية، تمتصّها طبقة الأوزون، ولا تسمح طبقة الأوزون بمرور هذه الأشعة القاتلة إلا بجزء يسير يقتل الجراثيم الضارة في الكائنات الحية، فالتعرّض للشمس مفيد ومطهر.

ولكن قد أصاب طبقة الأوزون بعض الخلل من كثرة رحلات الفضاء، والأقمار الصناعية، وبعض الصناعات الغازية، وبدأ سرطان الجلد ينتشر بأعداد وبائية كبيرة في بعض الدول

¹ زغلول النّجّار، السّماء في القرآن الكريم، ص 148

المتقدمة، حيث إنّ طبقة الأوزون في تلك الأماكن قد أصابها بعض الخلل، وأمّا الطبقة الثالثة فهي تشبه قرناً ذرياً شديداً للهب، ولولا هذه الطبقة لكانت الأحجار الكونية، والكويكبات المتساقطة قد دمّرت كل شيء على الأرض، ولكن هذه الطبقة تصهر كل شيء؛ من نيازك، من معادن، من كويكبات، من أحجار، تصل إلى الأرض بفعل الجاذبية، إنها تحترق في هذه المنطقة على الأرض، وتتسهب، وتصبح رماداً، لا يرى إلا بالمجاهر.

والطبقة الرابعة من طبقات الغلاف الجوي هي طبقة "الأيونوسفير"، أي الطبقة المتأينة بأرجائها الغامضة، وبارتفاع قدره ثمانون كيلو متراً فوق طبقة "الأيونوسفير"، وتتعرض الطبقة المتأينة لإشعاعات الشمس، ولا سيما فوق البنفسجية التي تعمل على تحطيم ذرات غاز الأوكسجين والنيتروجين بها، فتفقدّها إحدى إلكتروناتها فتصبح متأينة، أي مشحونة كهربياً، وتدعى هذه الذرات عند ذلك بالأيونات المشحونة، حيث تقوم مقام الملايين من المرئي في الجو، فتعكس الموجات اللاسلكية عن الأرض، وترسلها حولها، وهذه هي الطريقة التي تستعمل في إرسال الرسائل اللاسلكية من قارة إلى أخرى، وحول العالم في جميع الاتجاهات.

وأما الطبقة الخامسة فهي تمتد من ألف كيلو متر، إلى خمسة وستين ألف كيلو متر، يقلّ الهواء تدريجياً في هذه الطبقة، إلى أن ينعدم، فطبقة الهواء المحيطة بالأرض يزيد سمكها على خمسة وستين ألف كيلو متر نحو الأعلى، أمّا الشيء المعجز فهو أنّ الله سبحانه وتعالى يقول: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾) [الأنبياء: 32]؛ أي: به نحفظ الأرض، وقال بعض العلماء الأجانب بالحرف الواحد: إنّ الجو الأرضي حاجز حقيقي، هو حقاً قليل الكثافة، ولكنه سميك جداً، فهو يوقف الأشعة، ويحرق الشهب،

إنه يحمي حياتنا الدنيوية، ويحافظ عليها، لأنه لا يسمح إلا لكل ما هو نافع لنا بالوصول إلى سطح الأرض¹.

وهذا مصداق قول الله تعالى: (جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) لا يَسْمَحُ جَوُّ الْهَوَاءِ لِلنِّيَازِكِ، وَلَا لِلشُّهُبِ، وَلَا لِلْمَعَادِنِ، وَلَا لِلْأَحْجَارِ، وَلَا لِلْكُوكِبَاتِ، وَلَا لِلْأَشْعَةِ الْقَاتِلَةِ، وَلَا لِكُلِّ مَا يُوْذِي الْأَرْضَ بِالْإِخْتِرَاقِ، فَالْهَوَاءُ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَمْنَعَهُ، فَالْأَوْزُونُ يَمْنَعُ الْأَشْعَةَ الْقَاتِلَةَ، وَيَمْتَصُّهَا، وَالطَّبَقَةُ الرَّابِعَةُ الْحَارَّةُ تَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ، أَمَّا الطَّبَقَةُ السَّادِسَةُ فَلَا زَالَ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ لَمْ يَتَيَقَّنْ مِنْ أَهْلِيَّتِهِمَا الْعِلْمِيَّةِ، فَرَبَّمَا نَرَى اكْتِشَافَاتٍ أُخْرَى جَدِيدَةً قَدْ تَبَهَّرْنَا بِمُسْتَجِدَّاتِهَا الْعِلْمِيَّةِ.

¹ محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ج2، ص4

المبحث الثالث: الأنساق المعرفية لآية الأرض:

يتساءل الناس عن أسرار الأرض دون انقطاع منذ أن لجأ الإنسان إلى المعرفة، لفهم طبيعة الوجود، واستمرّ بحثه في الأرض حتى اكتشف جميع عوالمه، وأتربته ومناخه وكلّ ما فيه، وأدرك أنّ حياتنا فيها متناسقة مع طبيعتنا وفطرتنا البشريّة.

أولاً: الأرض كوكب ذكيّ:

يتساءلُ النَّاسُ عن سرِّ بقاء الإنسان فوق هذه الأرض بالرَّغم من فساده، ولازالت طبيعة الأشياء نفسها، وكيف يمكن لهذا الكوكب أن يكون بهذا الإتقان.

أ/الأرض ومعرفة الأولين: هي الفضاء والمساحة التي اختارها الله من بين جميع الكواكب للاستقرار فيها من دون كلّ الكواكب، وهذا في حدّ ذاته تساؤل حير العلماء قديماً وحديثاً، وحاول كلّ واحدٍ منهم تفسير علّة ذلك، ومنه العلم الحديث الذي بيّن دلالة ذلك، وقد وردت كلمة الأرض في دلالات متعدّدة حولنا جمعها في جملة الأنساق الثقافية.

لكن المراد من النسق المعرفي أبعاد المكان ودلالته المعرفية انطلاقاً ممّا توصّلت إليه معارف الإنسان من تفسيرات لذلك، فهناك آيات لجم المفسّرون عن إعطاء دلالتها إلّا بعد اكتشاف بعض الظواهر التي كان يجهلها، مثل دُخُو الأرض، وتصدّعها، وآيات الأرض من اختلاف تضاريسها كالجبال والبحار وعجائبهما، وكيف تمرّ الجبال مرّ السحاب؟ وما إلى ذلك من الآيات المبهرة.

والأرض هي كوكب من الكواكب التسعة للمجموعة الشمسيّة، أمّا عن كروية الشّمس والأرض نرى جدلاً واسعاً حول سطحيّة الأرض أو كرويّتها لكن جلّ ما ذهب إليه أهل العلم قديماً في تأويل الآية القائلة: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾) [

الزمر:5]، " قال الضحّاك: أي؛ يلقي هذا على هذا وهذا على هذا، وهذا على معنى التكوير في اللغة، وهو طرح الشيء بعضه على بعض، يقال كور المتاع أي: ألقى بعضه على بعض، ومنه كور العمامة، وقد روي عن ابن عباس هذا في معنى الآية، قال : ما نقص من الليل دخل في النهار، وما نقص من النهار دخل في الليل"¹.

ومن هنا كان التنبؤ عند المفسرين بكروية الشمس والقمر والأرض، من خلال الدلالة اللغوية للكلمة، وشاع قديما عند الحضارات القديمة خاصة سكان أوربا الشرقية مزاعم تدّعي أنّ الأرض مسطّحة، ونجد عند الحضارة الإغريقية فيثاغورس الذي تنبّه إلى الخسوف، واقترح وقبل أربعة قرون قبل الميلاد بكروية الأرض، وتعدّ هذه اللفتة منه دلائل على كروية الأرض، فقد انتبه إلى أنّ الظلّ الذي تلقيه الأرض على القمر أثناء ظاهرة الخسوف يكون مستديراً دائماً، وبغض النظر عن الجزء المواجه للقمر من الكوكب، فالخسوف يحدث في كل مكان بالعالم.

وأول من قام بقياس محيط الأرض باستخدام طريقة تتضمن زاوية الشمس في مواقع مختلفة هو: إراتوستينيس (276ق.م)، وشدّه مشهد أعمدة المعابد المصرية القديمة في أسوان في زمن الظهيرة وفي يوم الواحد والعشرين من شهر جوان لا تترك أثراً للظلّ، بينما الأعمدة الموجودة في الإسكندرية يوجد بها ظلّ بحجم تلك الأعمدة وفي نفس التوقيت، فجاءت فكرة بأن يقيس المسافة بين المدينتين ويضربه في مسافة الظلّ فتحصل على مجموع 39348 كيلومتراً، واستنتج محيط الأرض.

وعند المسلمين انتقلت هذه المعلومات عن طري الترجمة، في زمن المأمون قام الفلكيون العرب باستخلاص نتيجة مفادها أن موضع النجوم في السماء تتأثر مواقعها بحسب موضعك من الأرض، فمثلاً كلما اتجهت جنوباً انخفض النجم القطبي حتى يختفي تماماً،

¹ القرطبي، أحكام القرآن، ج15، ص210

وكَلَّمَا اتجهت شمالا زادت مسافته حتى كأنه فوق رأسك، وبذلك كانت الأرض كروية ولو كانت غير ذلك لكان أثر النجم واحداً، ولما تعاقب الليل والنهار، ولما اختلف ميقات كل واحدٍ منهما.

أما عن تعاقبها فيمكن القول أن الأرض هي ثلاث كوكب قريب من الشمس، والأرض تدور حول نفسها كغيرها من الكواكب فكل في فلك يسبحون، وتقطع دورتها حول الشمس بثلاث مائة وخمس وستين يوماً وربع اليوم، وبسرعة ثلاثين كيلومتر في الثانية، وتعمل الأرض بنظام عجيب مرتّب في كل شيء وبتقدير من العليّ القدير قال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾) (الذريات 20).

وعند النظر إلى الحضارات القديمة الفارسية والفرعونية والبابلية والإغريقية تُفِيدُ بأن الأرض هي الوجود البشري، والإنسان محور الحياة فيها، " ويجسد النظام البطليموسي الذي وضعه الفلكي والرياضي بطليموس (165م)، هذا التّصوّر لبنية الكون، فجعل كوكب الأرض في مركز الكون بينما تدور الشمس وباقي الأجرام حولها"¹، وقد ساد هذا المفهوم قروناً من الزمن إلى أن الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى رفضت هذا الادعاء بل آمنت بمركزية الأرض.

ومن العلماء المسلمين الذين انكبوا على علم الفلك البيروني الذي يرى بأن الأرض كروية، وتدور حول محورها، وهي مركز الوجود، بينما الشمس تدور حول الأرض مشكّلة تعاقب الليل والنهار إذ يقول: " إن اليوم بليته هو عودة الشمس بدوران الكلّ إلى دائرة كانت إذا وقع عليها الاصطلاح وكانت عظيمة لأن كل واحدة من العظام أفق بالقوة (أعني بالقوة أنه يمكن فيها أن يكون أفقا لمسكن ما)، وبدوران الكل حركة الفلك بما فيه المرئية من المشرق

¹ عمرو الشريف، كيف بدأ الخلق، ص 61

إلى المغرب على قطبيه"¹، فالعلم الإسلامي كان من السّباقين إلى تحديد الأرض ودورانها على محوره كغيرها من الأفلاك.

وقد اكتشف قياس محيط الأرض بطريقة أخرى خلاف الطريقة القديمة التي توصّل إليها العالم السكندري إيراتوثينس في القرن الثاني قبل الميلاد، وبعد القياسات الحديثة تبين أنّ البيروني كان الأقرب لذلك.

"وقد توصّل الرياضي والفلكي البولندي كوبرنيكوس (1543) إلى أنّه يمكن تفسير حركة الكواكب وكذلك يمكن وضع المعدّلات المتناسقة التي تحدد مداراتها بشكل أيسر كثيراً لو وضعنا الشّمس في مركز الكون بدلاً من الأرض واعتبرنا أنّ الأرض وباقي الأجرام السّماوية تدور حولها، ويُعرف هذا المنظور بمبدأ كوبرنيكوس"²، ثمّ ظهرت اكتشافات حديثة بيّنت أنّ الشّمس ليست مركزاً لمجرتنا ولا للكون، وأنّ لا مركز للكون أصلاً، ثمّ ساد اعتقاد عند الملاحدة أنّ الكون أزلي، ثمّ جاءت الداروينية بعبئيتها لتطرح أصل الخلق، ونسبت خلق الإنسان للقردة، وبذلك طمست كلّ الديانات السّابقة التي قدّست الإنسان، وجعلت من الأرض كوكباً عبثياً.

وجاءت الخرافات عزمًا فارغًا تحاول تقزيم الإنسان كالعالم الفلكي الأمريكي 1996 كارل ساجان الذي عمل مستشاراً لوكالة الأبحاث الفضائية الأمريكية (NASA)، وكان له برنامج تلفزيوني الكون، الذي يرى بأنّ هناك حضارات تعدّ بالملايين في مجرتنا بل توجد في الكون حضارات سابقة لنا، وهناك من بالغ في تحطيم الإنسان والتقليل من شأنه بأنّ هناك ثلاث عوامل إذا توفّرت في أيّ كوكب كانت الحياة وهي مصدر الطّاقة، مواد عضوية كربونية، الماء، وهكذا نمى اعتقاد سائد عند الفلسفة الغربية بأنّ الإنسان هو اللاوجود أو ضياع تامّ.

¹ محمد بن أحمد أبو ریحان البيروني، الآثار الباقية من القرون الخالية، مكتبة الثقافة الدّينية، القاهرة، مصر، 2003،

ط1، ص6

² عمرو شريف، كيف بدأ الخلق، ص62

لكنّ الدّراسات الحديثة أثبتت أنّ كوكب الأرض فريد في صنعه، مجهّز لخلافة الإنسان فيه، وعلاقة الإنسان بكوكبه علاقة تماهي وتمازج، ففي وجهة نظر أربعة من كبار علماء الكونيّات المعاصرين نجد **جونأوكيف** الأب الروحي لأبحاث الفضاء : (هناك كوكب واحد في الكون يمكن أن يحتوي على الحياة الذّكيّة، لعلمكم تعرفون هذا الكوكب)، **وبيتر ورد** و **دنالذ براونلي** الأستاذان بجامعة واشنطن (إنّه كوكب فريد ، الكوكب الوحيد في هذه المجرة، ربّما في الكون كلّ، الذي تعمّره الحياة)، و **دون جونسون** مدير مركز دراسات أصل الإنسان بجامعة أريزونا (ليس هناك موزار آخر ولا بينتهوفن آخر)¹ (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾) [البقرة: 29]، أي جعل الأرض مهيّأة لاستقبال الإنسان وجعله خليفة فيها.

لو كان هناك مخلوقات غيره في غير كوكبنا لأخبرنا الله بذلك ولكن القرآن الكريم يأتي بمنهج الاستبدال قال تعالى: (هَآأَنْتُمْ هَآؤِلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾) [محمد: 38]، وفي تأويل هذه الآية ذهب المفسّرون إلى غايات شتى منهم من قال بأنّهم قوم فارس، " وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط والبيهقي في "الدلائل" عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم فقالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناولوه رجال من فارس"².

¹ عمرو الشّريف، كيف بدأ الخلق، ص64

² جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، ج13، ص454

ومن قال قومٌ يحسنون ويؤمنون، ومن من قال خلقٌ آخر غير بني آدم، ففتبين أنّ الإنسان قد كرمه الله على هذه الأرض، وجعلها منه وإليه، ومن دلائل هذه العلاقة الربانية بين الإنسان والأرض أنّها كانت المخلوق الأوّل فقد ذهب كثيرٌ من أهل العلم والتأويل إلى أنّ الأرض أوّل الموجودات من الكون وكانت قبل السماء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ١٠ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٢) [فصلت: 9-12] فوضوح الدلالة خلق جميع عناصره اللازمة لبناء الأرض قبل تمايز السماء الدّخانية إلى السماوات السّبع، وذلك لأنّه من الثّابت علمياً، والزّاجح منطقياً أنّ خلق العناصر سابق على خلق الأرض وخلق جميع أجرام السماء، وأنّ خلق الوحدات الكونية الكبرى كالسّدم والمجرات سابق على ما يتخلّق بداخلها من نجوم وتوابع تلك النّجوم، من الكواكب والكويكبات، والأقمار.

وأما آيات سورة فصلت فتشير إلى أنّ خلق الأرض الابتدائية كان سابقاً على تمايز السماء الدّخانية الأولى على سبع سماوات، وأنّ دحو الأرض الابتدائية بمعنى تكوّن أغلفتها الغازية والمائية والصّخرية جاء بعد ذلك¹ وما يدعم هذا الخلاصة ما جاء في سورة النّازعات قال تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ٢٧ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ٢٩ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ٣١ وَالْجِبَالُ أُرْسِنَاهَا ٣٢﴾ [النازعات: 27-32].

¹ زغلول النّجار، السماء في القرآن الكريم، ص132 و ص133

ب/ الأرض الفضاء المثالي: قبل أن يخلق الله الإنسان هيأ له كل سبل الحياة من جانب تشكيلة خلق الإنسان وما حوله من كائنات حية كالنبات والحيوان، وجعل الهواء الموجود في الأرض مثاليًا للعيش والاستمرار، ولعل أول ما يلفت انتباهه هو درجة حرارة الأرض ونسبة رطبها وشعاع الضوء، فالشمس التي تقع في مجرة الأرض كنجم له خصوصيات جعلت منه العنصر الأكثر أهمية للأرض، فهو نجم متوسط الحجم، وإذا قمنا بمقارنة هذا النجم مع النجوم الأخرى الأصغر التي تُعرف بالقزم الأحمر غير صالحة للحياة فما بالك بالأكبر وهذا لعدة أسباب منها:

- تنتج هذه النجوم ضوءًا يحتوي على قدر أكبر من الأشعة الحمراء، وذلك على حساب الأشعة الزرقاء المطلوبة للتمثيل الغذائي للنباتات.
- تنتج أيضًا قدرًا ضئيلًا من الأشعة فوق البنفسجية الضرورية لتحليل جزيئات الماء وإطلاق الأكسجين لتصل نسبته إلى الحد المطلوب للحياة (21%) من غازات الهواء الجوي.
- إذا وُجد الماء على سطح أحد كواكب القزم الأحمر لابد أن يدور الكوكب قريبًا من النجم حتى يظل الماء على الحالة السائلة اللازمة لنشأة الحياة.
- في المقابل، فإن النجوم الأكبر تنتج قدرًا أكبر من الأشعة الكونية التي يمكن أن تدمر الحياة الموجودة على كواكبها¹.

ومن عجائب الشمس عندما حدّد العلماء كُرْوِيَّة الأرض، أنّ العالم يسلك مذهب التّدرّج في الحياة ومبدأ الاختلاف، بمعنى أنّ الله تعالى جعل بداية النّهار فجرًا ثمّ إذا طلعت الشمس كان صباحًا، ثمّ تزداد حرارتها شيئًا فشيئًا حتى تكون الظّهيرة، فإذا بلغت أن تأفل تأخذ في الاعتصار وسُمّي ذلك عصرًا، قال تعالى: (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٦٧﴾) [الفرقان: 46-47]، " وقد

¹ عمرو الشريف، كيف بدأ الخلق، ص 68

جعل مدّ الظلّ وقبضه تمثيلاً لحكمة التدرّج في التكوينات الإلهية والعدول بها عن الطفرة في الإيجاد ليكون هذا التمثيل بمنزلة كبرى القياس للتدليل على أن تنزيل القرآن منجماً جار على حكمة التدرّج ؛ لأنّه أمكن في حصول المقصود¹.

فالأرض لكرويتها نحد بأنّ حال الليل والنهار بمثابة شقين مختلفين أحدها ظلّ والآخر نور، ودليلها دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس فيُصنع هذا التماثل فسبحان الله أحسن الخالقين، إذا كان هذا حديثاً عن الشمس فقد جعل القمر تابعاً لها يمتاز بالإخلاص، قال تعالى: (وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾) [يس: 39-40] .

يقدم القمر الذي يبعد عن الأرض 384 400 كيلومتر، خدمتين لهما غاية الأهمية، أمّا أولها فهو يحافظ على خاصية المدّ والجزر كما بيّناه في ذكر القمر، لكن تأثيره على كوكب الأرض؛ فهو يُحافظ على دوران المياه الموجود في البحار وغيرها، ويساهم في الحفاظ على درجات الحرارة في مناطق الأرض المختلفة سخونة وبرودة، ولهذا الدور أهمية في اختلاف المناخ، فمناخ البحر الأبيض المتوسط يختلف عن المناخ المدار في المحيط الأطلسي، كما يساهم هذا المدّ والجزر، في توفير مكّونات غذائية، للحيوانات المائية.

واكتشف أهل العلم، أنّ القمر له دور في المحافظة على توازن الأرض، فالقطب الشمالي من أو السنة إلى غاية الشهر السادس منه يكون قريباً من الشمس، والعكس يحدث في النصف الآخر من السنة بالنسبة للقطب الجنوبي، وبذلك تكون الفصول الأربعة، ولو كان القمر أكبر حجماً وأكثر قرباً، لكن المدّ والجزر للبحار قد غطى اليابسة، كما أنّ عملية الزمن يكون في تباطؤ مستمرّ فيمكن لعمر الإنسان أن يكون أقلّ بكثير ممّا هو عليه.

¹ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص39

ولذا قال تعالى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ [الرحمن:5])، فالقمر والشَّمْسُ تابعان مخلصان بالحجم والمسافة المقدرة لهما دون إغفال تركيبتهما الكيميائية، ولو لم يكن هناك قمر للأرض لكنا مثل عطارد، درجة الحرارة تكون عالية بمقدار يفوق احتمالية وجود حياة عليه، وموقع الأرض هي المنطقة الصالحة لإقامة الحياة في مجموعتنا الشمسية،" فهي المنطقة التي تحافظ درجة حرارتها على ماء الكوكب في حالته الثلاث (الغازية والسائلة والمائية والصلبة)، وتقع الأرض في الحافة الداخلية لهذه المنطقة، مما يُحقّق التوازن الدقيق المطلوب للحياة الحيوانية بين نسبة الأكسجين ونسبة ثاني أكسيد الكربون في الهواء، لذلك فإنّ تغييراً في بعد الأرض عن الشَّمْسِ بمقدار 2% فقط فما كان ليسمح بوجود الحياة الحيوانية¹.

والمسافة بين الشَّمْسِ والأرض متوازنة في البعد، لو اقتربنا أكثر بمقدار بسيط لاستحالت الحياة من قوّة الأشعة ونوعيتها، ولو ابتعدنا لكان كلّ شيء متجمّداً، وكذلك حجم الأرض وجاذبيته، فحجم الأرض مناسب للحياة لاعتبارات عدّة فلو كان أقلّ من هذا وكان حجمه كالقمر، لكان جاذبيته بمقدار السُدُس، وهنا لا يمكن أن تمسك قوّة هذه الجاذبية بخار الماء والهواء حولها، وسيتلاشى الغلاف الجوّي حولنا وبذلك يكون التجمّد ليلاً، والدّوبان نهاراً، وعلى النقيض من ذلك فإذا كان حجمها أكبر بمقدار أي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية أو الشَّمْسِ فستتضاعف الجاذبية حتى لا تُصبح الحركة ممكنة، وكلّ شيء ثابت في مكانه، فتزداد كتلة كلّ مادّة فإذا كان وزن كلّ مادّة كيلوغراماً واحداً، فسيكون بحكم هذا الحجم خمس كيلوغرامات.

ولكان حجم الإنسان مختلفاً تماماً على هيئاته الحالية، ويُصبح بحجم أرنب أو قطّ صغير، حتى دوران الأرض حول نفسها أو حول الشَّمْسِ فهذه السرعة مثالية، فدورنها حول الشَّمْسِ 30 كيلومتر في الثانية، فإذا زادت هذه السرعة نقصت الجاذبية حتى توشك أن تقذف كلّ

¹ عمرو الشّريف، كيف بدأ الخلق، ص72

شيء في الفضاء، أما علاقة الدوران بالزمن فهذه السرعة تحافظ على المدة الحرجة لليل والنهار فهي تقطع مسافة 1760 كيلومتر في الساعة الواحدة، ولو انخفضت هذه السرعة لكان الليل والنهار وتعاقبهما طويلا.

وما أمكن للحياة ان تكون لأن ذلك مقدّر بدرجة الحرارة ومدة الضوء وهنا تنعدم الحياة، وتنوّع المناخ وتعاقب الفصول يدخل في هذا الباب، وزاوية محور دوران الأرض جعلت مسألة الظل والحرور متوازنا، ولو اختلف لزادت درجة حرارة الأرض، وبذلك يزداد بخار الماء الباعث من المياه الرّاكدة، ولا يخلّ التوازن البيئي وزادت كميات المياه وتقلّصت اليابسة، والأرض كوكب محميّ بسُترةٍ، تحمل أغشية ثلاث وهي الغطاء المغناطيسي، الذي يعكس العواصف الشمسية المدمّرة، وطبقة الأوزون الذي يحمي الكون من الغزاة المنبعثة والسّامة والأشعة الكونية الضّارة، وطبقة غلاف الهواء الجوّي الذي به خمس تكويناته من الأكسجين ولو زادت هذه النسبة لاحتُرقت الأشعة الشمسية بمقدار الذي تنعدم فيه الحياة.

فهذه الطبقة هي التي تخلق التوازن الموجود على كوكب الأرض من حرارة ورطوبة وهواء وهي مواد حيوية لا بدّ أن تكون بمقدار معيّن لكي تساعد الكائنات الحيّة على الاستمرار قال تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾) [القمر:49]، وقال أيضا: (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾) [الرعد:8]، والفرق بين القدر والمقدار، فالقدر الحساب الدقيق للشيء عند خلقه ومبتغاه وبدايته ومنتهاه، والمقدار حجمه وكميّته وتوازنه.

ثانيا/ الأرض مهد وبساط:

هناك مبدأ كوني هو مبدأ التّلازم البشري؛ فالإنسان مخلوق في أحسن تقويم ولكن ميّزه الله بالعقل ليستغل ما في الأرض المسخّرة له بعلم وحساب دقيق، أمّا رزقه فقد أوجده الله له

بقدر معلوم وجعل الرزق في الدنيا بالسعي وراءه مرهونا بالعمل الجاد والالتقان فيه، كما هو حال الكون المتقن.

أ/ الحياة على الأرض: والماء هو عنصر الحياة الأساسي، وهو مظهر من مظاهر استمرار الحياة لما فيه من لأهمية حيوية، قال تعالى: ((أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)) [الأنبياء: 30]، وقد ذهب كثير من أهل التفسير كالسَّعدي وابن عاشور والرازي إلى القول بأنَّ كلَّ سائل فهو ماء ومنه ماء الرجل الذي به تستمر الحياة البشرية، والمياه بأنواعها لأنَّ النَّبات يحيي بالماء. " واختلف المفسرون ، فقال بعضهم : المراد من قوله : كل شيء حي الحيوان فقط، وقال آخرون: بل يدخل فيه النبات، والشَّجر؛ لأنه من الماء صار ناميا، وصار فيه الرطوبة، والخضرة، والنور، والثَّمَر، وهذا القول أليقُ بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السَّماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حيا. "1، أمَّا في الدِّراسات العلميَّة؛ ذُكر بأنَّ الماء جاء بعد عملية (الفتق والرتق).

والغريب عند علماء الفلك أنهم إذا أرادوا بلوغ أي كوكب من الكواكب فإنهم يبحثون عن الماء، والماء بالنسبة لجسم الإنسان ووزنه يمثل ثلاث أرباع، ولا يستطيع العيش بدون ماء لمدة ثلاثة أيام، فالماء عبارة عن جزيء بسيط يتكون من ذرتين صغيرتين من الهيدروجين موجب الشحنة وذرة أكسجين كبيرة سالبة الشحنة، وعندما يرتبط الهيدروجين بالأكسجين فإن ذلك يخلق جزيئا غير متماثل بشحنة موجبة على جانب وشحنة سالبة على الجانب الآخر، ويسمى فارق الشحنة هذا بالقُطبيَّة، وهي تحدد كيفية تفاعل الماء مع الجزيئات الأخرى، والماء لا طعم له ولا رائحة ولا ذوق، ولا حتَّى لون، مالم يرتبط بجزيئات مادِّية أخرى، والماء له قدرة على الانجذاب إلى أماكن أكثر دقَّة وأضيق مما يكون.

¹ محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج4، ص143

ويعمل الماء ضدّ تيّار الجاذبية وهذا ما نشهده في عملية الامتصاص عن النبات، " ويستجيب الماء بشكل مثالي لظاهرة الخاصية الشعرية، وهي معجزة في هيئة قانون طبيعي، فهي تسمح للماء بالحركة لأعلى في طبقات التربة، كما تسمح بصعوده في أغصان الأشجار من الجذور إلى الأوراق عكس قوة الجاذبية الأخرى¹.

وما يتعلق بارتباط جزيئات الماء بالجزيئات القطبية للمواد الأخرى فإن الماء يتلوّى في طريقه إلى جميع الزوايا والشقوق بين الجزيئات ويفكّكها بشكل فعّال ويذيبها، وهذا ما يحدث عندما تضع بلّورات السكّر في الماء، فالماء والسكّر قطبان، مما يسمح لجزيئات الماء الفردية بتطويق جزيئات السكّر الفردية وتفكيكه وتذويبه، وباستطاعة الماء حسب كمّيته تذويب أيّ مادة صلبة وتحليلها وحتى على المستوى البيولوجي يساعد الماء كمذيب الخلايا على نقل واستخدام الموادّ المهمّة مثل الأكسجين والعناصر الغذائية، وتساعد المحاليل القائمة على الماء كالدّم في نقل الجزيئات إلى المواقع الضرورية، مثل تسهيل نقل الأكسجين للتنفس وكذلك تسهيل وصول الأدوية إلى أهدافها في الجسم.

وللماء أيضا دور هيكلي مهم في علم الأحياء، إذ إنّهُ يملأ الخلايا للمساعدة في الحفاظ على الشّكل والبنية، حيث يخلق الماء داخل العديد من الخلايا بما في ذلك تلك التي يتكوّن منها جسم الإنسان ضغطا يقاوم القوى الخارجية مثل وضع الهواء في بالون، ويسمح الماء لكل شيء داخل الخلايا بالحصول على الشكل الصّحيح على المستوى الجزيئي، فالماء هو التركيبة التي سمحت بتكوين الحياة واستمرارها على الأرض، قال تعالى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلَهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴿٣١﴾) [النازعات: 30-31].

ومن المفاهيم العلمية لدحوّ الأرض وإخراج الماء أنّ الله أخرج ماءها وغلافها الغازي، فالماء يمثّل نسبة أكثر من ثلثي سطح الأرض فهي تُشكّل نواحي ثلاث ملايين وستون

¹ عمرو الشريف، كيف بدأ الخلق، ص76

كيلومترا مربعا، وقد تمّ هذا بتفاعل غازي بين الايدروجين والأكسجين عند مرحلة الفتق، ومن الدراسات الحديثة التي أكّدت أنّ الماء أُخرج من داخل الأرض عبر الثورات البركانية المتعاقبة، فهي تساهم في تشكيل الغلاف الغازي للأرض، ومن خلاله يتشكّل بخار الماء المتصاعد، " و أنّ النشاط البركاني الذي صاحب تكوين الغلاف الصّخري للأرض في بدء خلقها هو المسؤول عن تكوّن كل من غلافها المائي والغازي.

ولاتزال ثورات البراكين تلعب دورا مهماً في إثراء سطح الأرض بالمياه، وفي تغيير التركيب الكيميائي لغلافها الغازي وهو المقصود بدحوّ الأرض، ذلك نابع من حقيقة أنّ الماء هو السائل الغالب في الصّهرات الصّخرية على الرّغم من أنّ نسبته المئويّة إلى كتلته الصّهارة قليلة بصفة عامّة،¹ ومنها أمر الحمّات المعدنية ففي الأصل براكين ثائرة خمدت لآلاف السنين، ثمّ انفجرت ينابيع، وبعضاً من التشكيلات الكيميائية الأخرى، كالكبريت والكلور، والنترات، والفوسفور وغيرها من المعادن، وهذا شكل من أشكال دحوّ الأرض. والمعنى الثاني لدحوّ الأرض هو إخراج ثاني أكسيد الكربون من داخلها، وبعدّ ثاني أكسيد الكربون، وهو أساس في عمليّة التركيب الضوئي، ومعنى إخراج ماءها ومرعاها إنّما كان تعبيراً مجازياً فالقصد من هذا الخطاب هو ذكر السبب ليصل إلى المُسبّب بإخراج الغاز وهو العامل الرئيسي بإخراج المرعى ولولاه ما أنبتت النباتات بالإضافة إلى العوامل الأخرى كالماء وعناصر الأرض لبناء العديد من الأنسجة.

الخطاب القرآني موجّه إلى العقل العربي، المنفتح على هكذا معنى المناسب للبيئة العربيّة؛ ذلك أنّ المياه في شبه الجزيرة العربيّة ليست مياهاً راكدة إنّما ممّا تتفجر من ينابيع الأرض، وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُو يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾)

¹زغلول النجار، الأرض في القرآن الكريم، ص139

[الزمر: 21]، ومنه تأخذ الآية معنيين في الدراسات الحديثة، أولها أن المقصد من ذلك ماء المطر الذي يهطل من السماء بفعل تراكم السحاب الذي سخره الله تعالى بين سطح الأرض والغلاف الجوي، ولكن هذا الماء منذ ملايين السنين قام بعمليات مختلفة على سطح الأرض، ويقوم المطر عند هطوله بتفتيت صخور الأرض، وتكوين التربة وشحنها بقدر ممن الرطوبة، كما يقوم بشقّ الفجاج والسبل، وتسوية سطح الأرض، وتلطيف الجو، والمحافظة على رطوبة الهواء، وبإذابة العديد من الأملاح التي في الصخور وحملها إلى البحار والمحيطات، وتركيز العديد من الخامات المعدنية والثروات الأرضية المختلفة¹.

والوجه الثاني هو عملية إخراج النباتات، فبماء المطر وتسربه في شقوق الأرض بسبب القوة التي فيه منها ما يكتنز داخل الأرض، ومنها ما يتفجر أنهارا منها ما يساعد على إحياء الأرض بالنباتات ويحصى العلماء أكثر من ربع مليون صنف من النباتات بما فيها الأشجار، وكل صنف منها يحمل كثيرا من الأنواع يصل عددها إلى ملايين الأنواع ومع هذا الاختلاف تجد اختلافا في الصفات الشكلية وفي الأنسجة، ونوعية المعادن المكتسبة التي حملتها وساعدتها في النمو.

وقد انزل الله الماء لطهارة الأرض من هذه الترسبات، وإعادة بعث الحياة من جديد بعد أن فشلت الأرض في تخزين ما يحتاجه من النبات الأخضر قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾) [فصلت: 39]، تربة الأرض هي التربة الرقيقة من عادم الصخور، وهو خليط من المعادن المتفككة، بالإضافة إلى ذلك فهي تتشكل مع بقايا الكائنات الحية الموجودة فوق الأرض كالنبات والحيوان، مواداً عضوية، فكيف تربو هذه الأرض إذا أنزل عليها المطر؟، وفي الآية نسق لغوي عظيم فلفظ خاشعة دلالة على حياة العبادة، تنتظر

¹ زغلول التجار، الأرض في القرآن الكريم، ص 479

رحمة الله، ورحمتها تكمن في الماء، ودوعي اهتزازها وربوها هي أنّ هذه المعادن تنتشع بالماء عند نزول المطر فيزداد حجمها، فيكون اهتزازا.

ومنها أمر بذور النباتات التي تتغذى من تلك المعادن بعد عملية التحلل فتندفع مخترة سطح التربة لكي تبرز، فهذه العملية تسمى الرّبوّة، ومنها لفظ الرّابية وهي منخفض مزدان بالخضرة، " ومع ازدياد هطول الماء على التربة تنتعش كلّ صور الحياة فيها من البكتريا، والفطريات، والطحالب وغيرها كما تغلظ المجموعات الجذرية للنباتات القائمة، على سطح الأرض، ويؤدي النشاط الحيوي لكلّ من هذه الكائنات إلى زيادة حجم التربة، وإلى زيادة الأنشطة الكيميائية والفيزيائية فيها ممّا يؤدي إلى انتفاض مكوناتها واهتزازها وربوها وكثرة الإنبات فيها، وقد صوّرت هذه المراحل بالتصوير البطيء".¹

ب/ الاختلاف والبركة: لا يمل الإنسان على كوكب الأرض لما فيه من التنوع في الطعام والشراب، فقد خلق الله ما في الأرض من رزق مختلف في الذوق واللون، والشكل، فإذا ألقينا نظرة على الفواكه، فمنها الموسمية ومنها ما تنبت وفق مناخ معين ولا تنبت في مناخ آخر، أو بيئة معينة دون بيئة أخرى كالتمور، ونجد في الفاكهة الواحدة اختلافا في الطعم بين أصنافها، وإذا أتيت إلى اللحم الذي أحله الله تجد منها الأبيض كالطير والسّمك ومنها الأحمر كالخروف والبقر والإبل، ولحوم الأنعام مختلفة باختلاف البيئة التي نشأت فيها.

والأرض جعلها الله مختلفة في تضاريسها منها البحار والسهول والجبال والغابات، ومنها ما هو منخفض، ومنها ما هو مرتفع، هذا التنوع له دلائل علمية توصل إليها، وجعل الله الرزق لعباده سعيًا فيها قال تعالى: (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنذِرَ ۖ فَمَنْ ظَلَمَ فَسَاءَ لَهُ ۖ وَرَبُّكَ عَلِيمٌ مُّذِلٌّ) [فصلت: 10]، فمنذ خلق الله آدم على الأرض ونسله من بعده كان رزقهم على هذه الأرض، وبارك لهم في رزقهم، ومن الناس من كانوا ملوكًا على

¹ زغلول التجار، الأرض في القرآن الكريم، ص 364

هذه الأرض، ولفظ سواء أي لا يعلم رزقك ورزق غيرك إلا الله ولا نعلم خزائن الله في الأرض، وما عُمر الإنسان إلا كلمح البصر من عمر الكون كله.

وبركة الله في هذه الأرض مختلفة، فالبركة تعني الاختلاف في الأرزاق، وتعني ما تحمله الأرض من جوفها، فالبترول والغاز لم يكتشفه الإنسان إلا في القرن التاسع عشر، وكذلك المعادن، فحياة الإنسان البدائية وجد من الأرض ما يسدّ جوعه وعطشه، ولكن مع مرور الوقت وازدياد حاجاته قام باختراع فاكشف من بركات الأرض الحديد، والرصاص وغيرها.

ووجدت البشرية راحتها في الأرض فهي تنعم بمائها وهوائها وهذه ارزاق، " وقد رأينا كيف تعاونت عناصر الهواء فكونت الماء، وكيف تعاون الماء والهواء والشمس والرياح فكونت التربة الصالحة للزراعة، وكيف تعاون الماء والشمس والرياح فكونت الأمطار أصل الماء العذب كله من أنهار ظاهرة وأنهار باطنة تظهر في شكل ينابيع وعيون وآبار، وهذه كلها من أسس البركة ومن أسس الأقوات، وهناك الهواء، ومن الهواء أنفاسنا وأجسامنا إن الأرض كرة تلفها قشرة من صخر، وتلف أكثر الصخر طبقة من ماء، وتلف الصخر والماء جميعا طبقة من هواء، وهي طبقة من غاز سميكة، كالبحر، لها أعماق، ونحن بني الإنسان، والحيوان، والنبات، نعيش في هذه الأعماق، هانئين بالذي فيها"¹.

ومن بركات الأرض أنك إذا ألقيت حبة أو بذرة فتنمو وتتفتح لتجد تلك الحبة قد صارت فسيلة ثم بعامل الضوء والحرارة المناسبة تكبر تلك الفسيلة لتنتبت سنبل أو مجموعة من السنابل وفي كل سنبل حبات كثيرة، وهذا بفضل الله، وكذلك الحال بالنسبة للأشجار فمن بذرة واحدة يمكن أن تكون شجرة تنتج آلاف الحبات، وبركة الأرض بأن جعل الرزق فيها بالأسباب، وخدمتها قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا

¹ السيد قطب، في ظلال القرآن، ج5، ص3111

وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ [الملك:15]، فقد ذلّل الله الأرض وجعلها سهلة للعباد، ومنه جاء الأمر بالمشي في جبالها وسهولها وفجاجها، وهذا المراد من البحث عن الرزق. وجاء الأمر الثاني بأن نأكل من رزقه، والغرض البلاغي من هذين الأمرين الفضل والامتتان، وفي نظرة معرفية، أنّ هذه الأرض ذلّلها سبحانه في عدّة أبواب، أمّا الأوّل منه فقد خلق فيها معاش الخلق جميعا من مراعي وسهول للحيوان، ومن اشجار وكهوف ومغارات للطيور والزواحف، وإن جعل البحر بهذا الشكل للحيتان، والأرض سائرة تدور، وجاذبيّتها منعها من ان تلقينا في غياهب الكون، " كما ساعد الضغط الجوّي في المشي والحركة فيها، ولكن هذا الضغط أثقل لصعب على الإنسان التّثقل فيها ولو كان خفيفا لتمايل كالسّلحفاة وانفجرت تجاوبيه لزيادة الضغط الدّاتي وضغط الهواء حوله.

كما جعل الله قشرة الأرض ليّنة لما فيها من تراب ناعم، أو رمل، أو حجارة بسيطة يستطيع الإنسان السّير فيها منذ ملايين السنين عندما بدأت النقطة الكوكبية التي أصبحت اليوم الأرض ككرة صخرية ساخنة ولزجة غرقت أثقل المواد معظمها من الحديد والنيكل في وسط الكوكب الجديد، وأصبحت طبقته الداخلية (لبّ الأرض)، أما المادة المنصهرة التي أحاطت بالنواة فهي الوشاح المبكر وتعرّف القشرة الأرضية بأنها الطبقة الرقيقة الخارجية التي تُغلّف الأرض، ويبلغ عمقها 40كم، وتشكّل ما نسبته 1% من كتلة الأرض، وتُقسّم القشرة الأرضية إلى عددٍ من الطبقات، وهي الطبقة المحيطيّة، وتقع على بعد عشر كيلومترات إلى الأسفل، والطبقة القاريّة وهي معرّضة للهواء وهي قديمة وسميكة يبلغ سمكها 50 كيلومتر وعمرها ملياري سنة، ويتواجد الأكسجين بكثرة في غلاف القشرة الأرضيّة بفضل الغلاف الجوّي، ومن العناصر الأخرى كالسيليكون والألمنيوم، والحديد والمغنيزيوم، والصوديوم والكلسيوم والبوتاسيوم والصّوديوم، ويمثّل كل واحدٍ منها نسباً متفاوتة.

وثانيها أنّ الأرض لا تملّ منّا فنحن نسير عليها منذ أن خلق الله آدم إلى يومنا هذا وجعلها ذلولة "بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة، ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر، وبُعد الأرض عن الشمس والقمر، ودرجة حرارة الشمس، وسمك قشرة الأرض، ودرجة سرعتها، وميل محورها، ونسبة توزيع الماء واليابس فيها، وكثافة الهواء المحيط بها، وهذه الموافقات مجتمعة هي التي جعلت الأرض ذلولا، وهي التي جعلت فيها رزقا، وهي التي سمحت بوجود الحياة، وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص".

وثالثها أنّ الأرض مختلفة ومتباينة، فمساحتها تقدّر (510) مليون كيلومتر مربع، تمثل اليابسة 29% منها والباقي مياه البحار والمحيطات، وهذا كلّ بين انحدار وارتفاع، فأعلى نقطة في الأرض هي قمة افرست (8848 متراً)، وأخفض نقطة هي غور البحر الميت حيث يصل مستوى منسوب سطح الماء فيه إلى حوالي أربعمئة متر تحت مستوى سطح البحر، ويصل منسوب قاعه في أعماق أجزائه إلى قرابة ثمانمئة متر تحت مستوى سطح البحر، قال تعالى: (غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾) [الروم: 2-3]، وهذا دليل ربّانيّ أنّ هذه المنطقة منخفضة، وغور (ماريانا)، هو أعماق غور في المحيطات ويوجد في قاع المحيط الهادي قرب الفلبين، وعمقه إحدى عشر كيلومتر، "وإذا أخذنا مجموع متوسط ارتفاع اليابسة والمقدّر بنحو 840 متر فوق سطح البحر ومتوسط أعماق البحار والمحيطات والمقدّر بنحو أربعة كيلومترات في المتوسط ونسبنا ذلك إلى نصف قطر الأرض المقدّر بنحو (6371 كم)، كانت النسبة في حدود 0,076% وهذا يمثل قمة التسوية والتمهيد لسطح الأرض، خاصّة إذا علمنا أنّ اليابسة بدأت بسلاسل من جبال شديدة الوعرة، ثمّ سخر الله تعالى عوامل التعرية المختلفة من الرياح والمياه الجارية، والمجالد، والتّباين في درجات الحرارة والجاذبيّة الأرضيّة¹.

¹ زغلول النّجار، الأرض في القرآن الكريم، ص 299

ومنه جاء قوله تعالى: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾) [البقرة:20]، والفراش يأتي في سياق مجاز مرسل وقرينته محلّية فهو انطلق من الفرّاش المحلّ ليعبر عن الحال الرّاحة والطمأنينة، وهذا الفرّاش قد ساعد على انبات الزّرع والثمار، لتوفّر شروط الحياة، بالمقدار الي تستحقّه كلّ نبتة، والعامل المهم هو الماء، ومنه قوله تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾) [النبا:6]، "الوطاء والفرّاش، وقرئ مهذا، ومعناه أنّها لهم كالمهد للصبيّ، وهو ما يمهد له فينوم عليه"¹، وهذا دليل على عظمة قدرة الله، فالمخلوقات الموجودة على الأرض كلّها ضعيفة بالنسبة لما يحمله هذا الكون من هول الأتساع وعظمة الصّنع وكبر.

ورابعها أنّ الأرض على صغرها بالنسبة لهذا الكون الفسيح، صعبة وعرة، فمهدّها الله وجعلها مثل مهد الصّبي، من الرّأفة واللّطف، عمليّة خلق الأرض على الشّكل الذي هو عليه قد مرّ بصراع " بين العمليّات الداخلية البانية لسطح الأرض، والعمليّات الخارجيّة الهدميّة التي تحاول أن تصل بسطح الأرض إلى مستوى سطح البحر من دورات متتالية تعرف باسم دورات شكل الأرض أو دورات التّحّات ظلّت تعمل على مدى 4.6 بليون سنة على الأقلّ حتى تمّ تمهيد سطح الأرض وبسطه، وجعله فراشا للإنسان ولغيره من المخلوقات وأمكن شقّ الفجاج والسّبل فيه"²، وقد أكّدت هذه الآية ما جاء في قوله تعالى: (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ ﴿٤٨﴾) [الذاريات:48]، وقد قال الله تعالى في سورة أخرى ضمن نفس السّياق: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾) [نوح:19-20]

¹القرطبي، أحكام القرآن، ج19، ص150

²زغلول التّجّار، الأرض في القرآن الكريم، ص 300

[20]، وضمن المعنى مقارب له يقول سبحانه: (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾) [الغاشية:20].

ويأخذ هذا المعنى معرفياً فهو على أوجه مختلفة، فهو يرمز إلى تضاريس الأرض المختلفة، والتي هي على الحال الذي نراه اليوم، " وتضاريس سطح الأرض الحالية هي نتيجة صراع طويل بين العمليّات الدّاخلية البانية والعمليّات الخارجيّة الهدميّة والتي استغرقت حوال الخمسة بلايين من السّنين"¹، فالإنسان هو الحلقة الأخيرة من الخلق فوجوده كان بعد أن تهيأت الأرضيّة الصّالحة لاستمراره على هذه الأرض، والوجه الثاني من المعنى الذي تحمله هذه الآيات هو التوازن الموجود في الأرض، " وأنّ كلّ مرتفع أرضي فوق مستوى سطح البحر له امتدادات في داخل الغلاف الصخري للأرض يتناسب عمقا مع ارتفاعه، وأنّ كلّ جبل من الجبال له جذور عميقة من مكوّناته الخفيفة تخترق الغلاف الصّخري للأرض، لتطفو في نطاق الضّعف الأرض حيث تحكمها قوانين الطفو المعروفة كما تحكم أي جسم طاف في مياه البحار والمحيطات من مثل جبال الجليد والسّفن"²، والمسألة الثالثة تكوّن التّضاريس وكوكب الأرض بدأ على هيئة كومة من الرّماد الذي ليس فيه من العناصر أثقل من السّيليكون، ثمّ التطم بالنيّازك التي تحرّكت في قلبه فأنتج سبع أراضيّن، والوجه الرّابع دورات تغيّر الأرض، والوجه الخامس، اتزان الأرض بالشّكل الذي هو عليه اليوم.

ثالثا: الأرض ثباتٌ وتوازنٌ:

حكمة الاختلاف في خلق ترمي إلى معرفة الخالق سبحانه، وهي آية من آيات الله، والأرض تعيش في اتّزان كبير بين كلّ مكوّناتها فهي تملك جميع العناصر التي بها تستمرّ الحياة على هذا الكوكب، والتّنوّع البيولوجي هدفه إعطاء الطّمأنينة والاستقرار للحياة، فيوجد نحو ثمان ملايين صنفا من الكائنات الحيّة بين النّبات والحيوان، ومنها من انقرض، ويوجد في

¹المرجع نفسه ص308

²المرجع نفسه ص309،

الصَّنْف الواحد كثيرا من الأنواع، ويساهم هذا التَّنَوُّع على كل جانب من جوانب صحة الإنسان، ويوفر الهواء النقي والمياه، والأغذية المعدنية، والفهم العلمي ومصادر الأدوية، ومقاومة الأمراض الطبيعية، والتخفيف من وطأة تغيّر المناخ، يؤثر تغيير أو إزالة عنصر واحد من هذه الشبكة على نظام الحياة بأكمله ويمكن أن يؤدي إلى عواقب سلبية. فبدون الطبيعة، لن تكون الحياة على الأرض ممكنة، ولما كانت الأرض بهذا التَّنَوُّع أوجد الله تعالى فيها هذا التوازن والتمثّل في المسطّحات المائية، والجبال العالية.

أ/الجبال ثبات وصمود: يرى الإنسان نفسه قزما امام الأطوار العظيمة الشّامخة، وتنثيره بصيرته إلى قراءة هذه العجائب في الأرض، منها صُنْع الجبال، والمتفحّص لكتاب الله يرى أنّ الدلالة البلاغية للجبال تحمل مفهوم العظمة والرّفعة والصلابة، وقد ضرب الله به مثلا في قوله: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمُثُلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [الحشر:21])، أي : فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ، لخشع وتصدع من خوف الله، عز وجل، فكيف يليق بكم أيّها البشر ألاّ تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهِمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى:(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ¹.

وعن مكر الكفار ذكر عظمة هذا المخلوق قال تعالى: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ [إبراهيم:46])، وإن كان من أهل العلم من يرى بأنّها مشابهة، "الجبال هنا المراد بها شرائع الله تعالى التي جاء بها النّبِيُّونَ، فشَبَّهت بالجبال لثباتها وشموخها وعلوها ورفعتها، و(إن) هنا إمّا أن نقول: إنّها مخففة من (إن) الثقيلة، والمعنى أن الحال والشّأن أن ذلك المكر كان مهياً ومعدّاً لتزول به الشريعة، ولكن

¹ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص79

تدبير الله كان أحكم فنجت الشرائع التي بلغت في شموخها وعلوها وثباتها مبلغ الجبال"¹، والجبل رمز للشموخ فقد تغنى به الشعراء، وشبهوه بالرجل العابد الزاهد إذ يقول ابن خفاجة الأندلسي:

وقور على ظهر الفلاة كائنه طوال الليالي مفكّر في العواقب²

فراه إنسانًا طال عمره، فتحدثه نفسه عن مرور الأزمان وتعاقب الأجيال التي عاشت على ظهره، وفي القصص القرآني ورد لفظ الجبل حاملًا معه صفة الارتفاع، وملجأ النجاة قال تعالى على لسان ابن نوح الغارق: (قَالَ سَأُووِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾) [هود:443]، " يقول: سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء، فيمنعني منه أن يغرقني "³، فيمثل الجبل المأوى الذي يركن إليه الإنسان هروبًا من الفرع الغبطة، ويرتبط مدلول الجبل حضاريًا بكثير من المعاني والأدلة والقرائن الثقافية، تنتظر الحضارات القديمة إلى الجبال نظرة القداسة، فيرى الإغريق أنها مكان للآلهة، فمكانة الجبل عند الغريق، هي أولى مظاهر العبادة وأقدمها، كانت في البداية عبادة مظاهر الطبيعة المختلفة وكذا عبادة أرواح موتى الأجداد ليتم بعدها في مرحلة أخرى الانتقال إلى العبادة الأولمبية نسبة إلى جبل أولمب؛ حيث كان جبل أولمب هو أعلى جبال بلاد الإغريق جعل منه الشعراء مقر للآلهة "زيوس" ومعظم الآلهة في قمته التي تختفي بين السحب والذين أقيمت على شرفهم الألعاب الأولمبية الشهيرة.

بينما يجد المصريون من الجبل قبر الملوك وهو مرتبط بالخلود؛ لأنهم يرون حياة قبل الموت وفي الجبل يجد الحماية عكس السفوح والوديان فهي تتدثر بعوامل طبيعية وغير

¹ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج8، ص4053

² ابن خفاجة الأندلسي، الديوان، تح عبد الله سترة، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط6، 2006، ص48

³ الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج15، ص323

طبيعية، وتبرز مكانة الجبل الدينية في كونه مكاناً مقدساً لإقامة هياكل العبادة حيث أن مدن الفينيقيين لم تكن تتسع في الغالب لبناء مثل هذه الصروح الملهمة، حيث عرف الفينيقيون العديد من الآلهة والتي استلزم عبادتها هياكل خاصة، وأحسن نموذج ربما للمعابد الفينيقية هو هيكل احيرام في القدس، وترى الأسطورة البابلية أن الجبال هي مصدر مياه نهري دجلة والفرات، بعد عرض هذه النماذج والخلفيات الذهنية للشعوب الإنسانية ونظرتهم القاصرة تجاه الجبال.

يأتي القرآن الكريم ليذكر بأن الجبال هي آية من آيات خلقه وعظيم صنعه، وهي نموذج من نماذج صنع الله الباري المصور، وقد وصف الخطاب الرباني الجبل بأنه وتد منصوب، ومائلها بالسحاب لكن نظرة الإنسان القرشي والعربي إلى هذه الآيات لم تكن بالشكل المطلوب لفهمها، وبعد وصول الإنسان إلى المرتبة العلمية التي عليها اليوم نجد بأن دلالة قوله سبحانه: (وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا ۖ) [النبا:7]؛ يكمن في التالي: التود في اللغة هو ما كان مدفوناً في الأرض مغروس فيه، " فكل نتوء فوق سطح الأرض له امتداد في داخلها يتراوح طوله بين 10 إلى 15 ضعف ارتفاعه فوق سطح البحر، فكلما كان الارتفاع فوق سطح الأرض كبيراً تضاعف الغائر في الأرض امتداداً إلى داخلها، ليخترق الغلاف الصخري بالكامل، ويطفو في نطاق الضعف الأرضي، وهو نطاق شبه منصهر المادة فيه لدنة، عالية الكثافة عالية اللزوجة، تطفو فيه أوتاد الجبال كما تطفو جبال الجليد في مياه المحيطات، تحكمها في ذلك قوانين الطفو"¹.

والله تعالى يدعونا إلى النظر في خلقه ومنها الجبال إذ يقول تعالى: (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩) [الغاشية:19]، فالآية تحاكي العرب في نمط معيشتهم بنصب الخيام، وفي

¹ زغلول التجار، المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط10، 2008، ص 20

هذا استدلال مرئي لما يفعلونه في حياتهم، ونصبُ بيت الشَّعْرِ يكون عن طريق الأوتاد ثم الحبال لينتصب بذلك عمود الخيمة، وفي هذه المحاكاة ارتباط وثيق في كيفية نشوء الجبال. فقد أثبتت الدراسات العلميّة، أنّ قمةً افرست مثلاً يُلاحَظ في تشكيلة صخورها حجرٌ جيري، ممّا يدعونا إلى التساؤل عن طريقة تشكّله، وقد صنّف علماء الجيولوجيا الجبال إلى ثلاث أصناف: (الجبال المطوية، والجبال البركانيّة، والجبال التي تمثّل مناطق الصدّع)، قال تعالى: (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٦﴾) [الطارق:12]، والجبال المطوية تمثّل الغالبية، وتظهر على شكل سلاسل تمتدّ لمسافات طويلة، يمكن أن تكون لآلاف الكيلومترات، سوى جبال الآلب، والهimalايا، أمّا البركانيّة في تكوّنت نتيجة تراكم الحمم البركانيّة جبال مناطق الصدّع نتيجة تباعد الصفائح التكتونية (القطع المتجاورة) عن بعضها البعض، الشيء المشترك بين هذه التصنيفات أنها كلها ناتجة عن حركة الصفائح التكتونية ولكن باتجاهات مختلفة.

والقطع المتجاورة (الصفائح التكتونية) هي قطع صخرية صلبة تطفوا على مادة منصهرة لزجة عالية الكثافة تسمى الدّثار أو (Mantl) وهي طبقة أرضية تحتية يبلغ سمكها نحو 4000 كيلومتر تقع فوقها القشرة الأرضية التي نعيش عليها أو القشرة الموجودة في قيعان المحيطات، إذ باصطدام قطعتين قاريتين وتشكّل الجبال، تماماً كما تنتصب بيوت الشعر عند حدوث تصادم كالذي حدث بين قطعتين قاريتين هما الهند وآسيا، حدث ما يسمى علمياً (uplift) أو النصب، وحقيقة وجود الحجارة الجيرية على قمة افرست يؤكد على أن نصب الجبال (uplift) الناتج عن الاصطدام أدّى إلى تشكّل سلاسل الجبال ورفع الصخّور لآلاف الأمّاتار.

ناهيك عن أنّ العلماء يؤكّدون بأنّ قمة افرست ما زالت ترتفع عدة سنتيمترات كل عام نتيجة الاصطدام، أمّا عند اصطدام قطعة صخرية محيطية مع قطعة صخرية قاريّة وهي

الأكثر سمكاً، فإن القطعة المحيطية تنزلق تحت القطعة القارية وذلك لخفة وزنها وقلة سمكها كما حدث في جبال الألب وسلسلة الجبال الغربية في القارة الأمريكية الشمالية، أما الجبال البركانية فإنها تتصب كما تتصب "الخيام" الدائرية حيث، يوضع عمود في وسط الخيمة ويُرفع النسيج الى الأعلى، وبالنتيجة، فإن نصب بيوت الشعر ونصب الجبال نتج عن تلاقي جسمين بقوتين متعاكستين نتج عنهما النصب **uplift**.

أما عن لفظ الرّواسي فقد ذُكرت مقرونة بلفظ تميد بالنسبة للأرض وفي اللغة لفظ الميد، " (م،ي،د) من ماد يميّد ميّداً وميداناً ؛ تحرك، وزاغ وزكاً، واضطرب، والميدة الدائرة من الأرض"¹، ومن خلال الدلالة المعجمية تبين أنّ الجبال وُجدت للحفاظ على توازن الأرض، فما هي الرّواسي؟، " (ر،و،س،ي)، الرّواسي جمع راسية، وهي أعلى الشيء، أو مرتفع الوادي"²ومنه قال تعالى: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَقَلَّىٰ فِي الْأَرْضِ رَوسِيَّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٥٠﴾) [لقمان:10].

وقد توصّل العلم إلى أنّ الجبال تخلق التوازن وعدم الاضطراب في الأرض على الأوجه التالية وهي: تعاقب الفصول، وتثبيت قشرة الأرض، والحفاظ على منسوب المياه في البحار والمحيطات وهي تساعد في تشكّل الغيوم ودفع الرياح بسبب شكلها الانسيابي أيضاً، ولذلك ربط البيان الإلهي بين تشكّل الجبال ونزول المطر ولها دور في تصفية وتنقية المياه، بسبب الطبقات المتعددة فيها وتحافظ على توازن الغطاء النباتي بسبب شكلها المميّز وما تختزنه من مياه وشكلها المميّز يساعد في تخزين المياه النازلة من الأمطار، مما يتيح المجال للأنهار أن تتدفّق، ولولا الجبال لما أمكن للطّرق الممهّدة أن تتشكّل لأنّ الذي يدرس تاريخ تشكّل الطّرق المختلفة في العالم خاصّة الطّويلة منها خلال مئات الملايين من السنين يدرك

¹الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص 290

²المصدر نفسه، ص494

أهمية اصطدام الألواح الأرضية وتشكل الجبال مما يفسح المجال لتشكل الفجاج العريضة أو الطرق الميسرة والتي ساعدت البشر على سهولة التنقل لآلاف السنين.

وأن الميد لا يحصل الا إذا كان تحت قشرة الأرض الصلبة باطن منصهر ومن ثم قلب صلب، وأن الجبال تقوم بعمل المرسى لتثبيت الأرض وتعبير آخر أوتاد، وبالتالي فإن على الجبال أن تُغرس في الطبقة المنصهرة.

والمرسى يلقي من السفينة ذات السطح الصلب الى الماء ذو الحالة السائلة، باستخدام وسائل تحديد التفاوت في الجاذبية Gravity Anomaly ، استطاع العلماء تحديد شكل طبقة الأرض المتكونة تحت الجبال، وتسمى علمياً بجذور القشرة roots crustal ويكون شكلها مطابق لشكل الجبال فوق سطح الأرض ولكنها تزداد عنها في العمق بسبب قوة الجاذبية وليونة الطبقة المنصهرة بالاضافة الى سمك القشرة المحيطة، يبلغ سمك القشرة الأرضية في الحالات العادية ما بين 35 و 40 كيلومتر بينما يصل سمكها الى ما بين 50 و 70 كيلومتر تحت الجبال، فوصف لنا تعالى هذه الظاهرة بالأوتاد أو الرواسي والتي تمنع قشرة الأرض من الميد أو العشوائية في الدوران وبالتالي تؤدي الى استقرار مناخ الأرض، ومنه قوله تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [الرعد:3]).

وعند ذكر الجبال في القرآن الكريم في باب التفكير في نعمه، أو التذكير بها ، نجد ذلك الارتباط الوثيق بينها وبين دورها في الطبيعة، فكيف تكونت الجبال؟، " هناك فرضيتان رئيسيتان لتفسير عملية تكون الجبال: الأولى: وتعرف باسم فرضية الحركات الرأسية للغلاف الصخري للأرض، تنص على غلبة الحركات الرأسية في القشرة الأرضية، وتردّ تكون الجبال إلى تلك العملية، والثانية: وتعرف باسم فرضية الحركات الأفقية للغلاف الصخري للأرض وتنص على أنّ الحركات الأساسية المسؤولة عن بناء الجبال هي أساساً حركات أفقية

بطبيعتها، وترتبط مباشرة بحركة ألواح الغلاف الصخري للأرض وما يصاحبها من تحرك القارات، وكلتا الفرضيتين تُقرّان بالتّلازم الوثيق بين تكوّن الجبال وتكوّن الأحواض الأرضية التي هي عبارة عن أخاديد طويلة (أغوار، منخفضات، قعيرات)¹.

ومن الآيات الدّالة على عظيم صنّع الله تعالى مسألة تحرك الجبال، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾) [النمل:88]، وقد اختلف المفسّرون في تأويلها فمنهم من قال أنّا جاءت في سياق أحداث الساعة، وهي من أحداث يوم القيامة أين تكون الجبال غبارًا وصوفًا قد مرّ عليه الغزل، وتشبه في مشهدها السحاب، واستدلوا بذلك من آيات سورة الكهف والقارعة والتكوير، ولكن في هذه الآية نجد سياقًا آخر جاء في آخر الآية وهو قوله تعالى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)، وفي هذا تأكيدٌ على أنّ القصد من الخطاب هو بيان آيات الله المدهشة.

ونحن في حياتنا اليوم التي أظهر فيها علم الإنسان ومعرفته بحقائق الكون أنّ الأرض في دوران مستمرّ لكن لا نشعر بهذه الحركة، ولو وقفت متأملاً في السحاب لما وجدته يتحرك إطلاقاً لأنّ الإنسان مخلوق ضعيف الوزن وبطيء الحركة مقارنة بهذه المخلوقات العظيمة، وقد أوضح (غاليلو غاليلي)، الفيلسوف الإيطالي ومخترع التلسكوب وعالم الفلك نسبية الحركة وبمثال بسيط فإنّ أي شخص يركب في طائرة تسير بسرعة ثابتة متجهة في اتجاه واحد لا يستطيع الشعور بحركة الطائرة لأنّه ثابت فيها. ويشعر كما أنّه في الأرض.

وبذلك أثبت العلماء حركة الجبال بالنسبة لدوران الأرض، ووجه الاستدلال عند قول تعالى أنّ الإتقان لا يكون في الهدم وإنّما في البناء، والتفسير العلمي لها أنّ حركة الأرض هي سبب تحرك الجبال ومنهم من ذهب إلى الاستدلال بأنّ القارات تتباعد بين بعضها البعض

¹ زغلول النجار، المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، ص67

منذ ملايين السنين، وهذا بسبب انصهار الطبقة الصخرية الملتهبة واللزجة الموجودة بعمق يصل إلى 100 كلم للجبال تحت الأرض ومنهم العالم الألماني (ألفرد فنغر) منذ 1912.

ولكن في عام 2007 تمكّن العلماء من تسجيل حركة هذه القارات، وسجّلوا تباعداً بين قارة أوروبا وقارة أمريكا الشمالية مقداره 18 ملم خلال سنة كاملة، ووجد العلماء أنّ الجبال الموجودة في قاع المحيطات تتحرّك بحدود 90 ملم، وتحدث الآية أيضاً عن الجبال الجليدية الموجودة في القارة المتجمّدة الجنوبية والتي تتحرك في حدود خمس مائة متر كلّ سنة، ونحن لا نرى بحكم الحركة النسبية.

والجبال مصدر للمعادن المختلفة الألوان قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ [فاطر:27])، ومن هذه المعادن الحديد هذا المعدن الفذ الذي اتخذهُ البشر وسيلة لباسهم في القتال أو العمران، أو بناء المداخل العملاقة والبوارج الفاخرة، قال تعالى: ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ [الحديد:25])، ونسبة التركيب الكيميائي للحديد من مجموع كتلة الأرض تصل إلى أكثر من الثلث، هذا الكم الهائل أنزل إلى الأرض.

" وأنّ الحديد لا يتكوّن في الجزء المدرك من الكون إلّا في مراحل محدّدة من حياة النجوم العملاقة التي تسمّى بالعماليق العظام، والتي بعد أن يتحوّل لبّها بالكامل إلى الحديد تتفجر على هيئة المستعمرات العظام ، وبانفجارها تتناثر مكوناتها بما فيها الحديد في صفحة الكون فيدخل هذا الحديد بتقدير من الله تعالى في مجاله جاذبية أجرام سماوية تحتاج إليه مثل أرضنا البدائية التي وصلها الحديد الكوني، وهي كومة من الرماد فاندفع إلى قلب تلك الكومة بحكم كثافته العالية وسرعته الكونية المندفع بها، فانصهر بحرارة الاستقرار في قلب

الأرض البدائية وصهرها"¹، كلّ هذا الكم من المعارف التي توصّل عليها الإنسان عن الجبال، جعل كلام الله سائر لكلّ زمان ومكان، فقد توصّل العقل البشري على تفسير بعض الظواهر القرآنية، ولم يتبلور فهم هذه النصوص إلّا حينما وصلت مدارك الإنسان، ولازال يعجز عن شرح بعض النصوص إلّا إذا توصّل إلى مقارنة معرفية جديدة.

ب/البحار ظهر وباطن: تمثّل نسبة المياه على كوكب الأرض 71% حجمها بينما تمثّل اليابسة النسبة الباقية، وقد جعل الله الماء مصدر حياة _ كما ذكرنا _، واقترن خلق المياه بخلق العرش، بل كان عرش الله على الماء، وقد أنزله الله بقدر فأسكنه في الأرض، فلم يكن قليلاً ليهلك البشر ويتقاتل من اجله، ولا كثيراً فيهلك الحرث والنسل، إنّ الغالبية العظمى من مياه الأرض هي المياه المالحة الموجودة في المحيطات وهناك فقط جزء ضئيل للغاية من المياه العذبة التي يمكن الحصول عليها بسهولة، يمكن للمياه الموجودة على سطح الأرض أن تكمل دورتها بسرعة ولكن الكثير من مياه الأرض يكمن في الجليد والمحيطات والخزانات الجوفية وهذه المياه تكمل دورتها ببطء.

ودورة المياه معقدة وتتطوي على تغيرات في حالة المياه بالإضافة إلى الحركة الفيزيائية للمياه عبر الأنظمة البيئية وبينها، وتوجد المياه الجوفية تحت الأرض بين جزيئات التربة وفي شقوق الصخور وتغذي مستودعات المياه الجوفية والتي هي عبارة عن خزانات مياه جوفية الآبار، والبحار هي مجمّعات كبيرة للمياه.

وهذا المخلوق ذو الشّأن العظيم له في كتاب الله مساحة في أكثر من أربعين موضعاً، فهو أحد جنود الله في الأرض، وهو نعمة من نعمه يحمل الإنسان على ظهره، ويأكل ممّا في جوفه من السمك ويتّخذ منه حليّاً يلبسه قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ

¹ زغلول النّجار، الأرض في القرآن الكريم، ص 122

لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ [النحل: 14]، فكيف خلق الله اللؤلؤ والمرجان في البحار؟.

اللؤلؤ هو أقدم حجر كريم استخدمه الإنسان قبل أكثر من أربعة آلاف سنة، وهو جوهرة تتشكل بفعل حيوان بحري يسمى (المحار) أو بعض أنواع الرخويات مثل: المحار، وبعض الكائنات الرخوية الأخرى مثل: بلح البحر، والبطلينوس، ويوجد نحو (5%) منه في المياه المالحة والأكثرية منها في المياه العذبة، قال تعالى: ((وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ [فاطر: 12]، فالآية دلت على أن فالحلية تستخرج من المياه العذبة ومن المياه المالحة.

والأصل في اللؤلؤ أنه يتكوّن من تسعين بالمئة من كربونات الكالسيوم المتبلورة على شكل الكالسيوم أو الأرجونيت، وخمسة بالمئة من الماء، وخمسة بالمئة من مواد عضوية (بروتينات)، ومن عجائب مياه النهر الذي يصبّ في البحر، أن المنطقة التي يصبّ فيها يحمل خصائص تختلف عن خصائص الموجودة في أيّ مكان في البحر، وفيما توصّل إليه الإنسان في علمنا الحديث ميكانيك السوائل؛ أي أن سائلا كالماء تتحكّم فيه قوانين التوتّر السطحي الذي بواسطته تحافظ كلّ قطرة ماء على شكلها، ولولا هذا القانون الذي استودعه الله في الماء لما تماسكت جزيئات الماء.

وأن قوة التوتّر السطحي هذه وهي القوة التي تشد جزيئات الماء تتغير مع كثافة الماء ودرجة حرارته ونسبة الملوحة فيه وغير ذلك من العوامل فتجد أن النهر العذب له خصائص تختلف تماماً عن البحر المالح، وبالتالي فأيّ منطقة يلتقي فيه ماء عذب وماء مالح هي منطقة حاجز وتدافع ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ [الفرقان: 53]، ومرج بمعنى خلط، "

هذا عذب فرات أي حلو شديد العذوبة، وهذا ملح أجاج أي فيه ملوحة ومرارة، وروي عن طلحة أنه قرئ ، وهذا ملح بفتح الميم وكسر اللام، وجعل بينهما برزخا أي حاجزا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه، كما قال في سورة الرحمن مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان، وحجرا محجورا أي سترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر، فالبرزخ الحاجز، والحجر المانع¹، والحاجز المانع بين العذب والمالح جدار قوي، لأنّ هنالك فارقا في قوى الضغط التي يسببها النهر على البحر والقوة المعاكسة التي يسببها البحر على النهر، وتكون النتيجة أن هنالك منطقة متوسطة هي البرزخ وعلى جانبيه ضغوط مختلفة يتحملها وكأنه جدار محصّن.

ومن غرائب البحار أنّها تحمل الإنسان على ظهرها، ولم يكن للإنسان حيلة قبل طوفان نوح بأن يركب على ظهر البحر، فمعرفة الإنسان قاصرة تجاه هذه الفائدة، لأنّه كان يعتقد بأنّ جسمه الهزيل لا يستطيع أن يتخطّى به البحر لضخامته ومدى العمق الذي فيه، فمسألة السفينة هي وحي من الله تعالى: (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ [المؤمنون:27])، والمراد من قوله بأعيننا أي برعاية منا؛ " اصنع الفلك برعايتنا ورقابتنا؛ كمن يكون تحت العين والبصر"²، وعند التعبير عن هذه المعجزة العظيمة قال عز وجل: (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾ [القمر:13])، وهي كناية عن موصوف وقصد السفينة، وأرها البلاغي، تقديم الشيء على صورة أثره، وبيان عظمة الموقف بشيء بسيط وهي الحبال والألواح والمسامير، ويعبر القرآن الكريم عن هذا الابتكار بالفاظ: (الجوار) قال سبحانه: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ [الرحمن:24])، وهي من الفعل جرى أي تكون على ظهر البحر جارية تنتقل من مكان

¹القرطبي، أحكام القرآن، ج13، ص57

² محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج10، 5066

إلى آخر، ويسمىها القرآن أيضا بالفُلْكَ، " والفُلْكَ بالضمّ السفينة، وهي للواحد وللجمع، ومنه فلّكَ تفليكا أي لجّ، وشقّ البحر"¹، التعبير القرآني مناسب للسياق، فأحينا يأتي باللفظ بعينه في سياق ذكره، وإن أراد منفعته، ذكر ماهيّته ووصفه، وإن أراد الوصف، أتى بموصوفه، فكيف يفسّر ركوب السفينة البحر، ولمّ جاء حركتها باستخدام الفعل ركب، دون غيره من الأفعال؛ ومنه كان قانون الكثافة في قوانين الفيزياء نجد كثافة المادة = الكتلة/ الحجم، ومن خلاله نستطيع أن نتحكم في كثافة الجسم الذي يطفو فوق سطح الماء عن طريق تغيير حجمه مع ثبات كتلته، نفس قطعة المعدن التي غرقت نعمل على تغيير كثافتها بحيث تكون أقل من كثافة المياه كي تطفو نقوم بزيادة حجمها بعمل تجويف أو فراغ وسيمتلئ التجويف بالهواء، ومن المعلوم أن كثافة الهواء أقل من كثافة الماء، ففي تلك الحالة سيصبح متوسط كثافة الجسم الطافي عبارة عن متوسط كثافة المعدن بالإضافة الي كثافة الهواء أقل من كثافة المياه لذلك يطفو الجسم المعدني الطافي فوق سطح الماء، ومنه قانون الطفو ومبادئ أرخميدس، فالتفسير العلمي لما حدث وضحه أرخميدس في مبادئه، أو كما تعرف بقانون الطفو تنص على أن:

1. الجسم المغمور في سائل لا يتفاعل معه ولا يذوب فيه حجم السائل المزاح يساوي حجم الجسم المغمور، بتطبيق تلك القاعدة على السفن سنجد أن حجم الماء المزاح من مياه البحر يساوي حجم الجزء المغمور من بدن السفينة لمعرفة كمية الماء المزاح نقوم بضرب حجم الجزء المغمور من بدن السفينة في كثافة مياه البحر.

2. السائل يدفع الجسم إلى أعلى بقوة وأن قوة الدفع تساوي وزن السائل المزاح.

ومنه فالركوب لا يكون إلا للجسم الذي يملك القدرة على الحركة، وله مقومات الحركة، أو قوّة الدفع مثل الفرس والجمال أو الحمار مثلا، فالسفينة تقع تحت تأثير قوتين هما قوة الطفو

¹ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص856

وتعمل لدفع السفينة أعلي وقوة وزن السفينة وتعمل لأسفل، الفرق بين القوتين إذا كان موجبا أو متعادلا ستطفو السفينة وإذا كان سالبا ستغرق السفينة، لذلك عندما يقوم مهندسو بناء السفن بتصميم السفن يقومون بتصميم تجويف مناسب لزيادة حجم السفينة من خلال التحكم في طولها وعرضها وغطاسها بما يتناسب مع وزنها حتى تستطيع أن تطفو وتحمل البضائع. المتأمل إلى الكرة الأرضية عبر الأقمار الصناعية يجد بأن السحاب يغطي جوانب كثيرة من سطح الأرض خاصة البحار، لما فيها من تبخر المياه بسبب عامل الحرارة، هذه السحب تحجز أشعة الشمس إلا فيما ندر، وذلك الجزء الصغير يخترق أمواج البحر السطحية، وعن الغوص لنحو مائة متر تقريبا تنعدم هذه الأشعة.

ومع وجود هذه الأمواج في قاع المحيطات وبشكل قوي تتشكل لدينا طبقات من الظلمات، فالسحاب يقلل من أشعة الضوء، وكذلك الأمواج السطحية، يكون لدينا ظلام في قاع البحر، ومن فوقه طبقة من الأمواج الداخلية التي تضيف طبقة ثانية من الظلام، ثم يأتي الماء الموجود فوق هذه الأمواج والذي يضيف طبقة ثالثة من الظلام، ثم تأتي الأمواج على سطح البحر والتي تضيف طبقة رابعة من الظلام ثم تأتي طبقة الغلاف الجوي فوق سطح البحر لتشكل طبقة خامسة من الظلام ثم السحاب والغيوم الركامية التي تشكل طبقة سادسة، وهذا المشهد صوره القرآن الكريم في قوله: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ [التور: 40]).

وقد أقسم الله بالبحر في سورة الطور قال تعالى: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ [الطور: 6])، والمسجور من الفعل سجر؛ أي احترق، "حدثنا ابن حميد قال: ثنا يعقوب، عن حفص بن حميد، عن شمر بن عطية في قوله: قال: بمنزلة التور المسجور حدثني محمد ابن عمرو قال وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن قال: عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد (البحر

المسجور) قال: الموقد¹، وفي هذا التفسير قول صحيح علميًا " فبعد غوص الإنسان إلى أعماق البحار والمحيطات، وجد أنّ كلاً من محيطات الأرض وعدداً من بحارها يتّسع قاعه، بفعل التّحرّك بعيداً عن شبكة الصّدوع الأرضيّة، بفعل ما يندفع عبرها من ملايين الأطنان من حمم وطفوحٍ بركانيّة في درجات حرارة تتعدّى الألف درجة مئويّة، ممّا يجعل قيعانها مسجّرة فعلاً بدرجات حرارة عالية، وهي ظاهرة من أعظم الظواهر الأرضيّة وأشدّها غرابة، ولم تعرف تلك الظاهرة بأبعدها إلّا أواخر الستينات².

وقد أثبت العلم منذ سنة 1962 أن قاع البحر يتسع من منتصفه، واتساع البحر صفة تلازم بحار العالم اليوم، وأحدث محيط وهو البحر الأحمر الذي يسمى المحيط الوليد (Baby Ocean) يتسع قاعه منذ نشأته باستمرار، ويبلغ معدل اتّساعه السنوي حالياً 4 - 6 سم. والمعروف بالمشاهدة أن الحمم تصعد، من تحت البحر، من عند الأماكن التي يتسع فيها البحر، وتبرد وتكون قاع البحار. أن البحر الأحمر لم يكن له وجود في الزّمن الماضي وكانت أرض العرب وأرض أفريقية قطعة واحدة تشكل يابسة تسمّى الأرض العربية النوبية. ثم خسفت الأرض عبر الخط الذي يمتد بمحاذاة منتصف البحر الأحمر الحالي، وامتدّت الأرض من هذا الموضع، وتصدعت وأخذ الخسف يكبر شيئاً فشيئاً، وصاحبه هبوط الأرض، واتّصل جوفها بسطحها، وصعدت الحمم من باطن الأرض، وبردت الحمم لتكون أول جزء من قاع البحر، وكانت تلك اللّحظة شهادة ميلاد البحر. ومنذ تلك اللّحظة والبحر يتسع باستمرار من منتصفه، ومنذ تلك اللّحظة لا يتوقف صعود الحمم، ويظل البحر مسجوراً بالنار من منتصفه.

ومنه من يرى بأنّ تفسير هذه الظاهرة مخالفا لاشتعال النّار، ومنهم ابن عاشور: المسجور قيل المملوء، مشتقا من السجر وهو الملء والإمداد؛ فهو صفة كاشفة قصد منها التذكير

¹الطبري، جامع البيان، ج22، ص459

² ز غلول النّجار، المفعول العلمي للجبال في القرآن الكريم، ص20

بحال خلق الله إياه مملوءً بماءٍ دون أن تملأه أوديةٌ أو سيولٌ، أو هي للاحتراز عن إرادة الوادي إذ الوادي ينقص فلا يبقى على ملئه، وذلك دال على عظم القدرة¹.

ومن العلماء من رأى بأنّ هذا التفسير واقعي حيث: " أن 97,5% من الماء العذب على اليابسة محجوز على قطبي الأرض، وفوق قمم جبالها على هيئة طبقات من الجليد الذي يصل سمكه فوق القطب الجنوبي إلى أربعة كيلومتر، وفي القطب الشمالي إلى 3800 متر، هذا الجليد إذا انصهر يقدر له أن يرفع منسوب الماء في البحار والمحيطات بأكثر من مائة متر، وقد انصهر في عدد من الأزمنة الأرضية السابقة فغمرت مساحات أكبر من اليابسة التي نحيا عليها اليوم، فيما يُعرف بالأزمنة الجليدية فحجزت مساحات أكبر من الجليد فوق اليابسة، فانحسرت البحار كثيرا عن حدود شواطئها الحالية"²، فيمكن للفظ واحد ورد في سياق معيّن أن يحمل أوجه عديدة من الاستعمالات السياقية، وما النصّ القرآني إلّا كلام الله الذي يوجّه خطابه إلى البشر من أجل السعي وراء تأويله، وما يُحسن تأويله إلّا أولي العلم والبصيرة في كلّ الأزمان.

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص40

² زغلول التجار، المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، ص18

❖ الفَصْلُ الثَّالِثُ:

الأنساق الثقافية والمعرفية لفضاء الكون والبشرية.

- تمهيد: منهجية القرآن المعرفية:
- المبحث الأول: الأنساق الثقافية والمعرفية لبذرة الحياة
 - أولاً: حياة الكون بذرة وفضاء دقيق
 - ثانياً: حياة الإنسان بذرة وفضاء عجيب
 - ثالثاً: الحياة فضاء رحب للإنسان
- المبحث الثاني: الأول النسق الثقافي للكينونة البشرية
 - أولاً: نسق الخلقة والصورة
 - ثانياً: نسق الالتحام واختبار
 - ثالثاً نسق الاستمرارية والتناسل
- المبحث الثالث: الأنساق الثقافية والمعرفية لنشأة الكون والبشر
 - أولاً: أنساق فضاء القلب
 - ثانياً: نسق التفكير والشعور
 - ثالثاً: مساحة الوجدان البشري

❖ الفصل الثالث: الأنساق الثقافية والمعرفية لفضاءات الكون والبشرية

تمهيد: منهجية القرآن المعرفية:

الخطاب القرآني ليس خطابا خرافيا، ولا مسحة سحرية، أو أقوال الكهّان، وقد تحدّث القرآن الكريم ودافع عن نفسه في أكثر من آية، فهو خطاب إلهي للبشر جميعا بل للعالمين، فحتى الجنّ لهم أن يقرأوا القرآن ويدبّروا آياته، والمنهج الربّاني في هداية خلقه منهج اصطفائي اختياري أي يختار الأفضل لرسالته من بين الملائكة ثم من بين البشر، وحتى أنّه يختار النسل الأفضل إذ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:33]، فذكر أبى البشر آدم عليه السلام ثم نبي الله نوح الذي كان أنبياء علامة فارقة في حياة البشر بأن وضع في السفينة من آمن به فقط، ثم ذكر ابراهيم أب الأنبياء الذي كن من نسله اسحاق ويعقوب وشجرة الأنبياء من بعده انتهاء بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن ذكر آل عمران الذي من نسله زكريا ويحي ومريم وعيسى عليه السلام.

فكلّ الأنبياء بُعثوا لأقوامهم إلّا خاتم الأنبياء الذي بعث رحمة للعالمين كافة ومعه القرآن المعجزة الأعظم، فالقرآن كتاب للعالم أجمع، ولما كان القرآن على هذا الوصف، فإنّ الرسول هو معلم البشرية، وبهذا فكلّام الله خطاب توجيهي إرشادي قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:9]، وعند قراءتنا لكلّام الله نجد بأنّه منهج تعليمي يدعو إلى البحث عن المعرفة فأول آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (العلق من 1 إلى 3)، فهو يجمع بين العلم والهداية.

فلا يمكن أن تهتدي إلا باكتساب العلوم والمعارف، وبذلك تعرف خالقك، لا أن تشك في وجود الخالق ممن أجل أن تصل إلى المعرفة كما ذهب في ذلك المعتزلة، بل يجب أن تدرك بأن الله موجود ونحن علينا البحث عنه، وهذا ما طبقه رسولنا صلى الله عليه وسلم حينما اختلى بنفسه في الغار، بحثاً عن دليل يوصله إلى المعرفة اليقينية.

لو نتفحص آيات الله نجد أن الاستعمال المعجمي للفظ عرف يقارب مفهوم اليقين أو الحقيقة الثابتة التي لا يمكن تزيفها، ولا يهتم القرآن الكريم بالوسائل المجدية لها، بل في سياق الآية نرى بأن الدلالة تُعنى بالحقيقة المجردة الخالية من التحريف والهروب منها يقول تعالى عن أهل الكتاب لما تيقنوا أن محمد هو النبي الفعلي للأمم المسلمة: (الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾) [البقرة: 146]، وفي موضع آخر تتجلى مفهوم المعرفة في الخطاب القرآني بمعنى اليقين قال سبحانه: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَمَنَّا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾) [المائدة: 83].

فهنا مصدر المعرفة كان السماع، ولكن هذا السماع لم يكن وحده كافٍ للوصول إلى اليقين بالحق بل زاده بسطة في الفهم وعناية بالإدراك الحسي والعقلي، ولهذا تسارعت الأعين إلى البكاء في فيض عاطفي دافق، ويتجه الفهم القرآني إلى موضوع الملامح التي توحى للإنسان بمعرفة أمر معين، وهي جانب تتداخل فيه كل العوامل من الفراسة والفتنة والدَّهاء، وهي السمات التي يلاحظها الإنسان في أخيه أو شيء من الأشياء فتوصله إلى معرفة مجردة خالية من الزيف والتحوير يقول تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾) [البقرة: 273].

فسيمائية الصورة توصل أيضا إلى المعرفة، ويركز النص القرآني على هذا الفهم الدلالي والمعجمي المتضمن العلامة أو المؤشر الموصل للمعلومة والذي يتميز به الانسان دون غيره من المخلوقات في قول عن أصحاب الأعراف يوم القيامة: (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾) [الأعراف:46] وقال أيضا: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾) [الحج:72]، فدلالة المعرفة في كلام الله مرتبطة بالحقيقة المجردة اليقينية، وهذا ما ثبت في الآيات التي ذكرناها أو حتى التي لم تذكر في هذا السياق.

ومنهج القرآن الكريم استقصائي إذ يحث الإنسان على التساؤل واستخدام النظر والفهم الصحيح للعالم والبحث في الموجودات وماوراءها عن طريق الملاحظة والتفكير، واعمال العقل والبصيرة إذ يقول سبحانه: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾) [الأنعام:46] وفي هذا تبصرة للإنسان فيما إن ذهب سمعه وبصره وعقله، ويبقى يتنفس فقط هل يستطيع العيش أو الاستمرار، وفي القصص القرآني عبر كثيرة فنرى تكرار الفعل انظر في قصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه قال تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ۖ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾) [البقرة:259].

وفي الفعل (انظر) بعث على التأمل وتشديد الملاحظة، والاستدلال والبرهان على الفعل وردة الفعل، ويتطرق الخطاب القرآني إلى استقراء ما في الطبيعة والكون والبحث في الوجود، من باب الحجاج والبرهان على وجود المنعم سبحانه، وفي الآية دعوة على استكشاف الكون واستنباط ما في الوجود، في بنائه وتركيبته من خلال الاختلاف والتنوع ومراحل النمو، وفي هذا انفتاح على المعرفة الحسية والعقلية والنظرية والعلمية ويقودنا هذا التأصيل إلى التفريق ما بين العلم والمعرفة.

ونظرا لاختلاف أهل العلم في تحديد الفرق بين العلم والمعرفة، فيمكن الانطلاق من القرآن الكريم الذي يميز بينهما، فمن أسماء الله الحسنى العليم، وليس العارف، فالعلم ما سبق الحقيقة المجردة وكان عينها ووقعها الذي لا لبس فيها، فالله لم يسبق أحد بعلم فهو يعلم ما سبق وما لحق، وينظر الجرجاني إلى العلم من هذا الباب من خلال قوله: "الاعتقاد الجازم المطابق للواقع"¹ بينما يرى المعرفة: "إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقه بجهل بخلاف العلم"²، أما من حيث اللفظ والمعني في الاستعمال القرآني نرى بأن الفعل (عرف) يتعدى إلى مفعول واحد قال تعالى: (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾) [يوسف:58]، والفعل (علم) يتعدى لمفعول واحد ومفعولين قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْءُلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾) [المتحنة:10].

¹ الجرجاني، التعريفات، ص200

² المصدر السابق، ص275

ومن حيث المعنى فالمعرفة تغوص في ذات الشيء، والعلم يتعلق بأحواله ويفسر ظواهره، ويربط الأسباب بالنتائج قال تعالى (أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾) [المائدة:98]؛ فالعقاب ظاهرة وحالة، والعلم بها يأتي بعد العقاب وسبب العقاب المعاصي والآثام أو الكفر، المعرفة مشهد للشيء وصورته المطابقة لما تُمليه النفس، والعلم ظاهر في صفته وهيأته، فالمعرفة أقرب إلى الخيال والعلم أقرب إلى الواقع فهو يمتاز بالتصديق، الخيط الأبيض بين المعرفة والعلم كمثل الطلاء للبيان فبعد الفراغ من اكتشاف الشيء والتعرف والتأمل والبحث المستمر، وبه يصل الانسان إلى العلم القائم على التجربة والاستنتاج والثبات، فالعلم قائم على الاستدلال والمعرفة مرادها الاكتشاف وهما على تكامل لا تتافر.

ومنه فإنه يجب أن نفهم القرآن انطلاقاً من أنه بحث مستمر في الوجود وفي هذا يقول الحكيم العليم: (سُنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾) [فصلت:53]، هذه الآيات وغيرها حرّكت مشاعر وعقول علمائنا قديما وحديثا بحثا عن مكنوناته واستشفاف معجزاته، وإنارة درب العارفين بالله، وإيقاظ عيون وقلوب الغافلين.

وعليه فعلمائنا قديما كانوا يشتغلون في مجال الدراسات القرآنية على نظمه وبنائيته ووجه تفرّده من قبيل الشعر والنثر كالجرجاني والزمخشري والزّمانى والباقلاني والجاحظ وغيرهم، أما علماء التفسير كان همّهم تقريب المعنى واستنباط الأحكام وتسهيل الشرح وفهم النص القرآني، أمثال ابن كثير، والرازي، وحتى المتأخرين كابن عاشور، والشعراوي، وحتى السيّد قطب، فإن من واجبنا كدارسين طرح اشكالات والخوض في تحديات جديدة نظراً لأهمية تأطير القرآن لتفاعل المسلم مع النظم الوافدة (المناهج والأفكار والثقافات)، وضرورة الانطلاق من كلياته وثوابته وأنساقه المهيمنة، وهو نوع من أنواع المعالجة الموضوعية لقضايا القرآن الكريم، ذلك أنّ القرآن الكريم لا يتضمّن التفاصيل العلمية شأن المراجع

والموسوعات في المعارف المختلفة، ولكنه يهتم بالأنساق المؤطرة والنماذج المعرفية الموجهة، والتي يؤدي عدم الوعي بها إلى الاستهلاك المعرفي المفضي إلى الاستلاب دون وعي من المستلب.

والبحث في المعرفة بالله يقودنا إلى ما توصل إليه الانسان من معارف أدت به إلى معرفة خالقه، وحين يقرأ القرآن يستند إلى قوله فينبهر بما علم به من خلال آياته عليها الدالة على وجوده سبحانه، فهو الذي أوجد هذا الكون وما على الانسان إلا السير فيه فهو مسخر له، تتجاذب على رؤانا ومسامعنا آيات الله في الكون عليها دون تمحيص حتى يأتي العلم وما توصل إليه العالم من مدارك وعارف فندرك بأن هذه الصورة وهذا المشهد موجود في كلام الله، وعليه ستأخذنا هذه الدراسة إلى الكشف عن سر الآيات في خلق هذه الفضاءات الكونية الوجودية ونعلم سرّها ونجوها من خلال استقراء أقوال العلماء في الإعجاز وراق الآية وربطها الآية دلالة ومعجمية.

ومنه يتسنى لنا أن ندرك بأن الخطاب القرآني ثقیل بالمعارف واسع المدارك غزير في فهمه يحمل النص القرآني خطابا للإنسان من جانب أنه أفضل الخلق لديه فهو المُنعمُ بخاصية العقل، ونجد هذا الأثر في كلام الله عند نهاية الآيات: (إنّ في ذلك لآيات لأولي النهى، إن في ذلك لعبرة، أفلا تعقلون، أفلا يتفكّرون وهكذا)، فالإنسان هو محل الخلافة والتمكين في الأرض، لذا فتركيبية الإنسان تحتاج إلى دراسة باعتباره فضاء يحمل ثلاثية هي العقل والنفس والقلب، وسنرى كيف أن الخطاب القرآني عدّ هذا كمكان تتلاحم فيه مجموعة من الدلالات النسقية الظاهرة والمضمرة.

وإذا ألقينا نظرة إلى مفهوم الإنسان عند الفلاسفة فنجدها متباينة، لدواعي دينية وأخلاقية وأحيانا إيديولوجية، فهناك من يربط مفهوم الإنسان بالله وهذه الفكرة متجلیة عند الفكر الأرثوذكسي فيجيب مثلا (فيروباخ) عمّا حقيقة الله؟ إذ يقول " إن الله باعتباره صورة لكل الحقائق والكمال، إنما هو صورة شاملة تهدف إلى إفادة الشخص المحدود، وهو صورة

لصفات الإنسانية موزعة بين البشر متحققة ذاتياً في صورة الأجناس وعلى مسار تاريخ العالم¹.

والله لا مثيل له فهو القاهر فوق عباده إلا أن الإنسان كائنٌ محدود بالنسبة للإله ولكن في الآن ذاته إذا اجتمع مع أخيه فهو يعبر عن إنسانية الإنسان والإله أكبر من هذه الإنسانية فهو الخير والرحمة ويذهب هذا المذهب (بردياليف) بالقول: أنا بطبيعة الحال صاحب نزعة إنسانية وما دمت أؤمن بقدسية الإنسان وبالتالي بإنسانية الله، فأنا في الواقع أؤمن بأن الله أكثر إنسانية من الإنسان، أو بأن الله إنساني²، وليس الله إنساناً وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، ولكن أصحاب النزعة الإنسانية يرون بأن الإنسان هو الوجه المقابل أو الأثر المرتبط بكل القيم والأخلاق المقدسة، وإنما إنسانيته مرتبطة بهذا المفهوم للآهوت. وإذا ألقينا نظرة على الفلسفة الإغريقية فإننا نلاحظ مبدأ الأصل أو الوجود ومبدأ الاختلاف ظاهر في فلسفاتهم ويرتكز مفهوم الإنسان مرادفاً لدلالة اللوغوس (Lougos)، ولم تتل هذه الكلمة الترجمة الصحيحة عند العرب بل هناك من تطرق إليها مفهوم العقل، أو الإلاه، ويعتبر هيراقليطس أول من جعل هذا المفهوم ركيزة لفلسفته، حيث جعله مبدأ كلياً يدبر العالم المادي، أي العقل الكلي الذي يصنع التغير في العالم، فهو بهذا جعل « الأشياء حولنا هي بين معقول ومحسوس»، وبهذا أكد أن العقل طبيعة إلهية بينما الحواس تنقل إلينا الوهم.

وجاء برامينديس من بعده ليرد القول بالضرورة والتغير التي يصنعها العقل الإلهي في العالم، لكن تفلسف داخل نفس البنية المفهومية التي وضعها هيراقليطس، فجعل الوجود المحسوس مجرد وهم وليس فقط ما تنقله الحواس، وجعل الوجود الحقيقي معقولا ثابتا لا

¹ وشيهيكو إيزوتسو، ترجمة، هلال محمد الجهاد. الله والإنسان في القرآن - علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم. دار المنظمة العربية للترجمة، ط1. 2007، ص128

² أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ. بيروت. دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 2008،

يتحرك، وقال بوحدة الوجود: " كل شيء واحد ما يلفظ به ويفكر فيه يجب ان يكون موجودا"¹ ، وأفلاطون لم يبتعد كثيرًا عن هذه المعاني فلقد كانت فكرة برامينديس، أن ما نفكر فيه ونقوله يجب ان يوجد؛ هي القاعدة التي بنى عليها افلاطون تصوره لعالم المثل عالم الكليات والمعقولات الثابت الذي لا يدرك بالحس بل بالعقل فقط، والكليات هي ما نقوله، والمعقولات ما نفكر فيه، فجعلها شيء واحد موجودا في الخارج.

والأمر الجوهرى في فلسفة أفلاطون هو الوضع الأنطولوجى للنفس العاقلة الإنسانية، فقد حدث أن كانت النفس تعيش في عالم المعقولات الخالدة، لكنها سقطت في المادة وسجنت في الجسد، فحجبت كثافة المادة ذاكرتها، لكن في مستطاع العقل شق حجب الجسد وتمكين النفس من تذكر أصلها، او نمط وجودها الذي يلائمها هو الارتقاء في التفكير والمعرفة الى عالم المعقولات الإلهية، للخروج من وضعية السقوط، وهكذا يكون حد الفلسفة عنده هو: " التشبه بالإله على قدر الطاقة "².

ومن هذه البنية المفهومية انطلق أرسطو من فكرة الإنسان حيوان ناطق وهكذا نجد الفلسفة اليونانية تتطلق من فكرة العقل المجرد للوصول إلى فكرة الإله، و انتقل هذا المفهوم للإنسان عند فلاسفة التصوف ولكن من مفهوم العقل إلى الولي، ولعل أول رجل صوفي عرّف النَّصُوف والطائفة الصوفية هو القشيري في رسالته، إذ يقول: " جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه... صفاهم من كدورات البشرية، ورقاهم الى حال المشاهدات مما تجلى لهم من حقائق الاحدية، ووقفهم للقيام بأداب العبودية، واشهدهم مجاري احكام الربوبية"³، ولعل أول من اشتغل بالفلسفة اليونانية في هذا الشأن هو جابر ابن حيان إذ يقول: " حد العلم العقلي:

¹ إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الميتافيزيقيا، النهضة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، د، ت، ص 96

² ، فريدريك نيتشه، الفلسفة في العصر التراجيدي عند الإغريق، ترجمة محمد الناجي، دار أفريقيا الشرق، الرباط المغرب، ط1، د، ت، ص 26

³ أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تح عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، ط1، دار الشعب، القاهرة، مصر، د. ت، ص 512

أنّه علم ما غاب عن الحواس وتعلّى به العقل الجزئي من أحوال العلّة الأولى، وأحوال نفسه وأحوال العقل الكلي، والنفس الكلية والجزئية، فيما يتعجل به الفضيلة في عالم الكون ويتوصل به الى عالم البقاء¹، وبالتالي يمكن للعقل أن يتّصف بصفات الإلاه (العلّة الأولى) وأنّ الفضيلة ستوصله الى عالم البقاء، وهذا ما قاله هيراقليطس وافلاطون وغيرهم.

وتلميذه ذو النون المصري يرى أنّ الوليّ الصوفيّ أو ما يطلق عليه (العارف) مثل الله، وأنه متخلق بأخلاق الله، ومرد الأمر كله الى افلاطون بأن الحكمة أو الفلسفة هي التشبيه بالإله، وهكذا انقلب العاقل في النسق اليوناني الى العارف الولي في النسق الصوفي، والمعنى المقصود واحد، وقد اتهم ذي نون بالزندقة لأنّه أحدث علما في الدّين لم يكن في عهد الصحابة ونجد الكندي يوافق أفلاطون في الجمع بين ذات الإنسان (لوغوس) بالذات الإلاهية، والنفس عنده تركيبة من لدن الباري سبحانه حينما يقول: "النفس على رأي أفلاطون وجل الفلاسفة باقية بعد الموت وجوهرها كجوهر الباري عز وجل في قوتها إذا تجردت"².

فيرى بأنّ النفس باقية وجوهرها كجوهر الباري وهي كمقياس الشّمس من الضياء، ولذا نرى من المتصوفة من يؤمن بفكرة (الحلول)، وهي نتيجة منطقية للاتساق مع مقولة التشبيه بالإله المعقول، فهم يؤمنون بفكرة وحدة الوجود وهو ارتقاء النفس إلى الخارق وانحلالها في الملكوت المجرد، فتسقط بذلك الشريعة ويصبح الانسان الكامل الذي يتميز بصفاء الروح ونقاء السريرة وهي نفس الفكرة التي يطرحها أفلاطون من أن الأجساد تموت وتبقى الأنفس محل استغاثة لمن أراد أن يستغيث بها، ويذهب هذا المذهب كثير من المتصوفة بعده كابن عربي إذ يقول: "أعطتنا الحقائق ان الانسان الكامل لا يبقى له في الحضرة الإلهية اسم [من اسماء الله] الا هو حامل له"³، ويقول القوني تلميذ ابن عربي واصفا الإنسان الكامل

¹ عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي عند العرب، الهيئة المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1989 ص171

² الكندي، رسائل فلسفية، تح محمد أبو ريدة، ط1، مطبعة الاعتماد، القاهرة، مصر، 1369 هجرية، ج1، ص264

³ محي الدين ابن عربي، حلية الإبدال، وقفية الأمير غازي، عمان الأردن، ط1، 2010 ص9

هو الحق، هو الذات، وهو الصفات، وهو العرش، وهو الكرسي، وهو اللوح وهو الوجود وما حواة¹.

وبهذا سلك المتصوفة مذهب اليونانيين في تحديد مفهوم الإنسان وآمنوا بوحدة الوجود أو الإله المطلق الذي هو عين الأشياء، ويرون بأن الحقائق تتبع العقائد أي ما تفكر فيه هو عين الحقيقة، وبهذا انطلقوا من العقل إلى الولي، فإن كان الولي عند أهل السنة هو الرجل الورع الصالح الذي يتصف بالتقوى، فإن مفهوم الولي عند أهل التصوف هو الرجل الكامل الذي يتمثل بالإله، فيصبح الإنسان العاقل هو المتجرد من كل سوء الفاعل الحقيقي للوجود، ولذا نرى الأضرحة بآئنة لكل ولي صالح يستغاث به، ولكن في الحقيقة يستغاث بالإله وما هو إلا عقل يماثله.

بينما الإنسان في الحادثة وما بعدها انطلقت من فكرة اللغوس عند فلاسفة الإغريق ولكن أضافوا لها مسألة التفكير أو الإبداع فصار بذلك متحدًا مع الوجود وبهذا آمن بعض الملحدين فكرة الإله أو فكرة الأصل في الأنواع مادية، ينطلق ديكارت من مقولته المشهورة: "أنا أفكر إذاً أنا موجود"، فما داعي قوله هذا؟ السبب الرئيسي في ذلك أن ديكارت ومن بعده من أصحاب المدرسة العقلية ينطلقون من فلسفة أفلاطون للوجود، فهم يطوفون في نفس المعاني، أن المقوم الحقيقي للإنسان هو العقل، وبهذا يلغي الجانب الروحي والإحساس، أو الجانب المادي الملموس، ويرى ديكارت أن العقل "أعدل قسمة بين الناس"².

وبذلك بدأ يظهر في المركزية الفلسفية الغربية ملامح استقلالية الإنسان عن الإله أو الدين، وسيصبح الإنسان مركز، قبل أن كان الإنسان هو المنطلق نحو الإلاه، وقد أسس كانط الأخلاق من منظور العقل وبهذا فصل مسألة الدين، وحول مفهوم الواجب إلى قانون عالمي

¹ عبد الرحمن بدوي، الإنسان الكامل في الإسلام، ديوان المطبوعات، الكويت، ط2، 2002، ص 147

² المرجع السابق، ص 54

إنساني إذ يقول: "أفعل على نحو تعامل الإنسانية في شخصك كما في شخص غيرك"¹، وبهذا يصبح الإنسان رهين عقله ولا يرى الحقيقة إلا بالتجريد من كل شيء يؤدي إلى مخالفة التوجيه الذي يراه مناسباً بعيداً عن النزوات والأهواء.

ومما سبق اتضح أنّ مفهوم الإنسان عند الفكر المسيحي هو الإنسانية الأخلاق والدين ونور الرب، بينما في الفكر الفلسفي الإغريقي ينطلق من العقل إلى الإله بينما عند المتصوفة المتأثرون بالفلسفة اليونانية، جمعوا بين ماهو عقلي إلى الله وهكذا تكرر عندهم مفهوم الولي الصالح، وبالرجوع إلى الفلسفة العقلانية نجد بأن الإنسان العاقل هو الله، وهكذا تبين أنّ الفكري الحدائي أسس لمفهوم العلمانية انطلاقاً من فكرة اتحاد العقل مع الوجود بعيداً عن كل مؤثرات الحياة البشرية أو حتى النفس البشرية.

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم بنظرة المتأمل العاقل نجد بأن كل هذه المعتقدات باطلة، من حيث المنهج، أو من حيث الواقع والحقيقة، فالله واحد أحد فرد صمد لم يكن ليتحد مع العقل والإنسان، ولا الإنسان يمكن أن يصل إلى مرتبة الألوهية، بينما الإنسانية هي نسيج أخلاقي قد يكون مستمداً من الدين أو العرف أو العقل كفعل إجرائي يمتاز بالقرار، بينما الله عرف بنفسه في كلامه بوحديته وبربوبيته وبأسمائه وصفاته.

ومن الأسماء الحسنى التي وردت في القرآن الكريم نجد ما يلي: أسماء الله بذاته تعالى وهي: الواحد، الأحد، القدوس، الصمد، الأول وأسماء متعلقة بالتكوين وهي: الخالق، الباري، المصور، البديع، وأسماء متعلقة بصفتي الحب والرحمة وهي: الرؤوف، الودود، اللطيف، العفو، الواسع، الوهاب، وأسماء متعلقة بعظمة الله وجلالته وهي: العظيم، العزيز، العلي، الكبير، الحميد، المجيد، ذو الجلال والإكرام، أسماء متعلقة بعلمه تعالى وهي: العليم، الحكيم، السميع، البصير، وأسماء متعلقة بقدرته تعالى وتدبيره للأمور وهي: القادر، الوكيل، المالك، الفتاح، الحسيب وغيرها، كما نجد أيضاً أسماء أخرى لم ترد في النص القرآني

¹ إيمانول كانط، أسس ميتافيزيقيا الأخلاق، تر نازلي إسماعيل ومحمد فتحي الشنيطي، دار موفم للنشر، ط1، ص288

ولكنها استمدت من أفعال الله تعالى أو من صفاته وهي: الباسط، الوارث، الجامع، المغني، المحيي، المجيب، وكل هذه الأسماء نجد اسم أعظم إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو وهو يقول: " اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، قال: فقال: "والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى"¹.

أما المفهوم الإسلامي للإنسان فينطلق من القرآن الكريم الذي سمى سورة كاملة باسمه، وفي هذا يمكن أن نخوض فيه انطلاقا من قناعتنا بأن الإنسان فضاء داخلي من صنع الله كما صنع السماء والأرض وأوجد ما بينهما من الأمكنة المختلفة، كذلك الحال بالنسبة للإنسان فقد خلقه وسواه في أحسن صورة ممكنة، وبجله وخصه بمجموعة من السمات يختلف عن سائر الخلق حتى الجن، ولهذا سنحلل الخطاب القرآن لنستمد هذا المفهوم، ولعل الإنسان في الخطاب القرآني هو كل متكوّن من الإنسان كمخلوق أو كوجود، ومن القلب، والعقل، والنفس.

يقارب هذا المفهوم ما طرحه أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، وهو كتاب علمي مكتمل، يجمع بين الدين والتربية والسلوك، والمعرفة بالإضافة إلى الفلسفة والكلام، وقد تطرّق الغزالي إلى واحدة من القضايا الكبرى التي ضلّت فيه الفلسفة قديما وحديثا تجنح إلى العقل وتجعله مقدّسا، إلى أن صارت المادية العالمية سلوكا بشريا، ولكن لا يكون اعتمادنا على منطق النظرة الفلسفية، والاستقراء والتجريح في طرح تهافت الفلاسفة حول المنطق وتراث الإغريق بل بتحليل نقدي أدبي.

¹ فرج الله عبد الباري. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، دار الأفاق العربية للنشر والتوزيع والطباعة، القاهرة، مصر، ط1، 2004، ص112.

ونعتمد في استقراءنا وتحليلنا لدلالة الأمكنة المغلقة في الخطاب القرآني إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة للإنسان ومصيره، ومهمته في الكون، والغاية التي من أجلها خلق، وكذا مناهج تفكيره ومحلّه، وما محلّ الأحاسيس والمشاعر؟ وهل الإنسان عقل وجوارح أم كليهما معاً؟، ما دلالة الإنسان ككائن وجودي؟ ما معنى الوجود؟ هل الله موجود أم على العرش استوى، وإن كان هذا الطرح قد تطرقنا إليه في دلالة الفضاءات الكونية؟ ولكن سنثبت ونبرهن من خلال ما ننجزه.

❖ المبحث الأول: الأنساق الثقافية والمعرفية لبذرة الحياة

أولاً: حياة الكون بذرة وفضاء دقيق:

بحث الانسان منذ القديم عن براهين وأدلة تنقله إلى فهم بداية النشأة الكونية، ونرى في الديانة المصرية فكرة الخلق والبداية أنه لم يكن إلا الإله الواحد (أتوم)، ثم كَوّن نفسه في المياه الأبدية نون قبل أن تتكون السماء والأرض، ففكر أن يخلق له رفقاء فانفلق فأوجد آلهة منها (شو، ونوت وإزيس ونفتيس) وغيرهم، ومنها نظرية الهيولا عند الفلسفة الإغريقية التي تقوم على فكرة القدم، والإغريق يظنون أنّ الآلهة ليست أقدم الوجود، وترتيب التيوكونيا (تتاسل الآلهة) وهو عنوان كتاب هوزيود الكتاب المقدّس عند الإغريق الذي يرى بأن أقينوس (الماء) هو أو أول الوجود، وهذه العبارة موجودة عند هوميروس، والاعتقاد الديني عند الإغريق ينطلق من أن الوجود قبل الآلهة والإلاه يأتي بعده ليُنظّم الوجود، بينما يرى أفلاطون أن الإلاه هو الخالق جامع الخير والوجود، وأرسطو يجمع بين الهيولا (المادة) والإلاه المنظمّ لها، وأتى فالتوتين بالحلّ وقال بأن الإلاه هو قديم والوجود فاض منه، وجاءت بذلك نظرية الفيض أن الوجود هو فيض من الإلاه.

أ/دلائل خلق الكون وآياته: خلق الله الكون وفق نظام دقيق وعجيب، وربط الله الأسباب والمسببات، فكلّ مخلوق في الكون إلّا وله منشأه (سببه)، ومقصده وغايته (مستبّه)، فإذا ألقيت نظرة على النظام الموجود في الطبيعة من أنواع المخلوقات ستتوصل إلى نتيجة مفادها الحفاظ على النظام البيئي الصالح للعيش، فكل مخلوق وجد لغرض.

وكذلك الحال بالنسبة للكون من السماء إلى الأرض والجبال والبحار والأنهار، وغيرها من الأمكنة، يجب أن نفهم أن الانسان محدود عقله تجاه العالم من حوله، فهو يرى الأشياء بمنطق المعقول ولّامعقول أي إذا نظر إلى الطائر يطير في جوّ السماء كان ذاك معقولاً

ينطبق على العقل لأنها رأها منذ عديميته (جهله) كذلك، لكن إذا رأى قطاً أو كلباً يطير استغرب ذلك.

لكن إنمّا عدنا إلى المقدرة الإلهية فذلك كائن ويكون، ولذلك جاء مدلول الإعجاز ليُصوّر حقيقة أنّ الذي خلق العالم بنظام منطقي عقلاني، قد يصبح في لحظة غير ذلك لأنّ هناك قوّة خارقة هي من تتحكم فيه، ولو أدركنا هذا الفهم الصحيح لمفهوم الكون، لكان إيماننا بالله واليوم الآخر أقوى، فالقيامة من بين مدلولاتها هو اضطراب هذه الأسباب والمسببات، فأصحاب النظرة المادية للكون والملحدين يفسرون العالم ومظاهره علمياً (الاحتمية واللاحتمية)، ولكن الذي أوجد هذا النظام قد يُخلّله في آية لحظة ومن هنا نفهم قوله تعالى: (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾) [البقرة: 117]، فمن الإبداع أن تملك مفاتيحه والمقدرة على التّغيير.

والشاهد قصة موسى عليه السلام مع البحر والعصى، وقصة إبراهيم عليه السلام مع النار: (قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾) [الأنبياء: 69]، فوجه الإعجاز هو الانتقال من شيء مألوف إلى شيء غير مألوف في لحظة، فالاحتراق يكون حتماً بسبب النار، ولكن عدم الاحتراق مع وجود النار صار أمراً غير طبيعي وهنا ينمّ الاعتقاد السليم بوجود قوّة تُبطل هذه الالزامية وهو الله، ونرى الأنبياء والمرسلين جاؤوا بآيات اخترقت الحقيقة المنطقية والواقعية، فصار ذلك إعجازاً لزم التّصديق به، فلا يمكن أن نقول الإعجاز العلمي عندما نريد تفسير ظواهر الكون التي تحكمها أسباب ومسببات، وإنّما التّفسير العلمي، أو النّسق المعرفي الموجود في الكون، ولو كان ذلك إعجازاً لما توصل إليه الإنسان وفسّر ظواهره وشرح مقاصده فصار معرفة إنسانية، ويأتي القرآن تصديقاً لهذه المعرفة، فهو الذي يحثنا على أعمال أدوات المعرفة ان أمكن لنا ذلك مادام كلّ شيء مسخر لنا لنعرف الله ونُعظّم شأنه.

ب/دلائل بداية الخلق: وفي هذا السياق نورد ما قاله الأعرابي الذي تحدّث انطلاقاً من فطرته السليمة: البعرة تدلّ على البعير، والخطو يدلّ على المسير، والسّماء ذات أبراج، والأرض ذات فجاج ألا تدلّ على الخالق القدير؟ وفي هذا تساءل المتسائلون مخلوق وجد في الوجود، وكيف كانت نشأته؟، ولعلّ الفلسفة الإسلامية هي الفلسفة الأولى التي فسّرت فكرة الوجود وفي هذا خاضت المدارس الكلامية وهذا انطلاقاً من فكرة الإله القادر، كنظرية الفيض عند الفارابي، وابن رشد الذي أدرج فكرة الرّمانيّة، وهي من أنّ الوجود قديم عن الزمن.

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: قال دخلت على النّبِيّ صلّى الله عليه وسلّم وعلفت ناقتي بالباب تميم، قالو: قد بشرتنا فأعطنا مرّتين ثمّ دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال اقبلوا البشرى بأهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جنّناك نسألك عن هذا الأمر قال: كان الله ولم يكن شيء غير هو وكان عرشه على الماء.

فيشير الحديث النبوي الشّريف إلى أنّ أول الخلق كان الماء، وأنّ الله بائن لا إله قبله، وفي هذا ردّ على فكرة أصل الوجود التي اتّسم بها المخزون المعرفي والفلسفي منذ الإغريق، وقد نطرد هذا الوهم عن فكرة المادة بالقول: ما أدركنا أنّ هذا الوجود واحدٌ ولم تكن هناك موجودات أخرى واندحرت؟ وهذا ما يقودنا إلى ملفوظ الخلق دون الوجود، فالخلق هو الإيجاد من عدم، قال تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾) [العنكبوت:20]، فبمقدرة من خلق أن يذهب به، أو أن يعود على أنّ فكرة الوجود هي التي تتصف باللامتناهي.

أمّا في النّظرية المعرفية الحديثة فتوجد قرائن علمية تشير إلى أنّ أول الخلق كان الماء، فالإنسان لم يرى بداية الخلق، بل جعل الله له الأدوات التي توصله إلى المعرفة اليقينية، فحاول ان يكتشف هذا الدليل قال تعالى: (وَمَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ﴿٥١﴾) [الكهف:51]، فالوجود لم يكن أزلياً إطلاقاً،

بل كان من صنع الله تعالى، فقد كان الله ولم يكن شيء غيره ثم كان العرش والعرش على الماء، ثم بداية الكون كان بين الفتق والرتق وفي قوله تعالى ما ينص على ذلك: (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا¹ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ [الأنبياء:30].

وفي تفسير هذه الآية: " أولم ينظر هؤلاء الذي كفروا بالله بأبصار قلوبهم فيروا بها، ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ، يقول : ليس فيهما ثقب ، بل كانتا ملتصقتين، يقال منه: رتق فلان الفتق، إذا شده، فهو يرتقه رتقا ورتوقا وقوله (فتقناهما) يقول: فصدعناهما وفرجناهما حدثني علي قال: ثنا أبو صالح قال: ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا يقول : كانتا ملتصقتين"¹، ومعنى هذا أن الأرض والسما كانوا على مجتمع واحد ثم تفرقت بعضها عن بعض. وفي هذا المضمار ظهرت نظريات أطلقت مفهوم الانفجار العظيم الذي تتحدث عنه هذه الآية ففي عام 1927م عرض العالم البلجيكي جورج لوميتر نظرية الانفجار العظيم (والنظرية فوق الفرضية ودون الحقيقية) والتي تقول: بأن الكون كان في بدء نشأته كتلة غازية عظيمة الكثافة واللمعان والحرارة، ثم بتأثير الضغط الهائل المتأثري من شدة حرارتها حدث انفجار عظيم فتق الكتلة الغازية، وقذف بأجزائها في كل اتجاه، فتكونت مع مرور الوقت الكواكب والنجوم والمجرات.

وفي عام 1964م اكتشف العالمان باتريس و ويلسون موجات راديو منبعثة من جميع أرجاء الكون لها نفس الميزات الفيزيائية في أي مكان سجلت فيه، سميت بالنور المتحجر وهو النور الآتي من الأزمنة السحيقة، ومن بقايا الانفجار العظيم الذي حصل في الثواني التي تلت نشأة الكون، وفي عام 1989م أرسلت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) قمرها الصناعي، والذي أرسل بعد ثلاث سنوات معلومات دقيقة تؤكد نظرية الانفجار العظيم.

¹الطبري، جامع البيان، ج18، ص431

وفي سنة 1986م أرسلت المحطات الفضائية السوفياتية معلومات تؤيد نظرية الانفجار العظيم، ولعلّ أنشتين هو أول من انتبه إلى النسبية بمفهومها الفيزيائية التي أظهرت حسابات جديدة لم تكن من ذي قبل ممّا يعني أن الكون ينكمش أو يتمدد، وهذا كان ردًا على النظرية السائدة آن ذاك أن الكون أزلي ناجم عن الطبيعة، أو مكونات المادة. ومن المفاهيم الأساسية التي توصلت إليه المعرفة الانسانية في القرن العشرين (الديناميكا الحرارية)، وهي أنّ الحرارة تتناقص دائمًا من وجود حراري إلى عدم حراري، وهذا يثبت أن للكون بداية.

وكذلك ما توصل إليه إدوين هابل (Edwin Hubble) من وجود ظاهرة الإزاحة الحمراء للمجرات. فبداية الكون كان بسبب وهذا السبب هو عامل القوة أي الله. وهو أول من استعمل الانفجار الأعظم، فإذا كان الانفجار هو عملية توزيع الشّظايا والبقايا بشكل عشوائي في الفراغ، بينما يرى بأن هذا الانفجار جاء بتوزيع الطّاقة والمادة ومنه جاء الفراغ، ويرجع ستيفن هوكنج هذا الانفجار " منذ نحو (13,7 بليون سنة) كانت المسافة بين المجرات تساوي صفرًا ثم كان الانفجار العظيم ومنه كانت البداية "1.

وهذه الكلمة ومحتواها الفكري والنظري لزال الانسان يفتش عنها ومع مرور الزمن يمكن أن تتغير مدلولاتها؟، لكن " هناك ثلاث حقائق أساسية لا تتغير في سيناريو نشأة الكون، لقد اعتري الكون الوليد: (تمدد، تبرّد، وتطور) أي طاقة جسيمات تحت الذرة وتكوين الذرات"2، أمّا عن ظاهرة التمدّد والتبريد فإنه لما كان حجم الكوكب يساوي الصّفر كانت درجة حرارته وكثافته لا نهائية وبعد الانفجار تمدّد الكون بسرعة فاقت سرعة الضوء بمليار مرة، ثم أخذت درجة حرارة مكوناته بالانخفاض.

¹ ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن، تر، مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للنشر، القاهرة مصر، ط1، د

ت، ص54

² عمرو الشريف، كيف بدأ الخلق، ص 43

وقد درس كثير من العلماء هذا التمدد ومنهم آلان جاث الذي حاول أن يصل إلى الرقم الحرج له فوجده تمدد منذ بدايته بشكل مذهل لا يمكن عدّه، " ويتساءل ستيفن هوكنج مندهشاً كيف بدأ هذا التمدد؟ وماهي القوة المسؤولة عنه؟ كيف تمدد الكون بهذه السرعة الهائلة في بدايته حتى يصبح على هذا التجانس؟ كيف حافظ هذا التمدد على القيمة الحرجة التي تحقق استقرار الكون لفترة طويلة، وتحقيق نشأة الحياة على كوكب الأرض؟ ويجب هوطنج عن هذه التساؤلات قائلاً: لا شك أنها إرادة الإلاه الذي شاء أن يخلق كائنات مثلنا"¹، ونظر العلماء إلى مراحل توسع الكون بالشكل الآتي:

1. مرحلة الكواركات والجليونات: وامتد لجزء من بليون جزء من الثانية بعد الانفجار

العظيم وفيه تشكلت اللبّات الأولية للمادة كما شكّلت أضدادها من الدخان الكوني وذلك من مثل الكواركات وأضدادها النيوتريونات ونقائضها، وكان الدخان الكوني كثيفاً مظلماً يشبه العتمة، وكانت الجاذبية قوة منفصلة رابطة أجزاء هذا الدخان الكوني، بينما انفصلت القوة الشديدة عن القوة الكهربائية الضعيفة، ويُقدّر أن أعداد هذه الجسيمات الأولية كان يفوق أعداد نقائضها وإلا ما وجد الكون، أو أن إرادة عليا فصلت بين تلك الجسيمات ونقائضها حتى تقوم السماوات والأرض بأمر الله، وكانت هذه المرحلة فترة تمدد ملحوظ وتوسع مذهل للكون.

2. مرحلة اللبتونات: وقد امتدت إلى جزء من مليون جزء من الثانية بعد عملية الانفجار

العظيم، وفيه تمايزت اللبتونات (وهي أخفّ اللبّات الأولية للمادة مثل الإلكترونات والنيوتريونات وأضدادها عن الكواركات، كما تمايزت البوزونات، وانشقت القوة الضعيفة عن اتحاد القوي المعروف باسم القوة الكهربائية الضعيفة.

3. مرحلة النيوكليونات وأضدادها: وامتد إلى 225 ثانية بعد عملية الانفجار العظيم،

وفيه أخذت تتحد الكواركات مع بعضها البعض لتكون النيوكليونات وأضدادها من

¹المرجع نفسه، ص 45

مثل البروتونات ونقائضها، والنيوترونات ونقائضها، وكانت الطاقة على قدر من الضعف لا يسمح بتكون النيوكليونات وأضدادها على نطاق واسع وإلا ما وجد الكون.

4. مرحلة تخلق نوى ذرات العناصر: وقد استمر في الفترة من 225 ثانية إلى ألف ثانية بعد عملية الانفجار العظيم، وفيه تكونت الديوترونات الثابتة وهي تنتج عن ترابط بروتون مع نيوترون، ومع تكوينها بدأت عملية الاندماج النووي في تكوين نوى ذرات الهيدروجين. وباتحادها تكونت نوى ذرات الهيليوم وبعض نوى الذرات الأثقل حتى وصلت نسبة الهيدروجين إلى 74%، والهيليوم إلى 25%، ونوى بعض العناصر الأثقل وزنا إلى 1%.

5. مرحلة تخلق الأيونات: وقد استمر في الفترة من ألف ثانية إلى عشرة تريليونات ثانية بعد الانفجار العظيم، وفيه تشكلت أيونات كل من غازي الهيدروجين والهيليوم، واستمر الكون في الاتساع والتبريد.

6. مرحلة تخلق الذرات: واستمر في الفترة من عشرة تريليونات ثانية إلى ألف تريليون ثانية بعد عملية الانفجار العظيم، وفيه تكونت ذرات العناصر، وترابطت بقوي الجاذبية وأصبح الكون شفافا.

• مرحلة تخلق النجوم والمجرات: واستمر في الفترة من ألف تريليون سنة ضوئية؛ إذ نحو 32 بليون سنة من سنيها الراهنة بعد عملية الانفجار العظيم إلى اليوم؛ إذ نحو عشرة بلايين من السنين، وفيه تطلعت أغلب العناصر المعروفة لنا وهي أكثر من مائة وخمسة عناصر بعملية الاندماج النووي في داخل النجوم حتى تكون عنصر الحديد في داخل المستعرات والمستعرات العظمى، وتكون العناصر الأعلى وزنا ذريا من نوى ذرات الحديد باصطيادها للبنات الأولية للمادة المنتشرة في صفحة السماء، وقد ذكر العلماء أنّ هذا التجانس وهذا الاستمرار، بهذا الشكل الفريد تتحكم فيه قوة خارقة، ولقد سبق القرآن الكريم هذه المعارف العلمية

بأربعة عشر قرناً وذلك بقول الحق تبارك وتعالى (ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأُتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾) [فضلت: 11] ومما سبق يمكن أن نستشف ما يأتي أن الكون بدأ من العدم المطلق، ونشأ بخمس ظواهر خارقة وهي:

1. "من حالة اللانظام المطلق (الشوش، والتبعثر)، وما يصاحبهما من فقدان وتوزيع سيء للطاقة إلى حالة الانتظام والاستغلال الأفضل للطاقة.

2. ومن البنية الأبسط قليلة الفائدة إلى البنية الأعقد المناسبة لغاية لاحقة

ومن المادة ذات الوظيفة الأقل أداء وكفاءة، إلى وظيفة أفضل أداء وكفاءة ولما كانت ظاهرتي الشوش والتبعثر تقتضيان اتجاه عناصر منظومة ما إلى المزيد من التبعثر والفوضى وفقدان الطاقة مالم يؤثر مؤثر خارجي، فإن الاتجاه الأكثر انتظاماً والأعقد بنية والأكفأ أداء ووظيفة يحتاج إلى تدخل ذكي وفعال خارج المنظومة"¹.

ومن هنا يمكن القول بأن الموجه هو الله سبحانه وتعالى، هو الذي اختار أن يكون مسار هذا الكون بهذا الشكل، ومسار الكون لا بد له من الرجوع كما كان أول مرة لأنك هناك ثلاث احتمالات لنهاية الكون، وهي الأخذ في التمدد إلى ما لا نهاية حتى الوصول إلى الأصل، والاحتمال الثاني هو تراجع هذا الكون بانفجار أعظم كما بدأ أول مرة، والاحتمال الثالث هو أن يأخذ هذا الكون في التلاشي والانكماش حتى يتصدع ويضطرب ليعيد تشكيل نفسه من جديد ولكن بطريقة مخالفة، وهذه فرضيات يسعى العلم الفيزيائي وفيزياء الفلك إلى اثبات أحدها، ونجد هذا في قوله تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾) (الأنبياء: 104).

¹ عمرو الشريف، كيف بدأ الخلق، ص 104

ثانيا: حياة الإنسان بذرة وفضاء عجيب:

يعتبر الإنسان كائن وجودي مخلوق يحمل صفات تختلف عن باقي المخلوقات، وإذا اعتبرنا الإنسان فضاء فإننا نعتبر الخلية محل حياة، والعقل أيضا محتوى التفكير والقرارات، والقلب وعاء الشعور، وتميز الإنسان، يعتقد الماديون والمُلحدون أن نشأة الحياة كانت بالمادة، أو أول النشأ كان صدفة، بل ويرى الداروينيون أن الحياة كان محل تطوّر المادة وبعد تطوّر العلم ظهرت الداروينية الحديثة التي تظنّ أن الحياة عبارة عن تهجين مستمرّ.

ومن العلماء من فسّر ظهور الحياة التي تبدأ في التّموّ عند الوصول إلى الكوكب المناسب، وادّعى هؤلاء أنّ هذه البذور قد غزت الأرض محمولة على النيازك، متجاهلين أنّ الحرارة الهائلة والإشعاع الذي ستتعرّض له هذه الكائنات الدقيقة كقيلة بالقضاء على جميع أشكال الحياة ولذلك قال الآخرون: إنّ كائنات عاقلة من كواكب أخرى قد حملت معها هذه البكتريا دخل سفن الفضاء، وبعد ذلك بدأ التطوّر الدارويني، ثم التفسير البيولوجي، والتّشريح لأصل الكائنات.

بداية البذرة البشرية ومن العجيب أنّ بعض كبار العلماء ومنهم فرانسيس كريك مكتشف بنية الدّنا والحاصل على جائزة نوبل قد تبنّوا هذا الرّأي القائم على التّطوّر والتهجين، وهي كبوة عالم، وفي الفلسفة الإغريقية إغراق في الدّجل والخرافة حول تفسير أصل البشر فمنهم من يرى بأنّ الأصل ماء مقدّس، إذ يقول نيتشه: "يبدو أن الفلسفة اليونانية تبدأ بفكرة غريبة، وهي أن الماء أصل كل الأشياء، هل من الضّروري حقا أن نتوقف عند هذه الفكرة، وأن نأخذها على محمل الجد؟ نعم، وذلك لثلاثة أسباب أوّلاً: لأن هذه المسلمة، تتناول بطريقة ما أصل الأشياء، والسبب الثاني: لأنها تتناوله بدون صور وبمعزل عن السرد الخيالي، وأخيراً، السبب الثالث: لأن هذه العبارة تتضمن ولو بشكل أولي، فكرة «أن الكل واحد.» حسب السّبب الأول، ما زال طاليس ينتمي إلى طائفة المفكرين الدّينيين والخرافيين، ولكنه يخرج عن هذه الطائفة.

السبب الثاني ويظهر لنا كواحد من علماء الطبيعة، أما السبب الثالث فيجعل منه أول فيلسوف يوناني لو قال إن: «الماء يتحول إلى تراب» لكان لدينا مجرد فرضية علمية خاطئة، على الرغم من صعوبة تنفيذها، لكنه يتخطى الإطار العلمي المحض، لا يمكننا القول إن طاليس، من خلال عرضه لفرضية وحدة الكون القائمة على حضور الماء، تجاوز المستوى الأدنى للنظريات الفيزيائية في عرضه، ولكنه خطأ خطوة واحدة¹، وأوردنا هذا الزعم لكي نتوقف عند قصور العقل البشري في تفسير ظاهرة الوجود، ومكمن الحياة، وفهم الحياة لا يقتصر فقط على فهم الإنسان، وإنما على مدى استيعاب العلم، لتفسير ظاهرة الحياة البشرية، لقد كان التراكم المعرفي لفهم أصل الحياة منذ الخلفية الأسطورية من خلال الأساطير الفرعونية أو البابلية، والهندية القديمة أو من خلال الفلسفة الإغريقية إلى الفهم الدارويني الذي يعتمد على ظاهرة الصّدف وأنّ الحياة لا تعتمد على تحليل منطقي يستوعبه العقل بل اجتهد قائم على فكرة المادّة والوجود هو اللاوجود في الآن ذاته.

إلى أن توصّل العلم البيولوجي أنّ أصل الإنسان هو من سلالة أو حبة نشأت بها كثيرًا من الجينات الوراثية إلى يومنا هذا، إذا كان الكون نشأ من الفتق ورتق وهي نواة لامتناهية في الحجم، لا متناهية في المادّة وتركيبتها، فذلك الإنسان فإنّ استمراره في الوجود بدأ "من الدّنا، موجودة في رأس الحيوان المنوي ومثلها في البويضة، وهذه الكتلة الضئيلة جدًّا من الدّنا هي التي تتوارثها البشرية منذ نشأتها وحتى الآن، وهي المسؤولة عن المحافظة على الجنس البشري، ويحمل الجرام الواحد من الدّنا معلومات تعادل ما يحمله مليون قرص مضغوط، ويحمل دنا كل خلية 120 مليون معلومة"².

¹ فريديرك نيتشه، نشأة الفلسفة في فترة المأساة الإغريقية، تر سهيل القش، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، بيروت،

لبنان، ط1، 1983، ص36

² عمرو الشّريف، كيف بدأ الخلق، ص108

إنّ هذا الجزء الصّغير يعتبر مكان يحمل مدلول الحياة، ويقرّ العلماء أنّ الإنسان جاء على ثلاث أجزاء، جزء جاء من آدم عن طريق الوراثة جيل بعد جيل وهذا نسبه وراثه الجنس البشري، فلا نرى إنسانا يملك رأسين، أو ثلاث أرجل أو أربعة أعين، فهذا الهيكل البشري هو نفسه من آدم، والجزء الثاني من ذلك اختلاف النوع البشري من نواحي عدّة شكله، وجنسه، وطوله، و نوع شعره، وأجهزته المختلفة، أمّا الأصل الأخير، هو أنّ الإنسان يتكوّن من مواد عضويّة عند خروج الرّوح تتغيّر الخلايا المختلفة في الجسم ثمّ تتحلّل وتصبح تراباً وبالتالي أنّ الجزء الثالث هو تراب الأرض، فإنّ الأصل الوجودي هو التّراب وليس الماء الذي يحمل مواد معدنيّة وتركيباً عضويّاً، والدليل على ذلك ما يتناوله الإنسان من غذاء.

وعند قراءة هذه الآية من زاوية علميّة أنّ البشريّة جميعاً خلقها الله من أصلٍ واحدٍ وبدأ الاختلاف والتّوسّع كما يتوسّع الكون، قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾) [الأعراف:172]، فلا يمكن فهم نشأة الحياة إلّا من جانبين؛ جانبٌ بيولوجيٌّ متعلّق بأصل الخلية الحيّة من خلال تركيبها الكيميائي، ونظرية أصل الحياة، " وعندما نسال المختصّين عن أصل الحياة، يُسارع معظمهم بالحديث عن المواد الكيميائية والظروف الفيزيائية التي سبقت ظهور الكائنات الحية، ويطرحون النظريات لتفسير نشأتها(المستوى البيولوجي)، لكنهم لا يتعرّضون لأصل الحياة بالمعنى الوجودي وهو كيف اكتسبت جزيئات المادّة غير الحيّة السمات المميّزة للخلية الحيّة"¹،

أ/ **الفهم البيولوجي** ينطلق الفهم البيولوجي للحياة من الخلية التي هي الوحدة الرئيسية للكائنات الحيّة، وجسم الإنسان يحتوي على مائة مليار خلية، بينما هناك كائنات تحتوي على خلية واحدة كالبيكتيريا التي تصيب الإنسان، وتتكوّن الخلية من الغشاء الخلوي

¹، عمرو الشّريف، كيف نشأ الخلق، ص 99

وسيتولازم التي توجد بداخلها مادة وراثية، بالإضافة إلى باقي المكونات المسؤولة عن وظائف الخلية المختلفة، والمادة الوراثية تحمل جزئيات الدنا (DNA)، وهي حمض نووي منزوع الأكسجين.

وكل جزء من الدنا يحمل وحدات متشابهة متتالية كأنها بناء مرصوص تدعى كل وحدة من نكلوتيد، ويتألف من خمس ذرات من الكربون يدعى الريبوز، وهو من طرفين أوله، قاعدة نيتروجينية والطرف الثاني مجموعة فوسفاتية، أما عن الوراثة البشرية فكل سلسلة من الدنا تلتف بشكل حلزوني طويلاً في البداية ثم تلتف حول نفسها لتحرك النواة مشكلة بذلك كروموسومات، وكل كروموسوم يتألف من شقين جسم وصيغة أي ما يعرف بالصيغيات، وهي المسؤولة عن نقل صفات الآباء للأبناء، والإنسان ذكر وأنثى، فنواة الحيوان المنوي وكذلك نواة البويضة يحمل كل منهما ثلاثاً وعشرين كروموسوماً، وتتكون المادة الوراثية للإنسان من حوالي ثلاث مليارات زوج من النكلوتيدات، وهو عبارة عن تكرار أربع قواعد نيتروجينية: (الأدينين، والثيامين، والجوانين، والسيتوزين)، ولا يسع إلا أن نذكر في هذا المقام الآية العظيمة الدالة على آية الخلق والاختلاف الموجود في البشرية، قال سبحانه: (وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ [الروم:22]).

الخطوات المهمة في الحياة لابد أن تركز على أمرين هامين أما أولهما هو وجود جزء قابل للتوالد وهذا يتمثل في الدنا، والقضية الثانية هو وجود جزء يزيد من اختلاف هذا التوالد هو الصيغيات، وبالتالي فجزئيات الحياة تنطلق من الدنا الذي يحمل الشفرة الوراثية المشتملة على كل ما يحتاجه الكائن الحي من معلومات، وهو بدوره يقوم بالوظائف التالية، توجيه الخلية وعملها وفق معلومات لازمة محفوظة، نقل الصفات الوراثية للأجيال المتلاحقة، تقيد الريبوزومات لتكوين أنواع مختلفة من البروتينات التي يحتاجها الكائن الحي.

وإذا كان جزء الدنا أقوى جزء بيولوجي، فإنّ جزئيات البروتين تعدّ الوحدة الأساسية والوظيفية لأنسجة الجسم، وهي المسؤولة أيضا لمعظم المواد الفعّالة داخله كالهرمونات والإنزيمات، وعليه فالكائن الحيّ يمتاز بنمطين، النمط الجيني أو ما يُعرف بالتركيب الوراثي، فهو محفوظ داخل النّواة ويحدّده النكلوتيد، ومهمّة النمط الجيني نقل المعلومات من جيل إلى جيل، والنمط الظاهري يعمل على تحديد الصّفة البنائية كلون البشرة، والقامة، والصّفة الوظيفية متعلّقة بوظائف أجهزة الجسم المختلفة، ويحدّده الريبوزوم الذي يُحدّد أنواع البروتينات بناءً على التّعليمات المسجّلة بالدنا والتي يقوم بنقلها الرنا من داخل النّواة إلى الريبوزوم.

وبهذا فالكائن الحيّ يقوم على أساس ثلاث جزئيات عضويّة تقوم بدور محوري في بنائه ووظائفه ونسله، وكلّها متناهيّة في الصّغر وهي جزء الدنا وجزء الرنا والبروتين والعلاقة بينها مترابطة متشابكة تحدّد النّسل والاختلاف، والمدة العُمريّة لكلّ فرد ووظائفه الجسميّة.

ب/ **الفهم الوجودي:** نقصد بالفهم الوجودي هو عدم انحصار الحياة في طبيعتها الماديّة البيولوجيّة ولو سلّمنا ذلك، لكان زعمًا يتّخذ الماديّون حجة لهم، أنّ الحياة تتسم بالذكاء، وأنّها نظام معلومات لا تنتهي، وهي مبرمجة بإحكام، وأنّ أيّ سمة للحياة لها القدرة على تشكيل ذاتها، ولها هدف متأصل في بنياتها، لها القدرة على التّحكم وقابلة للتكاثر.

فالنّظرية الداروينية لا يمكن أن تجد تفسيراً لهذا التّباين في الخلق، فالنجد الطائر مثلاً الذي يغرد له أجهزة خاصّة مستمدّة من نواة تنشأته وإذا تعمّقنا فيه أكثر وجدناه مرتبطاً بأنسجة وخلايا ثمّ جزئيات وذرات ثمّ جزئيات داخل الذّرة ثمّ مجالات طاقة عشوائيّة، ولكن السؤال الذي يُحير المُتدبّر هو من علّمه التّعريده، ثم عند موته واندثاره لماذا تستمرّ نفس التّعريده عند الطائر الذي يخلفه، لماذا توقّف التّطوّر عند مرحلة معيّنة من الاختلاف؟ .

هذه الأسئلة لا يمكن أن يُجيب عنها الداروينيون لما لها من تفسير قوى كامنة، فالحياة على الأرض تمتاز بالذكاء، فنقصد بالذكاء القوى الكامنة على ظهر الكائن الحي الذي يمكنه من البقاء على نفس النهج حتى وإن اندثرت خلاياه وأنسجته البيولوجية بفعل الموت، وتحولها إلى مواد عضوية، ونقصد بالحياة الذكوية المستويات التالية، ذكاء مضمّر مخفي لا نراه إلا من خلال الأثر الذي تتركه الكائنات الحية فمثلا نجد طبيعة عيش أي كائن حي نباتي أو حيواني مرتبط بنمطية عيشه وسلوكه في الوجود.

فالنبات الطفيلي يحمل في مكانه سلوكًا عُدونيًا على الطبيعة وفي الآن ذاته يترك أثرًا إيجابيًا، وهذا الفهم من أملته عليه القوة الخفية وهي قدرة الخالق سبحانه، وهناك نوع آخر من الذكاء وهو الذكاء المستمر مرتبط بتكاثر الكائنات الحية وظاهرة التهجين واختلاف النوع مع اتفاق المصدر ونشير في هذا السياق إلى قوله تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ [الرعد:4]، فهناك قوة خفية هي من تصنع هذا الاختلاف مع البقاء المصدر واحد وهو الماء، وهذا واضح من خلال قوله ونفضل.

وباب التفصيل ليس جانب التنوع إنما يكمن في الطعم والقيمة الغذائية، أما الذكاء الآخر هو الذكاء الباطني وهو مرتبط بالإنسان أن جعل الله له مكامن القوة والسيطرة على الوجود بالذكاء الإدراكي، فأصاب سبل تطوير ذاته، ومعالجة الخلل الذي قد يصيبه في الوجود من أمراض ومهالك طبيعية فاختلف عن باقي الكائنات وطوعها لخدمته، وإذا فرغنا من الذكاء صادفنا أن الحياة نظام عجيب من المعلومات.

فمثلا سلسلة الدنا الحاملة للشفرة الوراثية نجد بأن طولها في الخلية الحية أمثر من مترين بأربع سنتيمترات، ولو أمكن أن نجمع سلاسل الدنا الموجودة في جسم الكائن الحي لوجدنا طولها ما بين الشمس والأرض، والشفرة الوراثية تستخدم قواعد نيتروجينية لتدوين المعلومات

بنظام تشفير بديع، إنّ أبسط مكان في جسم الإنسان يمثل حياة قائمة بذاتها، فنظام المعلومات الموجود بداخل كلّ خلية حيّة هي من لدن ذكاء ومصمّم بديع خارج عن نطاق العشوائية كما تدّعيه الداروينيّة، والعجيب في الكائن الحيّ الدّفاع على وجوده واستمراره في الحياة والتّمسك بها، ففي جسم الإنسان توجد المناعة التي تمثّل الدّرع الواقي لعدد الأمراض، ففيه شبكة من الخلايا والأنسجة والأعضاء المسؤولة عن الدّفاع، وتعمل على حماية الجسم من الأمراض، عن طريق التّعرف عليه أولاً ثمّ انتاج مضادات تتناسب مع نوعيّة الجرثوم أو البكتيريا أو الفيروس.

وعند تكاثر هذا الفيروس مثلاً، نجد أنّ جسم الإنسان يضاعف عمله من أجل أن يُحيط به فيدمره كلياً، فسمة الوجوديّة للكائن الحيّ هو حبّه للحياة والنّضال من أجل البقاء، تكون الجهاز المناعي من العديد من الأجزاء التي تعمل كجيش متكامل الأركان لمقاومة الأعداء، ومن أهم مكوناته التي تقوم بالأدوار الأساسية في الجسم: الخلايا الليمفاوية، تعتبر الخلايا الليمفاوية صاحبة المهمة الأصعب في الجهاز المناعي، وهي عبارة عن شبكة من الأنابيب الرفيعة الممتدة في جميع أنحاء الجسم وتحتوي على سائل، ومن أهم وظائفها أنها تقوم بالتقاط الخلايا الميتة والجراثيم، ثم يتم ترشيح هذا السائل للتخلص من العدوى، نخاع العظام، نخاع العظام هو عبارة عن نسيج لين موجود داخل العظام، ويحتوي على خلايا جذعية تتضج وتتطور لتكون خلايا الدم الحمراء والبيضاء والصفائح الدموية.

وتتمثل وظيفة نخاع العظام في تكوين أجسام مناعية مع بقية مراكز المناعة لمحاربة العدوى والأمراض والجراثيم، والخلايا البالعة لها اسم آخر وهي الخلايا الأكولة، وهي عبارة عن خلايا تقوم بتناول الجسم الغريب أو الميكروب الذي يلتصق بالأجسام المضادة، ثم تقوم بالتهام كافة الخلايا التي سقطت خلال معركة المقاومة بين الأجسام المضادة والميكروبات التي تهاجم الجسم لتنظّفه.

الأجسام المناعية المضادة، في حالة غزو الميكروبات للجسم، فهناك أجسام تعمل بمثابة قرون استشعار تترك هذا الغزو الميكروبي لتبلغ بها الخلايا الليمفاوية لتحثها على إنتاج الأسلحة الدفاعية ضد هذه الميكروبات، تتألف هذه الأسلحة من بروتينات وظيفتها الأساسية هي مقاومة الميكروبات التي تسبب تلف أنسجة الجسم، وهذه البروتينات تسمى الأجسام المناعية المضادة، ومن ملامح وجودية الكائن الحي عمل خلاياه ككتلة متحدة، فكلّ جهاز في جسم الإنسان، ان يُكمل الآخر وإذا أصيب أحد هذه الأجهزة بعطب تلاحقت الأجسام الأخرى، وتسَلَّلت عندها أمراض تكون بسبب عجز في جهاز سابق، وإن لحق ضرر بالجسم تدافعت كلّ خلاياه وأجهزته في الدِّفاع عنه بطريقة مثيرة.

وبهذا فالكون الذي خلقه الله اللامتناهي في الكبر يوجد ما يقابله من اللامتناهي في الصَّغر، ولهما نفس البداية، والنشأة هي مرحلة الفتق والرتق للكون، ومرحلة البذر للكائن الحي ومرحلة التَّكون البيولوجي للإنسان من النُّطفة والبويضة، وأنّ هذا العالم بديع في تركيبه كأحجام كبيرة، وعند النَّظر إلى فضاءاته الصَّغيرة تبدو في نفس المرتبة من الإتقان والحُسْن، والوجود دالّ على الموجود، واستمرارية الكون تدلّ على عظمة الصَّانع الذي أودع فيها سُبُل البقاء، ونظام الحماية.

ثالثاً: الحياة فضاء رحب للإنسان:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء:70] ، يعدّ الإنسان فضاء الوجود ومحلّه، لأنّ الكون خُلِق لأجله، هو استولى على حيِّز هامّ من غاية الخلق والمرامي التي جعلها الله في ملكوته، ويتّضح تكريمه من المنعم سبحانه، أن جعل له مكانة تليق به، وخلق له مساحات تختلف عن سائر خلقه من الحيوان والملائكة والنّبات وحتى فضاءات الكون المختلفة من شمس وقمر ونجوم وأرض وسماء.

أ/ الإنسان ستر وأطوار: إذا أردت أن تخفي شيئاً عن أعين الناس تستره في غلاف أو تضعه في مكان آمن، محبة له وتعظيماً لشأنه، ومن تكريم الله للإنسان أن جعل له محور الرسالة الوجودية، وسجدت له الملائكة، وأنزلت في حق الرسل السماوية، وأعظم تكريم له أن خلقه أطواراً، وخلق مترجماً بين الضعف والقوة، والشدة والرخاء، وفضله عن سائر المخلوقات بكرامة الستر والحفظ، فقد حفظه في ظلمات ثلاث، وأن بذرة خلقه موجودة في أمه وأبيه، من نطفة وبويضة.

ثم أنشأه في جوف أمه، وحفظه وأمد له في الرعاية، أن قذف في قلب أمه الرحمة والمحبة، فتحافظ عليه بكل ما أوتيت من قوة وجهد، هذا التكريم أبان عليه القرآن، فيعدّ رحم الأم فضاء يحمل دور الرعاية والصون، ووظيفة جلية هي الحفاظ على أمانة الخلق، وما شدّ انتباه المتدبر في كلام الله أنه أورد عملية الخلق هذه في أربع وعشرين موضعاً عدد ساعات اليوم وفي ثلاث وعشرين سورة، إن خلق الإنسان تحدثت عنه الآيات القرآنية في عدة سورة منها النساء والأعراف والحجر والنحل ومريم والأنبياء والحج والمؤمنون والفرقان والروم والسجدة ويس والزمر وق والرحمن ونوح والقيامة والإنسان وعبس والانفطار والطارق والبلد والعلق، ويتحدث القرآن الكريم عن أطوار الخلق بشكل أفقي وهو مراحل خلق الإنسان، الأصل، التنشئة، الاستواء، وكل منها يرجع إلى فضاء.

فالأول كان في الأرض، والثاني كان من النطفة، والثالث كان في الرحم، وبعد أن كتب الله عليه الفناء، ارجعه إلى الأصل، وتدلّ عليه الآيات: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾) [المؤمنون: 12 13 14] ، وهذه الأطوار أضحت محلّ الدراسات العلمية منذ زمن بعيد، ولكن في العصر الحديث كشفت جلّ الدراسات هذا التعبير، بهذا النسق في لفظه ومدلوله المعجمي، فمرحلة الطور الأول كان الحديث عنه سابقاً، أمّا المرحلة الثانية

فهي مرحلة النطفة، وقد جعل الله لها فضاء وهو رحم الأم، فبعد الجماع تتشكل النطفة من ماء الرجل وماء المرأة، وقد ورد لفظ النطفة اثني عشر مرة في كلام الله بحسب عدد الشهور، ويمكن ان تكون الآية الواردة في سورة الحج هي الاكثر دلالة وشمولية عن هذه المراحل والأطوار قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْتَبَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ [الحج:5].

فإذا كان لكل مكان وظيفة فوظيفة النطفة الأخذ بمرحلة التلقيح، ولكل فضاء مصدر، فإن مصدر النطفة التزاوج بين الرجل والمرأة، ثم يظهر مدلول المكان بشكل جلي عن ذكر حرف الجر في الذي يفيد الظرفية المكانية في قوله: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ [المؤمنون:13])، والقرار يعني به الحفظ والستر والأمان والسكينة، وهو التحام الحيوان المنوي بالبويضة، تباشر البويضة الملقحة بالانقسام إلى خليتين، فأربع، فثمان وهكذا دون زيادة في حجم مجموع هذه الخلايا عن حجم البويضة الملقحة، وتتم عليه الانقسام هذه والبويضة في طريقها إلى الرحم.

ثم ذكرت مرحلة العلق في خمس مواضع من كلام الله، وهي المرحلة الثانية في هذا الفضاء، والعلق قطعة من الدم الجامد، بعد التخصيب، وحين وصول البويضة المخصبة إلى الرحم، تنقسم لتصبح عبارة عن كتلة من الخلايا الصغيرة، يطلق عليها اسم التوتة كحبة من ثمرة تفاح صغيرة، حينئذ تتعلق بجدار الرحم، وتستمر في التعلق مدة أربع وعشرين ساعة، وتتميز العلقة من طبقتين؛ هما: طبقة خارجية "أكلة ومغذية"، وطبقة داخلية، ومنها يخلق الله الجنين، وعليه فدلالة لفظ التعلق هو تعلق الدم بعضه في بعض مشكلاً كتلة، وتعلق هذه الجسيم الصغير بجدار الرحم.

وفي هذا يذكّرنا المولى عزّ وجلّ في أوّل سورة نزلت من القرآن بتلك البشائر الأولى لوجود الإنسان، ومرحلة الضّعف التي كان فيها إذ يقول العزيز: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾) [العلق:2]، ثم تستمر هذه العلقّة لتصير مضغة، وهي كتلة بحجم مضغة من طعام ثَلَاك في الفم، وتكون بداية من الأسبوع الثّالث أو عند انقضائه، ثمّ ذكر الله شطرين من هذه المرحلة مُخلّقة أي منها ما تبدأ في تكوين الخِلقة، ومنها من لم تكن كذلك، وهي فترة ليست بالهيّنة فتتّشأ لمدّة عشرة أسابيع بعد التعلّق، وقد أشار لها العلم الحديث عن طريق تقنيّات التّصوير المُختلفة.

ومن الأجهزة من تحدّد نوع جنس الجنين ذكرًا كان أو أنثى وقد راعى القرآن الكريم الفارق الزمني والخلقي بين كل طور من أطوار الخلق، باستخدام حروف العطف الفاء وثمّ، فالمسافة بين النطفة والعلقّة مسافة كبيرة في ميزان الخلق، وإن كانت غير بعيدة في حساب الزمان، ولذا جاء التعبير في النقلة بين النطفة والعلقّة فاصلاً بينهم ب (ثمّ)، (ثمّ خلقنا النطفة علقة)، فالمسافة شاسعة بين النطفة والعلقّة، سواء أكانت نطفة الذكر (الحيوان المنوي) أم نطفة الأنثى (البويضة)، أو هما معاً (النطفة الأمشاج)، والتي في قناة الرحم لتصل إلى القرار المكين فتستقر فيه.

ولكن النقلة بين العلقّة والمُضغة سريعة والمسافة قريبة، فإن العلقّة تدخل إلى المُضغة دون أن يكون هناك فارق زمني أو خلقي كبير، ومن ثمّ جاء التعبير عنها بالفاء، دلالة على الاتصال فيها (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً)، وكذلك بين المضغة والعظام (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا)، ثم تبطّئ السرعة، ويأتي فارق زمني وخلقي (ثمّ أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)، أمّا العظام فقد عبّر عنه الخطاب القرآني بدلالة الخلق أي الإبداع والعظم هو الذي يجعل الإنسان قويًا، والقوّة فهذا المخلوق اللزج لا تقوى جوانبه إلّا بالعظام، فتتحوّل قطعة اللحم إلى هيكل عظمي، ثم عبّر عن اللّحم بالكساء دلالة على السّتر، فجعل لها العظم حماية من اللّحم، أمّا المرحلة الأخيرة هي مرحلة يمكن أن نطلق

عليها اسم الإتيان، وهي أن جعل الله هذا اللحم خلقاً، مشكلاً له اسم ورسم وجنس، بعدما كان لا شيء صار مخلوقاً لا يمكن أن تكون إلا قوة خارقة أبدعته، إنها عظمة الله، ويحمل دلالة خلق الإنسان وفضاءات نشأته على الفوائد يمكن استخلاصها مما سبق:

✓ خلق الله الإنسان على مستويات ثلاث من الأمكنة وهي الأرض، البذرة (النطفة)، الرحم، والجامع بينها سمة الرحمة، وصفة الاستمرار، والخلق والإبداع.

✓ الإنسان كائن ضعيف في نشأته قوي في هياته التي وهبها الله إياها، على الرغم من مجهرية بدايته، إلا أنه استعمر الأرض وسعى فيها وبنى المدارج العملاقة، والقصور المشيدة، وعامل الزمن مهم في حياة الإنسان فهو يمرّ بزمن تحوّل، مترنح بين القوة والضعف.

✓ المعارف الجديدة هيأت لتفسير بنائي وفق منظور علمي جديد بعيد عن التفسير الظاهري للآية، أو اللغوي لها، ولازالت الأبحاث تقف شاهدة على أن كلام الله صالح لكل زمان ومكان، وكل معرفة للإنسان متغيرة وكلام الله ثابت لا يتحوّل.

ب/مساحة العقل والحرية: بمقدور الله أن يجعل الناس أمة واحدة هادية مهيبة، خاضعة له سبحانه، وهذا ليس على الله بعزيز ولكن الناس وهب لهم مالم يهب للملائكة التي تسبح بلا فتور، وللشجر والأخضر واليابس الذي يعرف عظمة الله وجلاله، فاستغفرت للخلق وسبّحت لله، الله فضل الإنسان على العالمين، ونجد هذا المفهوم في كثير من الآيات في كلام الله إذ يقول سبحانه: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾) [يونس: 99].

الإيمان مسألة خاضعة للاختيار من طرف العبد، فالله تعالى جعل الناس على سجيّتهم إيماناً أو كفراً، ولهذا معرفة الخالق خاضعة للعقل، مقيدة به، فالبشر يعرفون الله من خلال أثر وجوده في حياتهم، واعتقادهم مبني على يقينهم الجازم به سبحانه، بعدما استنفذت قواهم العقلية على تفسير الظواهر الكونية، والله تعالى لا يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، قال

تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾) [البقرة: 256]، فمهمة الرسل تبين الناس طريق الحق، ولكن لا خضوع لله إلا عن طواعية وإرادة.

ومساحة الحرية عند الإنسان تتمثل في العقيدة كمرتبة أولى، ثم إذا خضع عقل الإنسان ونفسه واستسلم، جعل الله له تقييداً في عمله، فهو يخرج من مساحة التقاء وهي نقاء العقيدة، إلى مساحة الصفاء فيرتقي به الله إلى مراتب النبيل البشري، حتى يصبح خليفة الله في الأرض يقيم العدل وينشر الخير، ويتسم بالصلاح، فيصلح نفسه ويصلح غيره، أما الكافر أهمله الله وأمهله ليوم تشخص فيه القلوب والأبصار، يقول تعالى في الوصايا العشر التحريمية التي بها تقيّد حرية المسلم ويصبح ملزماً بتعاليم ربه: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾) [الأحكام: 151].

فمسألة الحرية عند المؤمن صارت أكثر تعقداً فلم يهمله بل أراد الله أن يهب له الخلاص ويعيش في ميتافيزيقيا الروح، وعالم الروحانيات الذي لا ينقطع، فشرفه بالعفة أن سنّ له الزواج وجعله مقيداً محصوراً بقواعد منها المهر للمرأة تكريماً لها ولعفتها، وأن سلم عقله من الشوائب فحرم عليه المسكرات، وحافظ على ماله، أن حرم عليه الربا، وحافظ على النفس أن حرم قتلها، فصارت الحرية مرتبطة بالنقوى وهنا يتدخل العقل في أن يقيم الحجة بين جميع الأطراف، فوهب الله له الضمير الذي يُخبره بالصواب، وجعل اللوم في جوانحه.

فسلطان الإنسان عقله هو يعرف به ربه ويتعالى بنفسه على مراتب النبيل والعزة والكبرياء البشري، فكيف يعمل العقل؟ هل هو فضاء يؤدي وظيفته؟، أولاً يجب ان ندرك أنّ مساحة العقل مفتوحة في المعرفة فانه تعالى يقول في سورة الرحمن: (يَمَعَشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ

أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴿٣٣﴾ [الرحمن:33]، فسُمح للعقل أن يخوض في الوجود الذي سُخر له ويستغل ما أمكن لحياته وسعادته، ورفاهيته.

والجانب الثاني، تكريم البشر كان بهذا العقل، أمّا عن الإرادة فيقول تعالى في سورة الإنسان: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾) [الإنسان:3]، فالعقل فضاء يحمل هذه الإرادة ويتولّاها وأمّا الجوارح هي آلات لعمل الدماغ، وكأنّ العقل البشري بمثابة السلطة او مركز القرار، والجوارح هي منفذة فقط فهي جنود مجنّدة لعمل العقل، ففي سبيل السعادة مثلاً العقل البشري يعمل بطريق الزّوم بالنسبة للكثيرا فهو يمرّ على مشهد ممكن أن يحمل ثواني معدودة، ولكن درجة تأثيره عالية على النّفس والمشاعر والمواقف، فيصبح يتذكّرها بشكل تلقائي ومستمر ويحلّلها من جميع الجوانب، وعلى اساسها يتّخذ القرار المناسب.

فالجانب العاطفي من الإنسان ضيق أو حسي غير تحليلي، ولكن العقل يحمل تلك الخاصية التحليلية في العواطف والمشاعر والمواقف، وعادة ما يكون قراره صائبا لأنّه يتجنّب العاطفة فيه، ولهذا يؤدّبنا القرآن الكريم في عدم اتخاذ قرار بسرعة ففي السلوك البشري نحو النّاس يعلمنا المولى عزّ وجلّ في إعمال العقل في تغليب الرّأي أو المصلحة أو دفع الضّرر، أو الحكم، وفي الإشارة إلى عمل العقل وتجنب العاطفة.

في ذلك ما كان لإبراهيم مع أبيه من جدال وإقناع بعيد عن عاطفة الأبوة فهو حاول أن يستمدّ حجّته مما تملّيه العُصارة الفكرية، وحتى حجّته التي اقامها مع النّمروذ كانت عقلية بديهية تملّوها الذهنية الحية للإنسان.

فما توصّل إليه الطّب ومعرفة الإنسان الحديثة هي أنّ الدماغ يحتوي على مليارات الخلايا العصبية المنظمة في أنماط تعمل على تنسيق الأفكار والانفعالات والسلوك والحركة والإحساس، ويوجد نظام سريع ومعقد من الأعصاب يصل الدماغ بباقي أعضاء الجسم

بحيث يمكن التواصل في ثوانٍ. فُكِّرَ في كيفية سحب اليدين بسرعة بعيداً لحمايتها من الموقد الساخن، بينما تعمل جميع أجزاء الدماغ مع بعضها البعض، يكون كل جزء مسؤولاً عن وظيفة معينة للتحكم في كل شيء؛ بدءاً من سرعة القلب وحتى المزاج.

أمّا عمل العقل كفضاء ووظيفة فهو يحفظ الذكريات ويصوّنها، ويخترق مجالات الفهم الطبيعي الواقعي إلى الفهم المعقّد التحليلي وبه يكون الذكاء والفراسة والفطنة، وربط الغريق عمل الروح بالعقل، ومنهم من ذهب إلى وجود إله الحكمة، والحكمة لا تُستمدّ إلا من العقل، أمّا حديثاً فالدماغ له ثوابت معينة تجعل منه مساحة يخوض فيها الإنسان بحرية المحتويات.

يتكوّن الدماغ من المخ، وجذع الدماغ، والمخيخ وينقسم كل نصف (نصف الكرة الدماغية) في الدماغ إلى فصوصي، المخ الذي يملأ الجزء الأكبر من جمجمتك، مهمته التذكر، حل المشاكل، التفكير، والشعور، ويسيطر أيضاً على الحركة، المخيخ وموقعه خلف الرأس، تحت المخ، وله السيطرة على التنسيق والتوازن، جذع الدماغ وموقعه تحت المخ وأمام المخيخ، ويوصل بين الدماغ والنخاع الشوكي وله السيطرة على الوظائف الذاتية كالتنفس، الهضم، معدل القلب وضغط الدم.

✓ **التحكم والتفكير:** تعدّ وظائف الدماغ غامضة وملحوظة على حدّ سواء، وتعتمد على مليارات الخلايا العصبية والتواصل الداخلي بينها، فكل الأفكار والمعتقدات والذكريات والسلوكيات والأمزجة تنشأ داخل الدماغ، والدماغ هو محلّ الفكر والذكاء، ومركز التحكم في الجسم كلّهُ؛ كما يُنسّق القدرات على التحرك واللمس والشمّ والتذوّق والسمع والرؤية؛ ويمكن الأشخاص من تشكيل الكلمات، والتحدث، والتواصل، والفهم والتعامل مع الأرقام، وتأليف وتذوّق الموسيقى، والتعرّف إلى الأشكال الهندسية وفهمها، والتخطيط للمستقبل، وحتى التخيل والفنتازيا، ويراجع الدماغ جميع المحفزات والمنبهات . من الأعضاء الداخلية وسطح الجسم والعيون والأذنين والأنف والفم ثم

يتفاعل مع هذه المحفّزات من خلال تصحيح وضعيّة الجسم، وحركة الأطراف، والمعدّل الذي تعمل فيه الأعضاء الداخلية. كما يمكن للدماغ أيضًا أن يحدّد المزاج ومستويات الوعي واليقظة.

✓ **موطن السلوك:** يرجع كلّ تصرّف إلى العقل؛ فهو المُبادر إلى الخير والشرّ، فهو الذي يرسل الإشارات الدّالة على الغضب عن طريق الجهاز العصبي، وهو منفذ الأعمال الإدراكيّة كالانتباه، وأنواعه المختلفة من الانتباه المركّز إلى الانتباه الانتقائي هو الذي يختار المنبه ويُشخّصه في زمن الهدوء أو الفوضى، والمُتّصل، والمُتّاب، والمُقسّم وهو القدرة على الاستجابة لأكثر من مهمّة واحدة، كما أنّ الدّماغ خزّان الذاكرة القريبة والبعيدة، والذاكرة الآنيّة وهي إدراك الشّخص مثلاً فور رؤيته، واسترجاع اسمه أو عمله أو مكان لُقياه، والعقل له القدرة على تنظيم السلوك أو تهذيبه، أو توقيف ردّة الفعل، عند الغضب مثلاً باستطاعة العقل إمساك الجوارح عليه، وهو مأوى الخيال، باستطاعة العقل يخوض في تجارب بعيدة عن الواقع، أو أن يرسم مستقبل أي شيء أو فردٍ في لحظات، هذا الكمّ الهائل الذي سُمح به من لدن المُنعم سُبْحانه، باستطاعته أن يكتشف أشياء قد تبدو للوهلة الأولى شيئاً من الجنون، لو رجعنا للعقل البدائي وأخبرناه بما يفعله العقل المعاصر من تفوّق، لما صدّق ذلك، أو رماك بالجنون فكلّ الأحلام التي يتخيّلها العقل يمكن تحقيقها لأنّه فكّر فيها أو تخيلها.

✓ كلّ هذه المساحة جعلها الله للإنسان، تكريمًا له وتعظيمًا لشأنه، وتقديس إنسانيّته التي تضاهي تسامي الذات العليّة، فعالم الرّوح عالم معقّد الظاهر منه هو العقل وأثره بيّن في سلوك الإنسان، وأدواته البيولوجيّة محلّ متابعة اهل الطبّ، فربّما يأتي اليوم الذي يكون فيه علاج الجنون.

✓ تدريب الدماغ على التفاضل والصبر يزيد من إيمان المسلم، ويجعله ذا صحة جيّة وينعكس هذا على مردوده في العمل، أو في تربية الناشئة، أو على حياته الروحية وعلاقته مع الخالق سبحانه.

✓ الدماغ فضاء واسع، يستوعب السلوك الإنساني سلبيًا أو إيجابيًا، فهو مكان يحمل دلالات مثله مثل الأماكن الوجودية الأخرى التي ترى أو الخفية. وتندرج جميعًا في قوله تعالى على لسان موسى لما سئل عن رب العالمين قال: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (طه: 50).

المبحث الثاني: النسق الثقافي لنشأة الكون والإنسان

ورد كتاب الله عديدُ الآيات التي تُعنى بخلق الإنسان، والإنسان في الخطاب القرآني كائن أمدّه الله بالحياة (الروح)، ولكن إذا تفحصنا الآيات نجدّها على خطّ واحد تتجاذب فيه عناصر ثلاثة الخِلقة، ماهية الوجود، أو البعد الوجودي، الاستمرارية.

أولاً: نسق الخِلقة والصّورة:

أ/ الخِلقة: والخِلقة بكسر الخاء تعني بها شكل الإنسان وأصله، فأخبرنا القرآن عن خلق الإنسان، وبدايته فقد خلقه الله من الطّين أو من التّراب، وهذا في أصله مدلول واسع وهو أن الإنسان وُجِدَ في الأرض منها خُلق و إليها يعود، ومنها يُبعث كما ذكرنا، والأرض هي الإنسان في النّهاية فهو حمل للتّراب، وما الرّوح إلّا هي التي تُمدّه بالطاقة كما سنرى في تحليلنا للأنساق المعرفية، وهي أيضا بمثابة العصفور في قفص مسجون إلى حين أن ينال حرّيته، فحتى إذا وقفت عند إنسان مات وخرجت روحه يصبح في صورة التراب، أو هيكلي ترابي يتشارك معه في السّكون والتحلّل كما يتحلّل التراب وحتى في الرائحة فهو إلى حدّ ما رائحة التراب، فهو يأكل ممّا تنتجه الأرض، فهو إلى الأرض ومنها وعليها.

يذكر الله سبحانه وتعالى أصل الإنسان وخلقّه: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ١٤) [الرحمن:14]، "الصلصال: الطين اليابس له صلصلة. والفخار: الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف"¹.

ولكن للرازي رأي آخر حول المعنى الدال عن الصلصال، " وفي الصلصال وجهان : أحدهما: هو بمعنى المسنون من صل اللحم إذا أنتن، ويكون الصلصال حينئذ من الصلّول، وثانيهما: من الصليل يقال: صل الحديد صليلاً إذا حدث منه صوت، وعلى هذا فهو الطّين

¹الزمخشري، الكشاف، ج6، ص8

اليابس الذي يقع بعضه على بعض فيحدث فيما بينهما صوت، إذ هو الطين اللازب الحر الذي إذا التزق بالشّيء، ثم انفصل عنه دفعة سمع منه عند الانفصال صوت ¹.

فالصلصال نوع من التراب حتى إذا اختلط بالماء وبیس أصدر صوتا يشبه صوت الأواني الفخارية إذا تكسّرت ، وقد يدلُّ المعنى عن اللحم إذا نتن وهي كلّها دلالة تتصوي تحت مدلول التراب ، وقال أيضا: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾) [الصافات:11]، واللزوب الالتصاق، "حدثنا محمد بن الحسين قال: ثنا أحمد بن المفضل قال: ثنا أسباط، عن السدي: فاستفتهم أهم أشد خلقا قال: يعني المشركين، سلهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا، وقوله: إنا خلقناهم من طين لازب يقول: إنا خلقناهم من طين لاصق، وإنما وصفه - جل ثناؤه - باللزوب، لأنه تراب مخلوط بماء، وكذلك خلق ابن آدم من تراب وماء ونار وهواء، والتراب إذا خلط بماء صار طينا لازبا، والعرب تبدل أحيانا هذه الباء ميما، فتقول: طين لازم، ومنه قول النجاشي الحارثي:

بَنَى اللُّؤْمُ بَيْتًا فَاسْتَقَرَّتْ عِمَادُهُ عَلَيْكُمْ بَنَى النَّجَارِ ضَرْبَةً لَازِمٌ

ومن اللازب قول نابغة بني ذبيان:

وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرَّ بَعْدَهُ وَلَا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةً لَازِبٌ

وربما أبدلوا الزاي التي في اللازب تاءً، فيقولون: طين لاتب، وذكر أن ذل في قيس زعم الفراء أن أبي الجراح أنشده:

صَدَاعٌ وَتَوْصِيمُ الْعِظَامِ وَفَتْرَةٌ وَغُثْيٌ مَعَ الْإِشْرَاقِ فِي الْجَوْفِ لَاتِبٌ

بمعنى : لازم، والفعل من لازب: لزب يلزب، لزبا ولزوبا وكذلك من لاتب: لَتَبَ يَلْتَبُ لَتَوْبًا وينحو الذي قلنا في معنى (لازب) قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك: حدثني عبيد الله

¹فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج29، ص87

بن يوسف الجبيري قال: ثنا محمد بن كثير قال: ثنا مسلم، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: من طين لازب قال: هو الطين الحرّ الجيد اللزج¹،

ب/ الصورة: وذكر الله تعالى أنّ الروح كانت من عنده ونفخ آدم منها، وأصبح بذلك جسدا له ميزات خلقية؛ أي صورته على هذا الشكل الذي هو عليه قال تعالى: (يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾) [الانفطار: 6-8]، وفي الآية خطاب موجّه للانسان بأسلوب فيه دعوة إلى التماس السماع مع اللّين والرأفة المتبوعة بالحجّة والبرهان، والدليل على حسنِ صنيع الله، " معناه: أن حق الإنسان أن لا يغتر بتكرم الله عليه، حيث خلقه حيا لينفعه، ويتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعدما مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب.

اغترارا بالتفضل الأول، فإنه منكر خارج من حد الحكمة، ولهذا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلاها: "غره جهله" وقال عمر -رضي الله عنه - : غره حمقه وجهله. وقال الحسن: غره والله شيطانه الخبيث، أي: زين له المعاصي وقال له: افعل ما شئت، فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولا وهو متفضل عليك آخرا.

حتى ورطه وقيل للفضيل بن عياض: إن أقامك الله يوم القيامة وقال لك :ما غرك بربك الكريم ماذا تقول؟ قال: أقول: غرتي ستورك المرخاة، وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ في الاغترار بالستر²، ثم إن خلق الإنسان كان في أحسن شكلٍ ممكن دون تفاوت في الصفات البيولوجية والفيزيولوجية، خلقه باثقان، وجعل له بصيرين وأذنين وفم وأنف، وألبس عليه النعم من السّمع والبصر والحواس، وأجهزة تتفسّر، وهضمٍ وتناسلٍ، وكل مخلوقٍ من البشر يختلف عن الآخر شكلا ولونا.

¹الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج21، ص20

²الزمخشري، الكشاف، ج6، ص330

ولهذا ففي تنشأة الانسان اختلاف وتنوع، " حدثني محمد بن سنان القزاز، قال: ثنا مطهر بن الهيثم، قال: ثنا موسى بن علي بن أبي رباح اللخمي، قال: ثني أبي، عن جدي، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: " ما ولد لك؟"، قال: يا رسول الله ما عسى أن يولد لي، إما غلام، وإما جارية، قال: " فمن يشبه؟ " قال: يا رسول الله من عسى أن يشبه؟ إما أباه، وإما أمه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عندها: " مَهْ ، لا تقولن هكذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر الله كل نسب بينها وبين آدم، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله في أي صورة ما شاء ركبك قال: سلكك ¹ .

ولم يخلق الله الإنسان عبثاً بل خلقه ليخلفه في الأرض، وهذا ما ذكرناه في دلالة الأرض، وكذلك اعمارها لها قال تعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾) [هود:61]، ومن هنا تبين أن أول مدلول لفهم الإنسان هو طبيعة نشأته وخلقته التي هو عليها ومنه:

✓ فإن الإنسان كائن خلقه الله من طين، ونفخ فيه الروح وجعله على أحسن صورة ممكنة، بل نوع في خليفته، والدليل والاختلاف الذي نراه في البشر فيوجد البيض، والسود، والحمرة، والصفرة، واختلاف الأشكال والألوان سنة الله في خلقه ودليل على عظيم صنعه، ولم يكن كذلك لقال الكفرة لولا أن أوجد الله أنواعا أخرى من خلقه.

✓ الإنسان من تراب فهو مختزل في فضاء الأرض لا يحيد عنها منها نشأ وإليها تربي وكبر وترعرع وسافر فيها وفيها يدفن ويبنى ويصبح ترابا منه فالإنسان مكان يشغل حيّزا من فضاء الأرض، وإذا كان في الجن فهو في مكان أبيض وإن كان في النار

¹ الطبري، جامع البيان، ج24، ص 270

أيضا، وإن سكن الكهف أو المغارة أو بنى القصر فهو استغل حيزا ومكانا فهو فضاء يسيح حيثما وجد وأينما ارتحل.

ثانيا: نسق الالتحام واختبار: جعل الله الإنسان في مرتبة العليين، وجعل الجنة مقامه ومأواه، ولكن لم يتركه يعبت فيها، بل أراد اختباره، فترك إبليس دون عقاب ليعرف مدى حسده وبغضه له ويكتشف حقيقة عداوته، فاختبر صبره على طاع الله بأن حرم عليه الأكل من شجرة في الجنة لكن العبرة فيما يكون من بعد هذا التحريم، فأزله الشيطان عنها، فأول صدمات ابن آدم هي التحامه مع الشر الكامن في إبليس.

أ/ الالتحام: يُقصد به الالتحام الذي أحدثه الإنسان في العالم بصفة خاصة والكون بصفة عامة هذا الالتحام تولّد عنه صدمات وإرهاصات، فالله لم يخلق الإنسان عبثا، بل لحكمة وغاية، قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾) [المؤمنون:115] وهو أن يجعل منه خليفة له في الأرض فأوجده على هيئة معينة يؤدي بها دوره من السعي والنيل من الأرزاق، وكذلك أوجد له فضاء وحيزا من الاتساع لكي تظهر نتائج هذا الخلق فيما بعد، وأن يحصل ذلك الإختبار الأزلي الذي به يعرف الخبيث من الطيب ويدرك به السعيد من الشقي.

فأول ما أوجد له الشر المتمثل في إبليس، عن أناس من أصحاب النبي صل الله عليه وسلم لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك السماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وإنما سُموا الجن لأنهم خُزّان الجنة وكان إبليس مع ملكه خازنا فوق في صدره كبر وقال ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي على الملائكة فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه.

فقال الله للملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة) قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة قال يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قالوا ربنا: (قالوا أَتَجْعَلُ

فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) يعني من شأن إبليس فبعث الله جبريلَ إلى الأرض ليأتيه بطينٍ منها فقالت الأرضُ إني أعودُ بالله منك أن تقبضَ مني أو تشيني فرجع ولم يأخذُ وقال ربِّ مني عادتُ بك فأعدتُها فبعث ميكائيلَ فعادتُ منه فأعادها فرجع فقال كما قال جبريلُ فبعث ملك الموتِ فعادتُ منه فقال وأنا أعودُ بالله أن أرجعَ ولم أنفذُ أمره فأخذ من وجه الأرضِ وخططَ ولم يأخذُ من مكانٍ واحدٍ وأخذ من تربةٍ حمراءَ وبيضاءَ وسوداءَ فلذلك خرج بنو آدمَ مُختلفين فصعدَ به قبلُ الترابَ حتى عاد طينًا لازبًا واللَّازِبُ هو الذي يلتزقُ بعضُه ببعضٍ ثم قال للملائكةِ (إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) فخلقه الله بيده لئلا يتكبرَ إبليسُ عنه ليقولَ له تتكبرُ عما عملتُ بيديَّ ولم أتكبرُ أنا عنه فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طينٍ أربعينَ سنةً من مقدارِ يومِ الجمعةِ فمرت به الملائكةُ ففرعوا منه لما رآوه وكان أشدهم فرعًا منه إبليسُ فكان يمرُّ به فيضرُّه فيصوتُ الجسدُ كما يُصوتُ الفخارُ وتكون له صلصلةٌ فذلك حين يقولُ (مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) ويقولُ لأمرٍ ما خُلقتُ ودخل من فيه فخرج من دُبُرِهِ وقال للملائكةِ لا تَرهبوا من هذا فَإِنَّ رَبَّكُمْ صمدٌ وهذا أجوفٌ لئن سُلِّطْتُ عليه لأهلكَنَّهُ.

فلما بلغ الحينُ الذي يريد الله عزَّ وجلَّ أن ينفخَ فيه الروحَ قال للملائكةِ إذا نفختُ فيه من رُوحِي فاسجدوا له فلما نفخَ فيه الروحُ فدخل الروحُ في رأسِهِ عطسَ فقالت الملائكةُ قل الحمدُ لله فقال الحمدُ لله فقال له الله رَحِمَكَ رَبُّكَ فلما دخلتِ الروحُ في عَيْنَيْهِ نظرَ إلى ثمارِ الجنةِ فلما دخل الروحُ في جَوْفِهِ اشتهى الطعامَ فوثبَ قبل أن تبلُغَ الروحُ رجليه عَجَلانَ إلى ثمارِ الجنةِ فذلك حين يقولُ تعالى (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ) (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) أبى واستكبرَ وكان من الكافرينَ قال الله له ما منعك أن تسجدَ إذ أَمَرْتُكَ لما خلقتُ بيديَّ؟ قال أنا خيرٌ منه لم أكن لأسجدَ لمن خلقتَه من طينٍ قال

الله له (أَخْرَجَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ) يعني ما ينبغي لك (أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) والصَّغَارُ هو الذُّلُّ قال: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا).

ثم عرض الخلق على الملائكة (فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أَنْ بني آدَمَ يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء فقالوا (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) قال الله: (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) قال قولهم (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) فهذا الذي أبدوا (وَأَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) يعني ما أسرَّ إبليسُ في نفسه من الكبرِ الراوي: عبدالله بن مسعود¹.

فحمل إبليس خُلقين ذميمين هما الحسد والكبر، فكان ذلك في نسل ابن آدم كما كان في قصة هابيل وقابيل، فاتباع الشيطان يجعلك تقع في فضاء الشر، والإنسان أيضا أوجد الله فيه العجلة والتسرع في كل شيء و الاندفاع قال تعالى: (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٢٧﴾) [الأنبياء:37]، والفعل مبني للمجهول دلالة على أن هذا فطرة أكسبها الله الإنسان لكي يكون الاختبار جدّيًا، وكذلك الإنسان يستعجل الخير والشر، وقال: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾) [الحج:47].

فمما جُبِلَ عليه الانسان الاستعجال وهو صفة حكمتها في أن يعلم الإنسان مصيره، وحتى إذا أتاه لا يلوم إلا نفسه، وحتى أن المولى عزَّ وجلَّى سمَّى الدُّنْيَا بالعاجلة لأنها تفتنى وتزول فالعجلة تهب ريثا كما قالت العرب، وفي هذا الباب نجد البشر جميعا يستعجلون في حياتهم الأسرية والدِّرَاسية وحتى هذا النّمو السّريع للبشرية إنما كان من عجلتهم قال تعالى: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾) [القيامة:20]، وممّا أوجده الله في الإنسان حبُّ الخلود والسيطرة

¹ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص109

وقال عن اليهود قال تعالى: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ [البقرة:96])، ولهذا نجد في القرآن التذكير الدائم بالموت والفناء، تنبيهها للغافل وتوعية للجاهل بأن الحياة الدنيا مصيرها الزوال. حب الخلود الذي في الإنسان أن لا يشغله عن الجهاد في الطاعات والقربات.

وهذه صفات نقلت عن طريق موطن الشر إبليس العين الذي رفض أن يسجد لله تعالى. وهذه الأخلاق الذميمة من الحسد والكبر ورثها من شر إبليس حتى صار للإنسان عدو ونشر العداوة بين بني البشر قال الواحد: (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ [البقرة:36]).

ب الاختبار: ومما أوجده الله في الإنسان جحود النعمة ونسيان المعروف، وهذا أيضا ممن مسببات الهلاك، فنى الله تعالى يعاتب الإنسان عن هذا ويذكره بنعم الله فالخطاب القرآني يحاول أن يداوي هذه الجراح الموجودة في الإنسان تنبيهها له ولهذا سمى بالذكر الحكيم قال تعالى عن هذا: (وَعَاثَكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣١﴾ [إبراهيم:34])، والكفر هنا يعني به جحود النعمة ونسيانها، وقال أيضا: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ [العاديات:6]).

" والتعريف في (الإنسان) تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالباً، أي أن في طبع الإنسان الكنود لربه، أي كفران نعمته، وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوت فيه ولا يسلم منه إلا الأنبياء وكمل أهل الصلاح لأنه عارض ينشأ عن إثارة المرء نفسه وهو أمر في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكر حق غيره، وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله، والإنسان

يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخلق منها، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبتها¹.

ولهذا نجد الإنسان قليل الإنفاق، وحارب الإسلام البخل، ودعى إلى الإنفاق في سبيل الله من باب الصدقة والزكاة، وهذب فيه خلق الجشع بأن جعل الله الناس متفاوتة من حيث الأرزاق وفي هذا حكمة بالغة، فالأرزاق مختلفة ومتنوعة فالمال رزق والصحة أيضا والعلم والملك والسلطة فكلها أرزاق ولكن توزيعا فيها محاربة لجشع الانسان وبخله.

ومما نجده في الإنسان كثرة الجدل والخصام قال تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ [الكهف:54])، وفي هذا نجد الانسان كثير التساؤل منشغل بما لا ينفعه ويجادل حتى في الله تعالى ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة².

ونرى الإنسان من صفاته الخوف والجزع والهلع قال تعالى: (وَإِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ [المعارج:19-22])، ويتكرر الفعل المبني للمجهول (خُلِقَ)، وهذا من الجبلة التي عليها الإنسان فلا يمكن أن يفرّ منها سوى باتباع صراط الله ولهذا في المقابل نجد بأن الله تعالى يدعو إلى الطمأنينة والسكينة والصبر والحلم وكظم الغيظ والعفو والسماحة التي ترافق العبد النقي في كل تصرفاته خاصة في الصلاة ومن بعدها فهي تنهاه عن هذه الطباع الذميمة «والهلع في اللغة، أشد الحرس وأسوأ الجزع وأفحشه وكذلك قال قتادة، ومُجاهد وغيرهما وهلع بالكسر يهلع فهو هليع وهلوع، على التكثير والمعنى أنه لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل

¹ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30 ص 198

²ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5، ص171

فيهما وقال عكرمة هو الضجور، وقال الضحّاك: هو الذي لا يشبع؛ والمنوع هو الذي أصاب المال ومنع منه حقّ الله تعالى، وقال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويرضيه، ويهرب مما يكرهه ويسخطه، ثم تعبد الله بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره، وقال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مسّه الخير لم يشكر، وإذا مسّه الضر لم يصبر¹.

ومما أوجده الله في الإنسان اليأس والقنوط قال تعالى: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣) [الإسراء: 83]، واليأس هو نوع آخر من الغفلة التي تتسلل إلى الإنسان فتحدث اضطرابا في عقيدته فينسى الخالق سبحانه، والإنسان أيضا فوق كلّ هذا ينسى فهو كثير النسيان، ينسى فضل المنعم سبحانه، وفضل من أعطوه ومنحوه، ولهذا نجد قليلا من البشر من فيهم خصلة الشكر قال تعالى: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝١٣) [سبأ: 13-13] ومما سبق ذكره يمكن القول:

✓ أن الإنسان بعدما خلقه الله على أحسن حال لم يتركه عبثاً بل أوجده لحكمة وهي طاعة الله وخلافة الأرض وإعمارها وعبادة الله واتخاذ صراط الله المستقيم مذهباً وفصلاً ومنهاجاً، والإنسان محلّ اختبار (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤) [البلد4] يشغل الأرض ويعمرها فلا بد له من سبل صحيحة يتخذها وهذه السبل هي في أن يعلم مصيره المحتوم.

✓ وثانيا لا ينقاد إلى نزواته وشهواته التي هي في ناموسه الفطري أو يتخذها مذهباً أو إلها يعبد، فلا بد أن ينقاد نحو الفضيلة، والله خير وهو الذي أوجد الشر فجعله في صورة كمخلوق أو كجوهر وفضاء فلا يتّبعه، فيوجد إبليس واحد، ولكن اتباعه هو بمثابة إبليس آخر يماثله أو يشابهه، وإبليس فضاء يمثل الشر، والله فضاء يمثل

¹ القرطبي، أحكام القرآن، ج18، ص266

الخير، والإنسان مخير بين أن يتخذ مذهب الخير أو مذهب الشر، قال تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (٣) [الإنسان:3]، وقال أيضا: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (٨) [الشمس:7-8]، فهو مخير في الاتباع، وليس مكرها، والحق بين والضلال بين فلا يمكن إلا أن يختار أي الطريقين أنفع له.

✓ الإنسان مخلوق ضعيف جعل الله فيه الضعف فلا يستطيع بعقله ولا بقلبه ولا بجوارحه أن يصل إلى النقاء والصفاء، فالخطأ وارد ولا يوجد إنسان موجود على هذه الأرض ولم تكن له نقيصة الكمال الله تعالى وهذا ردُّ على أصحاب من يظنون بأنَّ عقل الإنسان يمكن أن يصل إلى درجة التفكير الوجودي، فهو كائن جُل على الخطأ، وما أعماله وتصرفاته إلا نابعة من هذه السليقة التي هو فيه.

✓ الخطاب القرآني بالنسبة للإنسان توجيهي فهو يحاول أن يرسم له حدودا لا يتجاوزها، والصراط المستقيم من الاستقامة فلا اعوجاج فيه ، أي لا إفراط ولا تفريط، فالقرآن يعلم ما يجمع الإنسان ككائن وفضاء وجودي على الأرض فأملَى عليه النهج الذي يسلكه من خلال معالجة كلِّ النقائص الموجودة فيه وما (النسيان، واليأس، والضعف، الهلع، والجزع، والبخل، والجحود) إلا فضاء يكون مع ما تجلَّى في إبليس من (الكبر والحسد وحب الذات) كيان السلبية والفجور، فعالجها القرآن بالصدقة، والصبر، والعفو، والعبادات المختلفة، فالصلاة هو حبل الله الذي جعله وفرضه عليه كيلا ينسى، وجعل القرآن ذكرى وتنبيها للغافلين.

ثالثا نسق الاستمرارية والتناسل:

مدام الله أراد أن يجعل الله خليفة في الأرض، وخلق الحياة والموت، فقد أوجد له عوامل الاستمرار، وهذا العامل هو جدير بالتأمل فإذا كان آدم هو أول الخلق، وهو الذي صنعه بيده، وكونه ثم قال له كن فيكون.

أ/ الإستمرارية: وضرب لنا مثلا في هذا عند حديثه عن خلق عيسى عليه السلام، قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾) [آل عمران: 59]، ولكن باقي البشر من لدن آدم إلى اليوم كان عن طريق النسل لما خلق الله آدم، مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نَسَمَةٍ هو خالفها من ذُرِّيَّتِهِ إلى يوم القيامة، وجعل بين عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيَّضًا مِنْ نُورٍ، ثم عرضهم على آدم، فقال: أَيُّ رَبِّ مَنِ هَؤُلَاءِ؟ قال: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فرأى رجلاً منهم، فأعجبه وَبَيَّضُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فقال: أَيُّ رَبِّ مَنِ هَذَا؟ فقال: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمرَهُ؟ قال: سِتِّينَ سَنَةً، قال: أَيُّ رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فلما فُضِيَ عُمرُ آدم، جاءه مَلَكُ الْمَوْتِ، فقال: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قال: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنُكَ دَاوُدَ؟ قال: فَجَدَّ آدم، فَجَدَّتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدم، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِيَّ آدم، فَخَطِيَّتْ ذُرِّيَّتُهُ الراوي: أبو هريرة «. ونفهم من هذا الحديث أَنَّ ذُرِّيَّةَ آدم عليه السلام قد عدّها الله في خلقه قبل أن يجعل لها نسلا بعد نسل.

وَأَنَّ الله قد جعل لكل إنسان عمرا محددا يعيشه ثم يموت، والاستمرار في الخلق سنة الله في ذلك، وفي القرآن يوجد ما يُثبت ذلك قال تعالى: ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾) [الأعراف: 172].

وأورد الله طبيعة الاستمرار بذكر طبيعة النسل قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾) [المؤمنون: 12-14] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون: 12-14]، وفي هذا إشارة إلى بداية الإنسان، ثم مراحل استمراريته ؛ ولكن لم تكن هذه المرحلة موجودة لولا أن خلق الله لآدم وزوجه، و بها تستمر حياة الإنسان على الأرض إلى أن يرثها الله، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ [النساء: 1].

"والنفس الواحدة: هي آدم والزوج: حواء، فإن حواء أخرجت من آدم من ضلعه، كما يقتضيه ظاهر قوله منها، "ومن " تبعية. ومعنى التبعية أن حواء خلقت من جزء من آدم، قيل: من بقية الطينة التي خلق منها آدم ¹، ومن الاستمرارية أيضا أن أوجد للإنسان محيطا يعيش فيه هو المحيط الأسري (الأرحام)، فجعل تقواه سبحانه في هذا بحيث "يبدأ بأية الافتتاح، التي ترد الناس إلى رب واحد، وخالق واحد كما تردهم إلى أصل واحد، وأُسرة واحدة، وتجعل وحدة الإنسانية هي " النفس " ووحدة المجتمع هي الأسرة، وتستجيش في النفس تقوى الرب، ورعاية الرحم، لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف التكافل والتراحم في الأسرة الواحدة ، ثم في الإنسانية الواحدة، وترد إليه سائر التنظيمات والتشريعات التي تتضمنها السورة" ² .

فالزواج في المفهوم القرآني ، هو رباط الله في الخلق وغاية استمرارية الجنس المخلوق في الصورة التي يريدها الله تعالى في خلقه فحرم الزنى، وأقام للبشرية سننه في ذلك بأن جعلهم في فضاء واحد هو الأسرة، ثم المجتمع ثم الإنسانية جمعاء، ولهذا نظم الله هذه الاستمرارية بجملة من التنظيمات والتشريعات، "ومن هذه التشريعات ما يتعلق بالضعاف في الأسرة وفي الإنسانية من اليتامى، وتنظم طريقة القيام عليهم وعلى أموالهم كما تنظم طريقة انتقال

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص215

² السيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، ص572

الميراث بين أفراد الأسرة الواحدة، ونصيب الأقرباء المتعدي الطبقات والجهات، في الحالات المتعددة.

وهي ترد هذا كله إلى الأصل الكبير الذي تضمنته آية الافتتاح، مع التذكير بهذا الأصل في مطالع بعض الآيات أو في ثناياها، أو في خواتيمها، توثيقاً للارتباط بين هذه التنظيمات والتشريعات، وبين الأصل الذي تنبثق منه، وهو الربوبية، التي لها حق التشريع والتنظيم، هذا الحق الذي منه وحده ينبثق كل تشريع وكل تنظيم¹، فأصل الإنسان واحد، وربّه واحد فلا بد أن ينصاع لأمر ربّه المنظم لبيئته وفضائه الذي يعيش فيه.

وهذب الله السلوك البشري فلم يغرس فيه بذرة الحيوانية، فقد ميّزه عن سائر الخلق بالزواج، وإذا ألقينا نظرة على الاستمرار الوجودي لباقي المخلوقات التي تمتاز بالروح (الحياة) نجدها على هيئة مخالفة للتنظيم البشري، وجدير بالذكر هنا ضرورة وجود النسب، فهو ميزة بشرية، ومن خلاله نفهم معنى قوله تعالى: (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)، والتعارف لا يكون قائماً إلا بالأسماء والأنساب، فيقال قبيلة فلان، وشعب فلان، ولكلّ منّا أب وجد وأسرّة وعرش وشعب ينتمي إليه، وفي هذا تكريم للبشر.

وشرّع الله الزواج ونظمه وجعله ميثاقاً غليظاً بل أنه أتى بنقيضه وهو الطلاق وجعل له تنظيمًا خاصاً به، فلا يجوز للمرأة أن تتكح غيرها حتى تنقضي عدّتها المحسوبة بميقات لكي تعرف حملها من الزوج الأول وفي الطلاق حكمة بالغة لأنه ينظم النسل ويُعرف بذلك الأصهار والأبناء، فقد تكون للزوج أبناء من نساء وأصهار مختلفون وكذلك الحال بالنسبة للزوجة، وحرم الله التّبّي لما فيه من اختلاط الأنساب، ويوم القيامة ينادى كلّ باسمه واسم أبيه. بل بنبيهم الذي فيهم قال تعالى: (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوّتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾) [الإسراء: 71].

¹ السيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، ص 273

" في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال هذه غدره فلان بن فلان خرج مسلم والبخاري، فقلوله: هذه غدره فلان بن فلان دليل على أن الناس يدعون في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يرد على من قال: إنما يدعون بأسماء أمهاتهم لأن في ذلك سترا على آبائهم. والله أعلم¹، والشاهد في هذا أن المنعم سبحانه جعل للانسان حاضنة يعيش فيها هي الأرض، وميزه وفضله عن سائر خلقه بالنسب وبذلك هذب سلوكه الحيواني بالزواج وفي ذلك ستر له، وأنعم عليه بتنظيم وتشريع لينظم محيطه الذي يعيش فيه وحمله مسؤولية هذه الاستمرارية.

ب/ التناسل: إن الانسان خلق حيواني من الناحية البيولوجية والفيزيولوجية فأصله تراب ولكن نشأته جعلها الله من نطفة ، ولكن الذي سنذكره هنا هو طبيعة استمراره من ناحية وجوده فقد خلقه أطوارا في رحم أمه، وأطوارا في حياته، وكذلك حياة الشعوب والبشر والحضارات، قال جل وعلا: (يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْتَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ [الحج:5].

فقد ذكر في هذه الآية مراحل نمو الإنسان أفقي. أي في بطن أمه وعموديا مسيرة حياته، فهو من مرحلة الضعف على القوة إلى الخروج إلى الحياة، وكذا مرحلته في الدنيا فهو في ضعف وقوة ثم ضعف ثم فناء، وهذه من حكم الله تعالى في استمرار خلقه فلا تعب يدوم

¹القرطبي، أحكام القرآن، ج10ص، 266

ولا ضعف أيضاً، وهذا النظام العجيب سمّاه الله تعالى أطواراً، قال سبحانه: ((وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤)) [نوح:14].

" وفيه وجهان الأول: قال الليث: الطورة التارة يعني حالا بعد حال كما ذكرنا أنه كان نطفة، ثم علة إلى آخر التارات، الثاني: قال ابن الأنباري: الطور الحال، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضكم بعضاً، ولما ذكر هذا الدليل من الأنفس على التوحيد، أتبعه بذكر دليل التوحيد من الآفاق على العادة المعهودة في كل القرآن "1، وقال تعالى: (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩) [الانشقاق:19]، "أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة، من النطفة إلى العلة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً، ثم مميّزاً، ثم يجري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم"2.

فالسنة الله في استمرار رسالة الخلق والوجود الانساني هو الموت والحياة وشاءت حكمته سبحانه وتجلّت عظمتة أن نعيش مراحل مختلفة من شدة وضعف ورخاء وسعة ضيق وعسر وهكذا، كذلك حال الدول والأمم فالحضارة تكون في البداية ضعيفة ثم تشتد ثم تزداد قوة ثم تضعف فتزول ولنا في حضارة الاسلام لعبرة، يمكن القول أن الإنسان كائنٌ يحمل فضاء الخلقة والوجود والاستمرارية.

فهو يشغل حيزاً من هذا العالم أما ما ميّزه الله عن سائر الخلق فقد أوجده على أحسن صورة ويختلف على نظيره وأخيه في اللون والشكل وجعله الله خليفة يسعى في الأرض فهو جماد يملك الأرض وفيها يعيش ومنها يقتات، والإنسان كائن وجودي أي أنه يحمله رسالة

¹ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج30، ص 124

² عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، جدة، السعودية، ط1، 2000،

كونية وجودية، وهو محل اختبار وابتلاء، فأوجد الله فيه نقائص يكملها بتعاليم صراطه المستقيم فقد خلقه ضعيفا لا يقوى على الأهوال، باستطاعة دابة الأرض أن تهلكه.

وأوجد فيه حب التملك والسيطرة والحرية واليأس والجدال، والجزع والطمع كلها صفات نالها من الجزء الموجود في خلقه وهو جانب الشر، وهذه الاشياء كلها بصفاتها عدواً تمتلت في بداية الأمر على هيئة الشيطان الذي رفض أن يسجد له.

ثم إنه مستمر في الوجود فجعل له الله أدوات وجوده، فخلق الله الزوجة لتكمل عيوبه ونقائصه وسترا له وحفاظا على استمراره، وفضله على سائر خلقه بأن جعل له نسبا وأسرة ومجتمعا وشعبا يتعارف فيها بين أقرانه من البشر، وبعد الفراغ من ماهية الإنسان ككائن وجودي، لا يكفي هذا فقط فالإنسان قرار وتكليف، فقد كلفه الله بحفظ أمانته، فلا بد له من سلطة اتخاذ القرار فأوجد في داخله وجوفه قلبا فما دلالة هذا الفضاء الداخلي؟.

يعد القلب على صغر حجمه مكان يحوي الذكريات والأحاسيس والمشاعر، بل يعبر عن الإدراك ومواقف الإنسان، فإذا كان البيت هو المكان الخارجي للإنسان الذي يحمل مأواه وأمنه وسكينته، فإن القلب بالمقابل هو يحمل ذلك كله ولكن داخله، "إن المتناهي في الصغر إنما هو تدريب يمتلك طاقة ميتافيزيقية يتيح لنا فهم العالم بجهد أقل"¹، ومنه فإن كانت الحواس هي وسيلة لإدراك العالم الخارجي، وللتفاعل معه، فإن القلب وسيلة لإدراك الباطن، فكل من الخيال والوعي والإيمان واليقين مرتبطة بهذه المضغة.

وقد فسر الإمام الغزالي لفظ القلب أنه يطلق لمعنيين: "أحدهما اللحم الصنوبري والشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم أسود، هو منبع الروح ومعدنه، والمعنى الثاني هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو مدرك العلم العارف من الإنسان"².

ورد ذكر لفظ الفؤاد في القرآن الكريم ستة عشر مرة في ستّ صيغ هي بعدد المرات: الفؤاد مرتين ، الفؤاد مرة ، فؤادك مرتين ، أفئدة ثلاث مرات ، الأفئدة خمس مرات ، أفئدتهم ثلاث مرات، بينما ورد ذكر القلب في القرآن الكريم مائة واثنان وثلاثون مرة في أربعة عشر صيغة هي: قلب خمس، القلب مرة واحدة ، قلبك ثلاث مرات، قلبه ثمان مرات، قلبها مرة واحدة، قلبي كذلك واحدة، قلبين مرة واحدة، قلوب خمسة عشر مرة، والقلوب ستّ مرات، قلوبكما مرة واحدة، قلوبكم خمسة عشر مرة، وقلوبنا ستّ مرات، وقلوبهم ثمان وستون مرة، قلوبهن مرة واحدة وورد القلب تعبيراً عن الصدر ومشتقاته في القرآن الكريم في ستّ وأربعين موضعاً.

¹ غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية لدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط5

2000، ص 154

² أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 4

ولو أردنا أن نجعل للقلب معنى صريح وتعريف بسيط: قلنا بأنه عبارة عن تلك العضلة الواقعة في الجانب الأيسر للإنسان وهو جهاز بيولوجي يقوم على ضخّ الدّم إلى سائر الأعضاء، فهو العنصر الأساسي للحياة، وله جانب سيكولوجي لأنه يعبر عن الأحاسيس والمشاعر، وفي المقابل لو تصفحنا معانيه الخفية في كتاب الله لوجدناه يلامس معاني أكثر عمقا، وأنساقا نحاول سردها.

والقلب من الفعل قَلَبَ، أي عَكَسَ، ومنه جاء التَّقَلُّبُ، وضدّه الثَّبَاتُ، وجاء هذا المعنى في آيتين من كتاب الله قال تعالى: (وَتَقَلَّبُ أَفْعِدَتُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾) (الأنعام: 110)، وقال أيضا: (رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾) [التور: 37]، وفي الآية تشبيه مماثل بين قلب العيون وتقلب القلوب، فرغم أن كليهما وصف بالتقلب غير أن تقلب الفؤاد كان تقلبًا لقوى الإدراك، أما القلب فكان لقوى الإرادة؛ أي: إن الفؤاد تقلبه معرفي، أمّا القلب فوجداني ومشاعري.

والقلبُ أيضًا معناه اللُّبُّ، أي خالص العقل، ويُطلق على القلب موطن الأسرار كناية على الحفظ والستر، والفرق بين الفؤاد والقلب لا يتم له ذلك إلا بالرجوع إلى المعنى المعجمي للكلمتين، والجذر اللساني لهما، ثم نرى سياقات استخدمهما في النص القرآني، ففي القاموس المحيط للفيروزآبادي مادة (ق. ل. ب) قلبه: حوله عن وجهه، واطمأن له واستكن¹، أما الفؤاد فقد ذكر الفؤاد من افتأد اکتوى، وافتأدوا أوقدوا نارا والنَّفْؤُ الدَّخْرُ²، وحين استقراء المعنى البياني للمقام في النص القرآني حين أسرد قصة موسى عليه السلام وهو رضيع،

¹ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد ابن يعقوب، القاموس المحيط، ص 117

² المصدر السابق، ص 271

قال تعالى: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾) [القصص:10].

نقف عند مقام الشخصية المحورية في القصة وهي أم موسى عليه السلام، ففي أعلى درجات الخوف والرغبة أستخدم القرآن لفظ الفؤاد، وفي أعلى درجات الثقة بوعده المولى عز وجل بإرجاعه لها استعمل لفظ القلب المناسب للمقام المذكور، ومنه فلفظ الفؤاد أستخدم للدلالة على معنى العقل واللب، والفراغ مجازي ومعناه فراغ العقل من أمر كان مؤمنا به «فالأمر المتفق بين القلب والفؤاد هو المعنى السطحي الظاهر المعبر عن الوجدان، والمختلف بينهما هو من حيث مقام النص ونسق مدلوله.

وبالعودة للمسألة البيانية في الآية فالقلب هو الربط عليه و توثيقه عن أن يضعف كما يشد العضو الوهن أي ربطنا على قلبها أي بخلق الصبر فيه" ¹، بعد أن اِكْتَوَتْ وَحَزِنَتْ وَافْتَأَدَتْ حين ألقته في اليم، ولو تتبعنا المعنى البياني للفظ الفؤاد في كلام الولي الحميد لوجدناه الأقرب إلى العقل والإدراك قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم:11] ؛ أي ما كذب فؤاد محمد ما رآه ببصره من صورة جبرئيل أي ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك، ولو قال ذلك لكان كاذبا؛ أي أنه رآه بعينه و أيقنه بقلبه" ².

إذاً الفؤاد هو سبيل اليقين والبعد عن الزيف، والإدراك المواكب للعقل المدرك، وقوله تعالى: (وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾) [هود:120]، والفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التي انتهى العقل من تمحيصها، ووصل فيها إلى الحق، وأسقطها على القلب ليدير ويدبر حركة الحياة ³، إن المعنى الأقرب للفظ الفؤاد هو الركون إلى العقل والاستقرار عند الشيء بعدما أدركه الإنسان

¹ المصدر نفسه ص 82

² أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف من حقائق التنزيل، ج3، ص 54

³ أحمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر، ط1، د، ت، ص 6378

بحواسه، وفي هذا الخطاب الموجه للمصطفى صلى الله عليه وسلم عبارة عن رسالة ربانية مفادها أن كل القصص التي نوردها لك عن من سبقك من الرسل إنما هو تثبيتها لك ولكي تستقر على الحق الذي أنت فيه ، وأن لا يخدعك أقوال الناس ولا تصرفاتهم تجاهك.

الدلالات التي يحملها لفظ الفؤاد دلالات حسية وجدانية معبرة عن الجانب الحزين المؤلم، والشاهد في ذلك هو اللفظ المتكون من الأحرف (ف. ء. د. ا.)، فإن هذه الأحرف هي أصوات وعند تركيبها في لفظ معين وجدناه يطابق معاني الحرقه والحرارة، ومثاله نحو: (دِفءٌ)، (مِدْفأةٌ)، (تَفَادٌ)، ومنه فلفظ الفؤاد مناسب للمقام المعبر عن الألم والحزن والاحتراق والشوق وما إلى ذلك من المشاعر، انظر إلى قول المولى عز وجلّ لمّا وصف حال أهل النار في قوله: (الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾) [الهمزة:7]، لأن الفؤاد أولاً مناسب لمقام الاحتراق، ثم إن الفؤاد مطابق لمعاني اليقين والإدراك العقلي، لأنك أيها الإنسان لما عرفت بحواسك آيات الله، وأيقنها فؤادك وتم إدراكها في وعاء عقلك أنكرتها، وأخذت تتكبر وتصدّ عن آيات المولى عز وجلّ، فهذه النار التي أنكرتها برغم من إدراك فؤادك لها، لكن سوف تصل إليه وتَبَيَّنَ الحقيقة أمام عينيك.

وقيل: "معنى تطلع على الأفئدة أي تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، وذلك بما استبقاه الله تعالى من الأمانة الدالة عليه"¹، يمكن من خلال استقراء المعني النسقي نهتدى إلى مفهومين للفؤاد؛ أوله أنه مناسب لمقام الحزن والشوق والاحتراق، وثانيه أن الفؤاد يمكن توظيفه في النسق المعبر عن الإدراك المجرد المقابل لإدراك الحواس المعرفي الظاهر.

أولاً: أنساق فضاء القلب:

ومحلّ الدراسة هو فهم الخطاب القرآني واستقراء مكامن الجمال فيه من خلال اعتبار القلب والفؤاد والصدر كلّ متكامل وهذا بائن في كلام الله، وباعتباره فضاء داخلي يحمل معاني

¹القرطبي، أحكام القرآن، ج20، ص166

ومدلولات وليس فراغا، وللقلب في كتاب الله أنساق ثلاثة وهي الرشد والهداية، والتأمل والتبّر، والإحساس والشعور.

أ/ نسق الهداية: الهداية فضل من المولى عز وجل ونعمة أنعمها الله على عباده، سواء أكانت هداية حسية حقيقية تكون مشاهدة أو هداية روحية ومن أسماء الله الحسنى (الهادي)، فمن الذي أهدى النملة إلى الحبة، والنحلة إلى الورد، والطائر للطيران، والضباع والأسود والذئب للإفتراس، والضفدع لأن يعيش في البر ويعيش في الماء، أليس الله سبحانه.

وممن أثبت أن (الهادي اسم من أسماء الله الحسنى) الخطابي حيث قال: "الهادي هو الذي من بهداه على من أراد من عباده، فخصّه بهدائيه، وأكرمّه بنور توحيده، كقوله تعالى: (وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٥) [يونس: 25]، وهو الذي هدى سائر الخلق من الحيوان إلى مصالحيها، وألهمها كيف تطلب الرزق، وكيف تتقي المضار والمهالك كقوله تعالى: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ٢٥) [طه: 25] ¹.

وأورد البيهقي كذلك قوله الهادي: هو الذي بهدائيه اهتدى أهل ولايته، وبهدائيه اهتدى الحيوان لما يصلحه، واتقى ما يضره²، ومما سبق أن هداية الله تعالى لخلقه على أربعة أوجه: الوجه الأول: الهداية العامة لجميع المخلوقات إلى ما يصلح أمور معاشهم سبيل نيل أرزاقهم، من تحصيل المنافع وطلب الأقوات، كما قال جلّ وعلا عن هدايته للنحل: (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ

¹ حمد ابن محمد ابن ابراهيم الخطابي، شأن الدعاء، تح، أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، القاهرة، مصر،

ط 1 د، ت ص 99

² أبو بكر البيهقي، الاعتقاد، تح أحمد عصام الكاتب، دار الأفق، بيروت، لبنان، ط 1، 2003، ص 50

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٨﴾ [النحل: 68-69]، جعل الله لهذا المخلوق العجيب قوته من الثمرات، ومأواه الجبال فيتخذ من غاباته وكهوفه ومغاراته مقامًا.

والوجه الثاني: من الهداية هو انقياد وإرشاد الناس إلى الله تعالى وما شرع من الدين و التعاليم، وهي وظيفة الأنبياء والرسل وورثتهم من العلماء الربانيين، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ [الشورى: 52]، وهذا العمل خصّه الله لهذه الفئة من الناس لما لهم من حكمة وبصيرة وجلد وبأس على المكاره، فجعل الهداية فيهم.

والوجه الثالث: التوفيق والسداد في الأمر، وهي بيد الله تعالى، فإن الله سبحانه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كما قال تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ [القصص: 56]، ولذلك جعل الله الإيمان به وبما شرع وأنزل وترك الحرية المباشرة للإنسان في أن يختار السبيل الذي يشاء قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّلُغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ [البقرة: 256] وهنا يشترط وجود قابلية عند الفرد للهداية، فيكون التوفيق من المولى عز وجل.

أما الوجه الأخير: هو هدايته سبحانه لخلقه يوم القيامة إلى الجنة أو النار، قال تعالى عن هدايته لأهل الجنة: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾) (يونس: 9)، وقال أيضا في موضع أهل النار: (وَاحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾) (الزمر: 23)، بمعنى اسلكوا لهم طريق النار وفي الدنيا تكون الهداية إلى أعمال البر السبيل للنجاة، أما الهداية إلى الفجور عياذا بالله سبيلا للهلاك.

ويقتضي من اسم الله الهادي، أن يكون له الأثر الخاص به على الناس وعلى الخلق بصفة عامة، فاسم الله الهادي تظهر ملامحها على الحقيقة الواقع لدى المخلوقات ومن بينها الإنسان، ويجب أن نلفت النظر إلى أن أي اسم من أسماء الله الحسنى يختص به هو الله سبحانه وتعالى دون غيره، قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾) [الأنعام: 39]، وقال أيضا في موضع يكون فيه القرآن الحكيم سبيلا للهداية فيه الذكر والموعظة وحسن التدبر: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٤٣﴾) [الزمر: 23]، من شروط الهداية الإيمان بالله والاعتقاد الجازم بأنه هو الذي يهدي إليه من يعود إليه، ومنه جاء الدعاء بالهداية للخلق قال سبحانه: (وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾) [الحج: 54].

ومحلُّ الهداية هي القلب، فإذا كان الإسلام هو دين الله في أرضه، فالهداية تكون بانسراح الصدر لهذا الدين السليم، والله يشرح صدر من يشاء من عباده لهذا الدين قال تعالى: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾) [الأنعام: 125]، أي يرشده لتعاليم، ويُبصره عن نواحيه، وينفتح إلى محبة الله ورسوله.

والصدر لا ينشرح على وجه الحقيقة بل كناية عن الهداية، ومجاز مرسل قرينته محلّية، أي محل الهداية، وفي المقابل أتى بالنقيض وهو الضلال فيكون صدره ضيقا حرجا إذا اختنق، فلا يستطيع التنفس، وإذا تدبرنا الآية وجدناها ملئت بالبلاغة والبيان والبدیع مكثف غزير ففيها تشبيه ومجاز وكناية، ومقابلة، وتضاد، ويذهب الرازي إلى أن الإيمان موضعه القلب،

والإنسان هو المُخَيَّر في ذلك، والتوفيق من الله إذ يقول: "لفظها أيضا يدل على الدليل القاطع العقلي الذي في هذه المسألة.

ب الإيمان: وبيانه أن العبد قادر على الإيمان وقادر على الفكر، فهو يملك الإرادة، فقدرته بالنسبة إلى هذين الأمرين حاصلة على السوية، فيمتنع صدور الإيمان عنه بدلا من الكفر أو الكفر بدلا من الإيمان، إلا إذا حصل في القلب داعية إليه، وتلك الداعية لا معنى لها إلا علمه أو اعتقاده أو ظنه بكون ذلك الفعل مشتملا على مصلحة زائدة ومنفعة راجحة، فإنه إذا حصل هذا المعنى في القلب دعاه ذلك إلى فعل ذلك الشيء.

وإن حصل في القلب علم أو اعتقاد أو ظن بكون ذلك الفعل مشتملا على ضرر زائد ومفسدة راجحة دعاه ذلك إلى تركه، والدليل أن حصول هذه الدواعي لا بد وأن يكون من الله تعالى، وأن مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل¹، ومما ثبت بأن الصدر موطن الانشراح قوله تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ) [الشرح:1]، ومعناه " ألم نشرح لك يا محمد ، للهدى والإيمان بالله ومعرفة الحق (صدرك) فنلين لك قلبك ، ونجعله وعاء للحكمة"²، فالصدر مكان يحمل الإيمان الجازم والاعتقاد السليم الخالي من الشوائب الضلال، فيستقر ويكون له مقام دائم أما التثبیت فيكون من الله تعالى، و يأتي معنى السلامة في قوله تعالى: (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩) (الشعراء من 88 إلى 89)، "فمن استقام قلبه ولسانه استقام شأنه كله، فالقلب السليم هو الذي ليس فيه محبة شيء مما يكرهه الله، فدخل في ذلك: سلامته من الشرك الجلي، والخفي، ومن الأهواء والبدع، ومن الفسوق والمعاصي؛ كبائرها وصغائرها الظاهرة والباطنة: كالرياء والعجب والغل والغش والحقد والحسد وغير ذلك وهذا القلب السليم هو الذي لا ينفع يوم القيامة سواه.

¹الرازبي، مفاتيح الغيب، ج13، ص146

²الطبري، أحكام القرآن، ج24، ص490

قال تعالى: (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)، إذا سلم القلب لم يسكن فيه إلا الرب، في بعض الآثار، يقول الله: "وما وسعني سمائي ولا أرضي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن"¹، فالقلب مكان يُفرغ فيه أي شيء من طرف الإنسان، وقلب المؤمن وهو: "الإدراك الباطني والسليم الموصوف بقوة السلامة، والمراد بها هنا السلامة المعنوية المجازية، أي: الخلو من عقائد الشرك مما يرجع إلى معنى الزكاء النفسي، وضده المريض مرضاً مجازياً"²، فلا تكون الأعمال إلا ترجمان لما يحتويه القلب من الاعتقاد النافع والعكس كذلك.

فنرى الخطاب القرآني يركّز في مسألة الاعتقاد على كلّ ما هو باطن الإنسان، وفي القرآن وصف دقيق لإعراض الكافرين عن الإيمان، فلا يهتم القرآن بمظاهره، وحتى تصرفاتهم، وأشكالهم بل يولي اهتماماً كبيراً لما في قلوبهم قال تعالى: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾) [البقرة: 88]، وقالوا يعني اليهود قلوبنا غلف بسكون اللام جمع أغلف، أي عليها أغطية"³.

يجمع الرازي ما ذهب إليه الفلاسفة في تأويل قول اليهود في هذه الآية إذ يقول: "أما الغلف ففيه ثلاثة أوجه أحدها: أنه جمع أغلف والأغلف هو ما في غلاف أي قلوبنا مغشاة، بأغطية مانعة من وصول أثر دعوتك إليها، وثانيها: روى الأصم عن بعضهم أن قلوبهم غلف بالعلم ومملوءة بالحكمة فلا حاجة معها بهم إلى شرع محمد عليه السلام، وثالثها: غلف أي كالغلاف الخالي لا شيء فيه مما يدل على صحة قولك، أما المعتزلة فإنهم اختاروا الوجه الأول"⁴.

¹ ابن رجب الحنبلي، روائع التفسير، تح أبي معاذ طارق ابن عوض الله، دار العاصمة للنشر، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2001، ج2، ص52

² ابن عاشور، التحرير والتأويل، ج20، ص150

³ القرطبي، أحكام القرآن، ج2، ص20

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، ج2، ص163

ثم يستطرد فيقول: "المراد من قوله () : وقالوا قلوبنا غلف (أنهم ذكروا ذلك على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار يعني ليست قلوبنا في أغلاف ولا في أغطية، بل قوية وخواطرنا منيرة ثم إنا بهذه الخواطر والأفهام تأملنا في دلائلك يا محمد ، فلم نجد منها شيئاً قوياً، فلما ذكروا هذا التصلف الكاذب لا جرم لعنهم الله على كفرهم الحاصل بسبب هذا القول ، وثالثها ؛ لعل قلوبهم ما كانت في الأغطية بل كانوا عالمين بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما قال تعالى: ((الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ [البقرة:146] إلا أنهم أنكروا تلك المعرفة وادعوا أن قلوبهم غلف وغير واقفة على ذلك فكان كفرهم كفر العناد فلا جرم لعنهم الله على ذلك الكفر"¹.

ومنه فالعلم ما كان في القلب، ولا تكون الهداية ولا الرشد إلا من هذا النبع والوعاء الحمال للخير وللشر، وما يثبت ذلك قوله تعالى: ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ [الكهف:57]، وهنا حديث عن القرآن فلا يمكن أن يعلموا ما فيه لأن القلب الحمال للعلم النافع لا يستطيع أن يفقه ما تمليه الآيات من الذكر والحكمة قال سبحانه: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْرَاءَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ [محمد:24]. والفُقْلُ دلالة على الغلق، وبالتالي لا تُبصر العين كلام الله و لا يمكن أن يفهم العقل و لا تسمع الأذن، "حدثنا إسماعيل بن حفص الأيلي قال : ثنا الوليد بن مسلم، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان قال: ما من آدمي إلا وله أربع أعين: عيان في رأسه لدنياه، وما يصلحه من معيشتة، وعينان في قلبه لدينه ، وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طمس عليهما، فذلك قوله: (أم على قلوب

¹المصدر السابق، ج2، ص 16

أَقَالَهَا¹، ومنه نفهم قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾) [الحج:46].

وفي هذه الآية جامع لكل ما قلناه أي ذكر كل الفضاءات الدالة على نسق الهداية والرشد فلا يكون العلم النافع والفهم الصحيح والإدراك الباطني لحقيقة الوجود إلا في القلب فجعله الله وعاء الخير، قد نرى الرجل كفيفا ولكن يعلم من الله ما لا يعلمه البصير الحاذق، فالحصيف ما أدرك حقيقة الله واطمأن قلبه لذلك، ولو تأملنا الآية لوجدناها تجمع بين الدليل على وجود الله هي الأرض، مهمة الإنسان ككائن وجودي هي السير في الأرض والثالثة التقه والتدبر في ملكوت الله ولا يكون إلا في القلب، "وقيل (ولكن تعمي القلوب التي في الصدور)، والقلوب لا تكون إلا في الصدور، توكيدا للكلام، كما قيل: (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) " ².

ومما يثبت أن الهداية والرشد محلّه الصدر الحامل للقلب الذي يدير شأن الإنسان قوله تعالى: (قُلْ إِنْ تُخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾) [آل عمران:29]، ونرى دوما في الخطاب القرآني ربط علم الله بالفضاء الخارجي السموات والأرض، وبالفضاء الداخلي الإنسان الذي يحمل وعاء فكره وعلمه الصدر وفي هذا يتساءل الرازي ويجيب عن ذلك فيقول: "محل البواعث والضمائر هو القلب، فلم قال: إن تخفوا ما في صدوركم ولم يقل: إن تخفوا ما في قلوبكم؟، الجواب: لأن القلب في الصدر، فجاز إقامة الصدر مقام القلب كما قال: (الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾) [الناس:5]، وقال: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ

¹ الطبري، جامع البيان، ج22، ص180

² المصدر السابق، ج18، ص656

عَازَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٦٦﴾]
الحج: 46].

إن الله خلق الكون باتقان، والإنسان كذلك، وجعل له وعاء يصلحه أو يفسده وهو القلب، والصدر أوسع من القلب لأن فيه معاني الهداية أو الضلال، فالقلب موطن الإدراك والعقل، والصدر موطن التأثير، فيمكن للمرء أن يتأثر بآية قرآنية فينشرح صدره لها، ثم يأتي القلب مصدقاً للقول إما يُزَكِّي ذلك فيؤمن أو يصرفه عن ذلك.

ولنا في قصص السابقين لعبرة، فمثلاً ما أنزله الله في الوليد ابن المغيرة، "حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له ما لا ممدوداً إلى قوله: (إن هذا إلا سحر يؤثر) قال: هذا الوليد بن المغيرة قال: سأبتار لكم هذا الرجل الليلة، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فوجده قائماً يصلي ويقتري، وأتاهم فقالوا: مَهْ، قال: سمعت قولاً حلوا أخضر مثمراً يأخذ بالقلوب، فقالوا: هو شعر، فقال: لا والله ما هو بالشعر، ليس أحد أعلم بالشعر مني، أليس قد عرضت علي الشعراء شعرهم نابغة وفلان وفلان؟ قالوا: فهو كاهن، فقال: لا والله ما هو بكاهن، قد عرضت علي الكهانة، قالوا: فهذا سحر الأولين اكتتبه، قال: لا أدري إن كان شيئاً فعسى هو إذا سحر يؤثر، فقراً: (فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر)، قال: قتل كيف قدر حين قال: ليس بشعر، ثم قتل كيف قدر حين قال: ليس بكهانة¹، وهكذا تبين أن الإيمان ما وقر في القلب وترجمته الجوارح.

ثانياً/ نسق التفكير والشعور:

اختلف الفلاسفة والكلاميون حول مسألة الوعي، والتفكير، والتأبين الحاصل في مستويات التفكير، لدى البشر، لكن ما هو مسلّم به أن العقل لا يجد مساحة للتفكير، ما لم يُعمل الإنسان هذا العقل، والجانب الخفي في التفكير هي أدواته ودوافعه، ومؤثراته، والحوافز

¹ الطبري، جامع البيان، ج24، ص25

الداعية للتفكير، ومنهج القرآن الكريم، منهج تحليلي قائم على وعي الإنسان، وإدراكه للعوامل، بمعنى يدعوا الإنسان ليتدبر، ويستغل مسيرته في الأرض في أعمال العقل دون توقّف لما فيه من تلبية لحاجات الإنسان.

أ/ التفكير: فقد كتب الله على الدنيا العمل، ولا يستقيم عمل الإنسان مالم يستعمله الاستخدام الصحيح، إنّ مسألة العقل مسألة معقّدة جدّا فلا يصل الإنسان إلى إبداع معيّن إلا باجتماع كثير من العوامل الفطرية (الموهبة)، والتجربة، والتحليل، والاستنباط، كلّ هذه العوامل المتداخلة تشكّل نواة صلبة يصعب تفسيرها، فما هي هذه النواة؟، من أين يأتينا التفكير؟، هل في القرآن الكريم ما يثبت ذلك؟

يشار إلى العقل في الخطاب القرآن بلفظين الأول اللبّ في معرض حديثه عن قصص الأنبياء: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٩﴾) [يوسف:111]، "لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين عبرة لأولي (الألباب) وهي العقول"¹ وفي موضع آخر لما أراد الله أن يُشرع القصاص إذ يقول: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾) [البقرة:179].

وجاء بأسلوب النداء وفيه دعوة لأولي العقول "على التأمل في حكمة القصاص"، ولذلك جيء في التعريف بطريق الإضافة الدالة على أنهم من أهل العقول الكاملة؛ لأن حكمة القصاص لا يدركها إلا أهل النظر الصحيح؛ إذ هو في بادئ الرأي كأنه عقوبة بمثل الجناية؛ لأن في القصاص رزية ثانية لكنه عند التأمل هو حياة لا رزية²، ومن هنا يشيد الله بأهل الحكمة فيقول: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا

¹ ابن كثير تفسير القرآن العظيم، ج4، ص427

² ابن عاشور، التحرير، والتنوير، ج2، ص145

يَذَكِّرُ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ [البقرة: 269]، "قال أبو جعفر: يعني بذلك - جل ثناؤه - :
يؤتي الله الإصابة في القول والفعل من يشاء من عباده ، ومن يؤت الإصابة في ذلك منهم
، فقد أوتي خيرا كثيرا"¹، وتعرّف الحكمة على أنها الجانب المشرق من الإنسان وهو قول
أو فعل يأتي من ذوي العقول الراجحة صادرة عن تجربة أو تأمل عميق في الحياة، وبالتالي
لا يمكن أن تتال جميع الناس بل بعضهم وفي الآية (مَنْ) الوصلية دلالة على التبويض.

ولكن ما الذي يفكر هل القلب أم العقل أم كليهما معا، يكون العقل في الخطاب القرآني
وعاء وفضاء تجتمع فيه كلّ العوامل الحسية و الإدراكية، ونرى هذا في أكثر من آية من
آيات الله نتحدث عن هذا الفضاء الروحي ، الذي يغمر القلب، قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٢٧﴾) [ق: 37]، والذكرى يُقصد بها العبرة،
لمن له عقل مفكر ولكن موطنه القلب، "حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن
زيد في قوله (لمن كان له قلب قال: قلب يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله
بها من عصاه من الأمم، والقلب في هذا الموضع: العقل، وهو من قولهم: ما لفلان قلب،
وما قلبه معه: أي ما عقله معه، وأين ذهب قلبك؟ يعني أين ذهب عقلك"².

وجعل الله العقل أداة للنّجاة في الدّنيا والآخرة، و يظهر القرآن هذا الارتباط الوثيق بين
الحواس والإدراك، لأنهما يُتَمَّان بعضهما البعض، فالتّجربة البشرية بيّنت أن الحواس هي
أول الإدراك ثمّ تتدخّل العناصر الأخرى كالذاكرة والذكاء في عملية الإدراك الباطنية ، ثمّ
نصل فيما بعد إلى الوعي وهي التجربة القلبية والشّاهد في هذا إذا رأيت أفعى تلقي سمّا
على فريستها، وبعد لحظات تموت تلك الفريسة، فتدرك ببصرك أنّ هذا الحيوان قاتل، حتى
إذا لاقيته مرّة أخرى فررت منه فهذا إدراك باطني لأنك تذكرت واستخدمت ذكاءك في الفرار.

¹الطبري، جامع البيان، ج5، ص 576

²الطبري، جامع البيان، ج22، ص373

أما الوعي هو التساؤل لماذا يمكن للأفعى أن تملك السم، وما الدافع لقتل فريستها وهل هذا يعود بالنفع على الطبيعة؟ هل القتل مضرّة أم منفعة؟ يقول تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾) [الأعراف: 179]، وفي هذه الآية تشبيه بالأنعام، والقصد من الآية أن الأنعام تُبصر، وتسمع، لكن سماعها وإدراكها للعالم يبقى في درجة المحسوس، أما الإنسان يسبقه الإدراك والوعي الذي بيّته الله في قلب المؤمن وأودع فيه هذه الخصلة.

فمحلّ العقل القلب الذي يأمر الحواس بضرورة التفكير، انطلاقاً من الملاحظات التي تدركها الأعين، والأصوات التي يسمعها، والله سبحانه وتعالى يعدّ نعمه على الإنسان فيقول: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾) [النحل: 78]، "ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشي، وفيه ثلاثة أقاويل أحدها: لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم الثاني: لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء، الثالث: لا تعلمون شيئاً من منافعكم"¹، فذكر السمع والأبصار ثم ذكر الفؤاد لأنه موطن التفكير، الجامع لهما، فموطن التفكير والتدبر هو القلب وفي موضع آخر: (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾) [الملك: 23].

والناظر لسورة الملك يجد بأن الله سبحانه وتعالى ينطلق من الكلّ إلى الجزء، فبدأ باسمه تعالى والذات العالية، ثم ذكر الغاية من الخلق، ثم ذكر دلالات الفضاءات الكونية و دلالات الأرض، فانتقل إلى الإنسان ليعده كائن وجودي له فضاءه الخاص، و الإنشاء أشد وقعا من خلق فيزيد على الإنشاء صفة الإتيان و البَيَاة، فقد بنى الله الإنسان كما بنى السماء ودحى الأرض والانتقال هنا إلى الاستدلال بفروع المخلوقات بعد الاستدلال بأصولها، ومن

¹القرطبي، أحكام القرآن، ج10، ص137

الاستدلال بفروع أعراض الإنسان بعد أصلها ، فمن الاستدلال بخلق السماوات والأرض والموت والحياة ، إلى الاستدلال بخلق الإنسان ومداركه،¹، ومنه فإن مدار الأمر مايلي

✓ إن الذي يجمع العقل هو مجموع الحواس وركز الخطاب القرآني على السمع والبصر وتراهم يكملان بعضهما البعض ليشكل فيما بعد الملاحظة ثم ذكر الفؤاد، فمسألة الوعي والإدراك والتفكير تتجلى في هذا المساحة التي أنشأها الله تعالى كما أنشاء السماء والأرض وما فيهما من الكواكب والجبال وغيره، كل ما هو في الوجود فهو يحمل فضاء، وهو دليل على بديع صنعه تعالى، وعظمة خلقه.

✓ وما ضرب الله لنا مثلا بالأنعام إلا لينبئنا بضرورة التركيز على العقل الذي هو مصدر كل منفعة بها يدرك الإنسان مضرته ومنفعته، وبها يعرف ربه ويتجلى هذا في قول الله تعالى حينما أراد أن يضع الأمانة أي التكليف على السموات والأرض فأبين ذلك، وكان الإنسان الآخذ، فظلم نفسه قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ [الأحزاب: 72-72]).

ولم يكن الرفض من باب المعصية لله من طرف السماء والأرض لأنه ليس فرضا على وجه من وجوه الإلزام كما في قصة إبليس لما أمره الله أن يسجد لآدم ذاك أمر إلهي وجب تنفيذه أما في هذه الحالة هي تشريف للسماء والأرض، ولكن الإنسان لما كان يملك عقلا اتخذ ذلك سبيلا له فقبل الفرائض والتكليف فكان منه الجهل والظلم، وهذا وجه من وجوه النقص الموجود في العقل.

"فإن المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الإخراج من الجنة ثانيها: المراد الإنسان يظلم بالعصيان ويجهل ما عليه من العقاب ثالثها: إنه كان ظلوما

¹ابن عاشور، التحرير، والتنوير، ج30، ص49

جهولا، أي كان من شأنه الظلم والجهل¹، فإله خلق للإنسان مساحة للتفكير، من أجل اتخاذ القرار، ومساحة للتدبير من أجل معرفة الله سبحانه وتعالى، ويجمع في هذه المساحة الحواس والقلب والذي أودع الله فيه الذكاء والذاكرة والفتنة، ولكن للعقول مستويات، ومهما بلغ عقل الإنسان في فهم مدارك الحياة وكائنات الوجود، ومهما سمى بعقله إلى مراحل التجريد، فإنه يبقى ناقصا وهذا ما نصّت عليه الآية السالفة الذكر.

عُصارة الحكمة لا تكون إلا بالوسائل المجدية التي وظفها الإنسان ليصبح واعيا عارفا بما يحيط حوله مدركا لمعالم الأشياء وما وراء الخلق، متدبرا آخذا في صرح عميق من التفكير، والحكمة هي معرفة الله، في أوامر ونواهيه، فيحارب العقل الباطني الواعي الذي اتسم بالوضوح المجرد كل آثار الحيوانية الزائفة، فيسمو بعقله المدرك الذي في جوف ابن آدم أن العالم الذي من حوله مسخر له ليسعى في طاعة الله وما الشهوات والملذات إلا زائلة، والجانب السلبي في الإنسان من حب التملك والسيطرة والجزع والخوف يحاربه بلغة الإدراك والفهم الجلي من خلال استنباط أحكام الله في الوجود، واختلاف الحاصل في العالم وعد الثبات الذي يتصف به الكون.

ب/ **الشعور:** لعل الخطاب القرآني يفرق بين ما هو معنوي، وما هو عقلي بثنائيات الحواس، فهو كلما استعمل البصر والسمع كان منتهاه ادراك ووعي وتعقل، وكلما كان استعمال الذوق واللمس كان مرده الشعور والاحساس، فإذا كان السمع والبصر قد سبق لنا ذكره في نسق التدبر والحكمة، فإن الذوق مثلا يتبين في قوله تعالى عن الكافر الذي يكون مصيره النار إذ يقول: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾) [الدخان:49].

فالذي كان عزيزا بين قومه مهاب الجانب يرى نفسه من عليّة القوم صار ذليلا والقصد هو الضد أي ذليلا مهانا، وركّز النص القرآني على لفظ (ذُق)، وليس ترى أو تسمع لأن الشعور

¹ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج24، ص 235

ينطلق من الذوق أو الشم ولمس الأشياء، ولكن أين موطن الإحساس والشعور هل هو القلب أم ما يدور في فلكه هل الإحساس والشعور له فضاء كما للعقل فضاء وللهداية فضاء، والقرآن يثير المشاعر وينمّيها في نفس المؤمن حتى تطمئن حاله.

ولهذا ذكر النص القرآني أنواعا كثيرة للقلوب ولها أوصاف نعتها بها لكي لا يزيغ المسلم، إذا كان القلب نواة العقل ومحرك التدبير، فإنه أيضا مثير للهوى، إذا استخدمه الإنسان قلبه في غير موطنه الذي خلق من أجله، والقلب المريض هو المثقل بكل نوازغ الخروج عن طاعة الله كالحد والبغض والحق وكراهية خلق الله والكبر وغيرها قال تعالى: (يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾) [البقرة: 9-10]، فدواعي مرضهم هي خداعهم ومكرهم.

والمرض عرض يصيب الإنسان بسبب فيروس أو بكتيريا ضارة أو نحو ذلك، فلم يكن الله ليجعلهم مرضى منذ البداية فكان سبب ذلك قلوبهم (عقولهم) التي اتخذت الخداع سبيلا في الوصول إلى مبتغاهم، ولكن الله عاقبهم بزيادة المرض، ونعلم جميعا أنه كلما زاد المرض هلك الإنسان فكان هلاكهم بسبب مرض قلوبهم، "المرض صفة توجب وقوع الضرر في الأفعال الصادرة عن موضع تلك الصفة، ولما كان الأثر الخاص بالقلب إنما هو معرفة الله تعالى وطاعته وعبوديته، فإذا وقع في القلب من الصفات ما صار مانعا من هذه الآثار كانت تلك الصفات أمراضا للقلب"¹.

ومما يصلح القلب ويجعله راضيا مرضيا هي الخوف وخشية الله تعالى تزيده اطمئنانا وثقة بالله تعالى إذ قال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾) [الأنفال: 2]، جاء الأسلوب حصرا للمؤمنين،

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، ج2، ص 64

فهم الأولى بذكر الله تعالى، فلا يكون الخوف والرَّهبة إلى أهل الإيمان والتصديق، وجعل الوجل من الله لا يكون إلا في القلب فهو محلّ كل فضيلة ومأوى كلّ نقيصة عيادًا بالله، الخوف على قسمين :خوف العقاب، وخوف العظمة والجلال، أما خوف العقاب فهو للعصاة، وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين، سواء كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا، وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغني يهابه ويخافه ، وليست تلك الهيبة من العقاب، بل مجرد علمه بكونه غنيا عنه، وكونه محتاجا إليه يوجب تلك المهابة وذلك الخوف"¹.

وفي نفس السياق يعبر القرآن الكريم عن معاني الخوف وهذه المرة في جانب آخر دلالة على الخوف الطبيعي عند الإنسان، وهو من الصفات التي جُبل عليها فطرةً من الله إذ يقول: (إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ [الأحزاب:10])، "جمع حنجرة بفتح الحاء المهملة وسكون النون وفتح الجيم: منتهى الحلقوم وهي رأس الغلصمة، وبلوغ القلوب الحناجر تمثيل لشدة اضطراب القلوب من الفزع والهلع حتى كأنها لاضطرابها تتجاوز مقارها وترتفع طالبة الخروج من الصدور فإذا بلغت الحناجر لم تستطع تجاوزها من الضيق؛ فشبهت هيئة قلب الهلوع المرعوب بهيئة قلب تجاوز موضعه وذهب متصاعدا طالبا الخروج، فالمشبه القلب نفسه باعتبار اختلاف الهيئتين، وليس الكلام على الحقيقة فإن القلوب لا تتجاوز مكانها ، وقريب منه قولهم : تنفس الصعداء ، وبلغت الروح التراقي"².

إذا الخوف على وجهين ؛ وجه طوعيّ إذا كان مرتبطا بذكر الله ولا يكون إلا للمؤمن، وآخر طبيعي وهو من الفزع من وراء مؤثر خارجيّ، ومحلّ ذلك وموطنه القلب، الخوف

¹فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج15، ص96

²ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج22، ص281

ضدّه الطمأنينة، والاطمئنان شعور مشبع بكل معاني اليقين والقناعة والتسليم والاستسلام لأمر الله، قد جعله مقترباً بذكر الله و قراءة القرآن، قال تعالى: (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾) [الرعد:28]، " أي أنها تكون في فزع هالع إذا لم تذكر الله، فإذا ذكرت الله تعالى هان كل شيء، لأنها حينئذ تلجأ إلى حصن من القرار، لا تصل إليه عوامل القلق والاضطراب، وقوله تعالى : بذكر الله بتقديم الجار والمجرور على الفعل يفيد الاختصاص¹.

فالله جمع خشيته واطمئنانه في ذكر كلامه، وموضع ذلك القلب فهي فضاء يتسع لكل الأحاسيس والمشاعر، الذي يبدو في ظاهرها التناقض (الاطمئنان والخوف)، ولكن في باطنها تجتمع في قال التقوى والورع، فالخوف الأول كان من الخشية والاطمئنان كان من الخشية أيضاً، وتجتمع معاني العظمة والخشية عن ممارسة العبد، لأنّ اتیان الطاعة لا تكون إلا من الخشية، وعند ممارستها يصبح الإنسان مطمئناً لذلك، ويجتمع هذا الوصف في قوله تعالى: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾) [الحج:32]، فبدأ باسم الإشارة ذلك دلالة على التعظيم، كقولنا: (ذلك من صنع الله)، وهو أسلوب خبري مجازي يحمل معنى التعظيم والتقدير والإجلال.

وهو " فيه ثلاثة أوجه، قيل: يكون في موضع رفع بالابتداء، أي ذلك أمر الله، ويجوز أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء محذوف، ويجوز أن يكون في موضع نصب، أي اتبعوا ذلك²، ثم أكد هذا بالفعل (يُعِظْ)، وأداة التوكيد (إِنَّ) ليختتم الآية بالتقوى التي موطنها القلب، والتقوى هي الخوف من الجليل والرضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل، ويخرج من بين الخوف والاطمئنان إحساس متكامل هو الين ويعبر القرآن الكريم عن هذا في قوله: (اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

¹ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج8، ص3946

² القرطبي، أحكام القرآن، ج12، ص 53

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ [الزمر:23].

ويربط القرآن كل هذا بذكر كلامه واسمه وقراءة كتابه، ويأتي الله بالضد من ذلك ويصفهم بالقسوة ، فكلما ورد لفظ القسوة إلا وكان متصلاً بالقلب الخبيث، ولو نلاحظ الآية التي قبلها إذ يقول سبحانه: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾) [الزمر:22]، فمعنى ذلك أن الهداية هي مفتاح نقاء القلب فيزداد نقاء وصفاء ويقينا فيؤمن ويثبت على الحق، وهو أيضا مفتاح كل شر للنفوس الخبيثة التي تؤمن بالرغبات والملاّت فتصبح رهينة اللذة حتى يقسى قلبها، حتى إذا ذُكر القرآن أمامها تجدها انصرفت عنه وازدادت غلظة، وفي هذا يشرح الرازي: "إنه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية، فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلهيات عظيمة الرغبة في الاتصال بالروحانيات، وبعضها ندلة كدرة خسيصة مائلة إلى الجسمانيات. وفي هذا التفاوت أمر حاصل في جواهر النفوس البشرية، والاستقراء يدل على أن الأمر كذلك، إذا عرفت هذا فنقول : المراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود في فطرة النفس، وإذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلا كفى خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بأدنى سبب، مثل الكبريت الذي يشتعل بأدنى نار، أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايات القدسية والأحوال الروحانية، بل كانت مستغرقة في طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الأحوال المناسبة للإلهيات، فكانت قاسية كدرة ظلمانية، وكلما كان إيراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر، كانت قسوتها وظلمتها أقل"¹.

فالهداية تزداد وتضعف حسب قوة البصيرة الموجودة في القلب، والله خلق النفوس فيها فضاء هدايته، وتركيبية نعمته، وخلق الماديات وخلق الروحانيات، فمن غلبت مادته روحه

¹فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج26، ص232

انصرف إلى الملات، ومن كانت الآخرة همّة، والإيمان منبره ومحرا به، استساغ كلام الله ونزلت عليه الرحمة، وازداد يقينا وإعراضا عن الشهوات. والخالصة مما سبق ذكره:

✓ أن الله تعالى خلق الإنسان ككائن حيّ له وجود على الأرض، يحمل فضاء جسماني مدام فيه رغائب الوجود كحبّ التملّك، والانقياد إلى الخير وإلى الشرّ، وظهور النعمة عليه كبناء الدور والقصور، فهو أساس الحضارة، ومن هنا فهو فضاء متحرّك وإن كان ظاهره السكون، وأودع الله فيه وعاء داخلي يفكر به ويميل ويقرر، ويشتهي، ويفضل، ويفهم، ويتذكّر، القلب أودع الله فيه الطباع والشهوات والمشاعر، ووضع فيه الفؤاد وهو قوّة إدراكية تميز بينها وتبصره إلى تهذيبها، وثبت مما لا يدعو للشكّ أن الله خلق الأنعام والبهائم بقلب، ولكن لم يقذف فيها نور البصيرة والعقل، وهذا لا يكون إلّا للفؤاد.

✓ البصر والسمع أدوات للقلب يفعل فيهما ما يشاء قد ترى أشياء تغضب الله تعالى فالبصر يرى لكن القلب يوقع ما رأى في النفس، فإن كان على خير انصرف، وإن كان على فسق تعجرف، وكذلك الحال بالنسبة لجميع الجوارح. فهي ترجمان ما وقع في القلب من الاثر

✓ لا يذكر الله الصدر إلّا بميزات هي أنه وعاء يحوي القلب والفؤاد معا، وأنه الفضاء الذي تتحرك فيه جميع الإرادات لدى الإنسان، ووصفه الله بالانشراح والضيق، وبالكفر وبالإيمان، فهو مصدر القرار، وكأنّه الإدارة الموقّعة على القرار بعد صدوره.

الشعور والإحساس ردود أفعال، المحرّك فيها الأساسي العقل الّتي يوجد في القلب، ودواؤه ذكر الله والقرآن الكريم، قد يسمع السّامع آيات بيّنات من القرآن، فيخشى الله ثمّ تطمئنّ نفسه وتطرب لذلك الكلام وتهذأ فهي مراحل شعورية لكلّ قلب غلبت فيه الجوانب الروحية على الجوانب المادية، أما إذا انعكس الأمر، ازداد فجورا وفسقا لأنّ ذلك الكلام خالف ما

كان يصبو إليه من إشباع للنفس وانصياع للأهواء، ولذا ينهنا الله تعالى من اتباع الهوى، لأنه يُفرز من هذا الصراع فيتخذ الصّدر القرار فيغلق بذلك باب التوبة، وهذا ما نجده في كلام الله (بل ران على قلوبهم، في قلوبهم مرض، الأكنة).

ثالثاً: مساحة الوجدان البشري:

لا يعيش الإنسان في فراغ لا أثر له، بل يعيش ضمن إطار عامّ تُحدّد رغباته ونزواته، وميولاته، فهو لا يحب لأجل الحب، ولا يكره لأجله أيضاً، فكل عاطفة أو حسّ أو سلوك تستدعيه هذه الأدوات كما شرحها المفسّرون، وهناك نظرة أخرى تقييمية لتأويل آيات الله وهي المعارف التي توصّل إليها الإنسان تعطي قيمة مضافة لتأويل ما أنزل الله عن هذه النفس، وهي مساحة بين العقل والحياة أو كينونة الإنسان وما وهبه الله من أجهزة وأعضاء، فالقلب والصّدر والفؤاد يمكن أن نطلق عليه لفظ الوجدان، وهي من الوجد، ولا أثر لمحله إلا هذه المساحة التي خلقها لها.

أولاً: النفس آمرة ومقاومة: كانت النفس البشريّة ولا تزال محلّ بحث وتقصي من الفلاسفة وعلماء الطبّ، وحتى رجال الدين وأهل التّصوّف قديماً وحديثاً، هذه النفس التي يمكن تهذيبها لتصل إلى أعلى مراتب التّزكية والخنوع والخضوع لرحمة الله تعالى، كما يمكن ان تنزل بالمرء إلى أسفل السّافلين، فيكون في مقام الحيوانية.

أمّا دراستنا فهي تركّز على المساحة التي جعلها الله لهذه النفس ومكامن أدائها كمكان وجماليّاته نستنبطها من المباحث المعرفية التي توصّل إليها الإنسان، فجاءت في النصّ القرآني، بمعاني مختلفة نكرة ومعرفة، وجاءت دلالة النفس متراوحة في معاني يحدّها السياق، فكانت في مائتين وخمس وتسعين موضعاً، منها مفهوم الوفاة وجاء في قول العزيز: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ

الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ [الزمر:42]، وذكر الوفاة وهي نهاية العمل والحركة.

وجاءت في سياق تنفس الإنسان، والتنفس حركة وظيفية أدائية للكائن الحي، والله يمسك هذا العمل عن أدائه، فتقبض الروح كعامل متلازم لذلك، أما الوفاة فهي موعد الانقضاء، وسياق البية يعبر عن ظاهرة التوم التي هي في الأصل ميزة الكائنات الحية، فالآية غير مقترنة بالإنسان، كذلك الحال بالنسبة للآية التي يقول فيها الكبير سبحانه: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾) [العنكبوت:57]، فالنفس تدل على كل حي تميز بصفة النفس وهي ظاهرة بيولوجية وظيفية للكائنات الحية، وقد يربط هذا المدلول القرآني عند الحديث عن القتل، فلا نكاد نرى كلمة القتل إلا مرتبط ومتلازم بلفظ النفس، ولم يرد قتل الروح، وهذا يؤكد أن الروح هي بأمر الله تعالى، ولو كانت لغيره لجاز القول (قتل الروح)، والمراد بقتل النفس، وهي إمساك هذا الأداء البيولوجي، ومن خلاله تخرج الروح التي كانت بأمر الله ساكنة في جسد الإنسان، حيث يقول الولي: (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾) [الإسراء:33]، كما ورد نفس المعنى في سورة الفرقان وفي سورة الأنعام.

وتتضح هذه الدلالة في حديثه عن القصاص حيث يقول العدل المنتقم: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾) [المائدة:45]، ومن هنا فالقتال هو قتل النفس وهو الأقرب إلى الواقع المنطقي والعقلاني السليم.

أما المفهوم المكاني للنفس ومدلوله ينحصر في الفعل الأخلاقي للإنسان وعلاقة النفس بالإيمان وبالتوحيد والطاعة والتوحيد، وعلاقته بالغريزة والشهوات والملذات، وهو فضاء

صراع بين الأنا العالقة، والأنا السفلى الهابطة، وفي هذا بحث كثير من المتصوّفة في هذا الباب، وقيل عن التّصوّف هو حبس النّفس عن اللذة وترك ما في يدي الناس من نعم، فهو تركية للنفس من الانغماس في الحرام، والبعد عن الحسد والضّغينة، والحقّد، وعدم اتباع التّفاوت الموجود في أرزاق النّاس.

ويمكن أن نقسّم النّفس البشريّة إلى ثلاث طبقات متفاوتة في الميل وهي النّفس الأمّارة بالسّوء، والنّفس اللّوامة، والنّفس المطمئنّة، وكلّها تحت تأثير عاملين عامل الفعل وردّة الفعل، أمّا الفعل فنطلق عليه الأمر، وردّة الفعل المقاومة، فأَي شخص تتبعه نفسه كظله وهي ضدّ الإنسان دومًا مهما فعل وللشرح نذكر على سبيل الوصف والتّحليل مايلي، فعند مخاطبة شخص مهما كان مستواه الثقافي، أو التزامه الديني فهو في الحقيقة خطاب وجهين، شخصيّة الإنسان ونفسه، فإذا عرفت ما في نفسه من خلال ردود الفعل التي يصنعها أو أثر ذلك في ملامح وجهه أو عينه، فأنت أقرب إلى فهم ما تريده منه مثلاً، وفي التنظيم التّربوي وعلم النّفس فيه توجيه عام تحت تأثير الحكمة القائلة، المعلّم النّاجح هو الذي يصل إلى جوف الطّلاب ونفوسهم، لا عقولهم، وكسب محبّتهم، لا اهتمامهم، والتّرهيب جانب نفسيّ والتّرهيب جانب تأثيري أو عكسي، فمن السّهل أن تعاقب، لكن من الصّعب أن تُحبّ.

الأنبياء لم يبرؤوا أنفسهم، وأقرّوا بهذا الأمر عند موقف سهولة المعصية وقربها يقول المُنعم على لسان يوسف عليه السّلام: ﴿وَمَا أَبرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف:53]، ففي أعلى مراتب الإيمان، نجد هذا النّبيّ العفيف، يستعيز من النّفس التي تحثّه على أداء الشرّ إذا طوّعها لاتباع الحقّ، يعيش الإنسان في صراع مع ذاته حين يريد تأديبها فقال المولى عن الصّفة من عباده: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ) [النازعات:40].

يستدعي خوف الله عز وجل وهو شعور عاطفي بتأديب النفس وتهذيبها، أما الهوى يمكن أن يُلخّص في المُلذّات والشّهوات، وهذا الفهم المستنبط من القرآن نرى اثره عند العالم النفسي النمساوي سيغموند فرويد، الذي أقرّ بوجود ثلاث فجوات وأماكن للنفس، وهذه المساحات تتحكّم فيها بعض الأدوات، ومن خلالها يعيش الإنسان في صراع ويرى فرويد أنّ "النفس" البشرية تنقسم إلى أقسام ثلاثة؛ الأنا والهوى والأنا العليا، أما الهوى هو الفضاء المعبر عن الغرائز المكبوتة التي تمنعها الأنا من الظهور، ويعمل الهوى وفق مبدأ اللذة وتجنب الألم ولا يراعي المنطق والأخلاق والواقع، أما الأنا العليا فهي مساحة نزع إليه الشخصية التي تلتزم بالخير والأخلاق المكتسبة من الأسرة والمجتمع، والأنا تمثل المكان الأكثر اعتدالاً ما بين الهوى والأنا العليا وتسعى للتكيّف والتوافق، أي أنها حالة وسطية بين الخير والشر، بين الأخلاق وانعدامها، بين الملائكية والحيوانية، وهكذا.

وهذا التحليل سبق إليه الغزالي ولكن نظرة المتصوّف مستنبطة من العلاقة التي تجمع بين التلميذ والمعلّم أو الشيخ عاملاً مهماً في سيرورة عملية التعلّم والتهذيب، إذ يبدأ التلميذ بالبحث عن شيخ يرتاده بعد أن يشعر بنقصه الخاص وتتولّد لديه الرغبة بالوصول إلى الكمال، وعندما يجده، يسلم التلميذ نفسه لإرادة شيخه ليمرّ من خلاله عبر مراحل الوصول إلى "الإنسان الكامل"، وتُعرف هذه العلاقة باسم "الإرادة" ويهدف المريد من خلالها تزكية نفسه من أجل بلوغ أهداف هامة من خلال سيره وسلوكه الذي يتمّ توجيهه من قبل الشيخ والمعلّم.

والشيخ الصوّفي يشبه إلى حد كبير الطبيب النفسي إن صح المصطلح، حيث يعمل كلاهما على مراقبة وتحليل الأفكار والرغبات اللاوعية لكل من التلميذ والمريض من أجل تسهيل عملية التحوّل النفسانيّ أما في التحليل النفسي؛ فتُعتبر العلاقة بين المريض والمحلّل النفسيّ أمراً عنصراً حاسماً في العملية العلاجية التي أطلق عليها فرويد اسم "التحويل"، وهي ظاهرة نفسية يقوم فيها اللاوعي بإعادة توجيه المشاعر من شخص إلى آخر، أي من المريض إلى

المحلّ النفسي خلال جلسات العلاج، حيث يصبح الأول مطيعاً للثاني وواثقاً فيه، إذ يُنظر إلى المحلل على أنه شخص يمكن الاعتماد عليه وعادةً ما تحدث هذه العلاقة بشكل عفوي في مرحلة ما من مسار العلاج ولا غنى عنها لأي تقدّم علاجي حقيقي وناجح.

وعند أبي حامد الغزالي اعتقاد بأنّ النفس البشريّة اختصار للعالم وتصوير له فالعظم من الجبال، واللّحم من التّراب، والنّفس مثل الغيث، وفي هذا يردّ على الفلاسفة في عجزهم عن فهم النّفس بالقول: "النفس الإنساني جوهرٌ روحاني قائمٌ بنفسه لا يتحيّز، وليس بجسم ولا منطبع في الجسم، ولا هو متصلٌ بالبدن ولا هو منفصلٌ عنه"¹، فقد رسم له كيان مثله مثل ما في العالم من ذلك، وفي تقسيمه يقول: مصطلح النفس يُطلقُ بمعنيين؛ أحدهما: أن يطلق ويراد به المعنى الجامع للصفات المذمومة، وهي القوى الحيوانية المضادة للقوى العقلية، والثاني: أن يُطلق ويراد به حقيقةً الأدمي وذاته؛ فإن نفس كل شيءٍ حقيقته، وهو الجوهر الذي هو محلّ المعقولات، وهو من عالم الملكوت²، وهذا ينطبق على تقسيم القرآن للنفس، فهي محلّ صراع وتجاذب، وهي ضدّ أيّ سلوك ينتهجه الإنسان.

✓ أمّا وجه الاطمئنان قال المولى عزّ وجلّ: (يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾) [الفجر: 27]، فيه هو نفس عالقة في مسالك التّركية، حافظة لمواقف العقل متفرّدة لا تشوبها زيف الدّجل والخرافة، مستمرة في الطّاعة، منكسرة الخاطر لعظيم الخالق، موجودة في كنه الإنسان وجوفه، لا تتحمل إلّا مشاق العبادات، تلزم الصّبر والمثابرة، وهي نفس تحارب الظلال، والظلم، وأبشع ما يقع فيه المريء هو ظلم النفس ولذلك نرى الخزي عند الحديث عن ظلم النفس في كلام الله.

✓ النفس اللّوامة، هي نفس أقسم الله بها في كلامه، وجعل مقامها بمثل مقام الحساب لتشابه الموقفين، فهي تحاسب الإنسان على النّقصير، وتجعله يستسلم لأذى الضّمير،

¹ أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، تح سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، ص252

² أبو حامد الغزالي، معراج القدس في معرفة النفس، دار الآفاق، ط2، بيروت لبنان، 1975، ص15

تغتناله إن سرَّ أو تجبرَّ، تدعوه للتواضع والاعتدال، تلومه عن كلِّ عبادة مخافة جفاء القبول من المولى تعالى قال عزَّ من قائل: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ) [القيامة:2]،

✓ النفس الأمّرة بالسوء، نفسٌ خبيثة تُداني صاحبها خداعًا ومكرًا لا محبةً فهي تغرقه في الشهوات والملذات حبًّا في إشباعها لا لتخليص صاحبها، ولا ضابط لها فهي ترى نفسها فوق الجميع، لا أحد يوقفها، لن يستقيم حالها إلّا إذا استسلم المرء لها وخضع، لا منقذ لها بل ترى نفسها هي الحياة، وهي الوجود.

وبين هذا وذاك وذلك، يجد الإنسان نفسه متحكّمًا لا محكومًا به، فهو الذي أعطاه الله وحباه هذه الفسحة وهذا الفضاء من الحرية، أكسبه السيطرة، فإن أراد تخليصها وتهذيبها ونجاتها، اتّبع المثل العليا وعالم الرّوح النقيّة، صّافية، وسلك مسلك الأنبياء والصّالحين، وإن تبع ظلّها واستدرجته إلى مهالكها عاش رهين ملذّاته وشهواته، ومن هنا جاءت الآية في قول القاهر لعباده: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۖ) [الشمس:10]،

أمّا مسألة موت الأنفس، ففيها دلائل علميّة وهي خروج الرّوح، وتوقّف الأجهزة عن العمل بيولوجيًا، ومنها عمليّة التنفّس، أمّا في الفهم الميتافيزيقي الرّوحي، وهي فقدان سيطرة الإنسان عن التّصرّف في هذه المساحة التي خلقها الله للإنسان زمن بقاء الرّوح حبيسة الجسد، ولهذا لا توبة عند الموت، لأنّ الإنسان في تلك اللحظات قد توقّفت عنه الحرّية في الاختيار عن طواعية بل هو خوف من فقدان لا رغبة في اتخاذ القرار الصّائب.

ثانيًا الدّماغ مساحة إيجابية: لقد خطى علم فيزيولوجية الاعصاب والدّماغ خطوات عملاقة في تفسير ظاهرة الشّفاء المعنوي وحت البدني بالنسبة للإنسان، فكلّما زادت الشّحنة الإيمانيّة ارتاحت الأعصاب وتخلّصت من التوتّر والقلق، وتراجعت أمراض عديدة مثل الضغط الدّموي، والجلطات الدّماغية، وداء السّكري، بل هناك دراسات حديثة بيّنت عمل الدّماغ والقلب أثناء القلق من دون إيمان قلب رجل كافر.

ونفس التطبيق كان على الفرد المؤمن إيمانا قطعياً بوجود الخالق مستسلماً لأمره، لأن مطمئن لوجود القدر الذي يؤمن به، فكانت النتائج مبهرة فكلاً زاد إيمان الشخص تضاءلت نسبة ارتفاع ضغط الدم، واستقر الدماغ بل يستسلم لعمله بشكل مذهل، ونشاط الدم متوافق مع السيالة العصبية لهذا الفرد، وعملت تجارب لذلك بحقنة تخدير على شخص مؤمن بعد أداء الصلاة، فوجود مناطق الإشعاع العصبي في الدماغ منطفئة تماماً؛ أي في المراكز التي تنتبه بإشارات ضوئية ماعدا البصلة السيسائية المكلفة بالتركيز، الفص الصدغي في جهة اليسار من الجبهة وهي المسؤولة عن العواطف والمشاعر والأحاسيس.

بل وهناك منطقة في أعلى الدماغ وهي منطقة الفص الجداري العلوي قد انطفئت تماماً وهي مسؤولة عن الحركة والنشاط والشعور بأبعاد الجسد وعالم الماديات، وكأن هذا الشخص قد استسلم تماماً لإيمانه وغاص في أعماق الروح، بل هناك مائتان وست وخمسون دراسة اهتمت بعلاقة الإيمان والشفاء، ومائتين وتسع وعشرون عن علاقة الدماغ بالأمل، وخمس وعشرون دراسة لها عن علاقته بالتفائل وعمله أثناء الاستجابة الفعالة للإيجابيات، واثنان وأربعون دراسة لمعاني الحياة المختلفة وعلاقة ذلك بعمل الدماغ، وغير ذلك من الدراسات التي اعتنت بدور الدماغ في تقدير الذات.

وكل هذه الدراسات أجمعت على أن الدماغ يزداد شراسة وقوة عندما يكون متعلقاً بالإيمان والتوحيد، فالمساحة التي جعلها الله للدماغ لا تكون إيجابية إلا عندما تكون متعلقة بربها، فوعاؤه غير مقتصر فقط على التفكير بل تعداه إلى المقدرة على تجاوز العقبات وذلك بارتباط وثيق مع عالم الإيمان والروحانيات، فدواء الإنسان غير مقتصر على ما أنتجه من كيميائيات، بل القرآن الكريم، والخشوع للمولى عز وجل والركون للتأمل في ملكوته هي محفزات للشفاء، (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾) [الرعد:28]، وديننا الحنيف يحث على التفائل، وفي كلام الله تعالى وقصص أنبياء حث على التفائل، والابتعاد عن اليأس قال تعالى عن رسله: (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

قَدْ كَذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ [يوسف:110].

لم يرد الله أن يبقى الرّسل أسرى لليأس، بل من خلال مضمون الآية فائدتين، أنّ الله لا يضيع أجر المحسنين، وأنّ الله لا يحبّ اليائسين، ولهذا جعل الله في الدّماغ متّسع للتّفاؤل، بل يعمل عملاً جيّداً إذا كان قريب من الأمل والتّمسك به بعيداً عن الحزن وفقدان الثّقة، وأثبت في ما توصّل إليه العلم الحديث من دراسة على الدّماغ أنّ الأشخاص الأكثر انتحاراً هم الذين يرسلون إلى الدّماغ ابتداءً من سنّ مبكّرة إلى سنّ البلوغ رسائل سلبية أكثر من الرّسائل الإيجابية، بل الأشخاص الأكثر عرضة للانتحار هم أشخاص نقلوا إلى المنطقة الحافظة للذّكريات أكثر من سبعين في المائة من الرّسائل السّلبية من الطّفولة إلى سنّ الثامن عشرة، فالتّفاؤل عمل محفّز وطاقة إيجابية ليندفعوا إلى الحياة، والعكس فالأشخاص المتشائمون هم الأكثر عرضة للفقر والملل والكسل، لاستغلال أوقاتهم في التّفكير في السّلبات بدل توظيف ذلك الوقت في مفاتيح الفرج.

حتى وإن كان ذا موهبة وذكاء أكثر من الشّخص المتفائل، وفي دراسة تأثير عن تأثير التّفاؤل على الدّماغ بيّنت أنّ سبعة وتسعون ألف امرأة على مدار ثمان سنوات بين نساء متفائلين ومتشائمين، وجدوا أنّ النّساء المتفائلات أقلّ عرضة لأمراض القلب بنسبة تسع في المائة، واحتمالية وفاتهم بسبب الأمراض بأربعة عشرة في المائة، وهم أقلّ عرضة للتّدخين، والتّعليم، بل هم أكثر تديّناً، وأثبتت دراسة سيجيستروم على الطّلاب عام 1998، أن التّفاؤل يزيد من خلايا (TC ELLS)، أي زيادة قوّة المناعة، واستطاعت الباحثة البريطانيّة (تالي شاروت) أن تكتشف المنطقتين المسؤوليتين عن التّفاؤل وأطلق على تسميتهما (the rostral anterior cingulate cortex) و (the amygdala)،

واستخدم فريق البحث بقيادة إلزابيث فيليبس وتالي شاروت من جامعة نيويورك في دراستهم صوراً من الرنين المغناطيسي لمسح أدمغة المتطوعين بعد أن تم الطلب منهم التفكير

بأحداث مستقبلية إيجابية وأخرى سلبية، وأظهرت النتائج أنه عندما فكر أفراد العينة بأحداث إيجابية فإن أدمغتهم أظهرت مستويات أعلى من النشاط في المنطقتين المذكورتين، كما أن لنشاط الدماغ في هاتين المنطقتين علاقة متبادلة مع أداء المتطوعين أثناء تعبئة استبيان نفسي.

ولعلّ أعظم موقف للتفاؤل هو ذلك الذي صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر من مكة إلى المدينة مع أبي بكر رضي الله عنه، إذ هما في الغار وأبو بكر خائف من اكتشاف كفّار قريش لمكان توجد هما بعدما كانا قريبين من ذلك الغار، فعلمه النبي عليه الصلاة والسلام أسمى معاني التفاؤل، وذكره بالمولى عزّ وجل، يقول الغنيّ الحميد: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: 40].

إلى جانب التفاؤل فهناك خلق جعل الله له مساحة في الدماغ، وجعله في معيّنته، وهو أسمى الأخلاق للرجل المهاجر إلى ربّه، فلم ينل حظّه البهائم لنقصها، ولا تنله الملائكة لكمالها، بل كان للإنسان؛ إن الصبر، ولا يناله إلا من أوتي قلباً منيباً، وعقلاً منيراً، فلو دقق الإنسان نظره عند هذا الخلق، لوجده مصاحب لكل فضيلة، فالفعة هي صبر الإنسان على الشهوة وعلى النظر فيما حرم الله، وصبر الجهاد صبر على ملاذ الفرار نحو مناطق أكثر أمناً، فالمرابط صابر على الخوف، والتسامح صبر على لذة الانتقام، والإيثار صبر عن ملذّة الطعام والملبس والمركب، وهكذا، قال العليّ القدير: (يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ [البقرة: 153].

ولنا في الأنبياء والصالحين قدوة في هذا الخلق العظيم، والصبر لا يكون إيجابياً إلا كان في الصغر، فالتصبر يبدأ منذ الصغر، وفي علوم التربية التثنية يحثّ العلماء على تدريب

الطفل على الحرمان، فهو أحد مُحفزات الدماغ للإبداع والبحث عن البديل، فعمل الدماغ في هذا الباب كعمله في التناول، لهما نفس الخاصية، ومنطقة الإبداع في الدماغ لا تكون فعالة إلا بالصبر، ويجوز في مرحلة عمرية قصيرة تعليم الطفل الصيام، فهو مثير للدماغ في النشاط، وتحفيز هرمونات السعادة، والنشاط.

الدماغ البشري فضاء رحب وهبه الله لنا، وأوجد فيه الأدوات التي تجعل منه ذا قيمة مضافة في حياة الإنسان، بل هو الإنسان، ومن دونه فهو قريب من الحيوانية.

✓ الاستخدام الصحيح لهذه المساحة، يجعل الإنسان إيجابياً، مقبل على الحياة، والخطاب القرآني حارب كل أشكال الحزن والتوتر والقلق في المواقف، وفي سلوك الأنبياء تجاه أقوامهم، والتوتر يحفز بنسبة ثمانين بالمائة من الأمراض المزمنة، وهو القاتل الثاني بعد التسمم الغذائي كما هو مدرج في لائحة أسباب الوفاة لمنظمة الصحة العالمية.

✓ تدريب الدماغ على التناول والصبر يزيد من إيمان المسلم، ويجعله ذا صحة جيّة وبنعكس هذا على مردوده في العمل، أو في تربية الناشئة، أو على حياته الروحية وعلاقته مع الخالق سبحانه.

الدماغ فضاء واسع، يستوعب السلوك الإنساني سلبيًا أو إيجابًا، فهو مكان يحمل دلالات مثله مثل الأماكن الوجودية الأخرى التي ترى أو الخفية. وتندرج جميعًا في قوله تعالى على لسان موسى لما سُئل عن رب العالمين قال: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه:50]

الختمة

تبيّن أنّ النصّ القرآني الخالد، قد مُرست عليه بعض المفاهيم الجارحة التي أضحت مثلاً تجارياً، كالإعجاز البياني، والإعجاز العلمي، وغيرها وهي سوء أدبٍ مع الله ومع القرآن الكريم، لأنّ لفظ إعجاز يُفصد به أنّ الله أراد أن يُعجز خلقه فأتاهم بهذا الكلام ليبين لهم وجه ضعفهم وأنّ ما بلغوه، من معارف قد أظهرها الله، وهنا يُمكن الحكم على القرآن بهذا تصوّر أنّه يملك الحقيقة الأبدية، ولكن الأصل هو أنّ كلام الله تحت أو منجم لا تنتهي دُرّهُ ولا تتوقّف، والدليل ما قاله المتين: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٦٩﴾) [الكهف:109]، فيمكن القول أنّ كلّ ما توصّل إليه الإنسان معرفة لإتّما هو ليزداد إيماناً بالله ويأتي القرآن الكريم تصديقاً لتلك التنبّؤات، وعند كلّ قراءةٍ لكتاب الله، تنكشفُ لديك هذه المعارف، ومن هنا نفهم قوله تعالى: (سَرَّيْهِمْ عَائِيَّتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا ﴿٥٣﴾) [فصلت:53]، ومن هنا يمكن الإجابات ما طرحناه في المُقدّمة:

القرآن الكريم كلامٌ أنزل بلسانٍ عربيٍّ وهذه المسألة تحتاجُ إلى دراسةٍ تحليليّة، فكلامُ الله أنزله الله بعدما وصل اللسان العربي لمرحلة النضج، وبعد تناقحه بين أفواه النّقلة، وبعدما وجدَ ضالّته الفكريّة في الإبداع الشعري الذي هو بالأساس اختزال معرفي للسان وفق نظمٍ بنائيّة قائمة على جمال إيقاع الصّوت، ومنه فاللفظ القرآني حيويّ من الدّاخل يمكن قراءته بعديد المفاهيم التي توصّل إليها الفهم المعرفي البشري. وعند التّفسير يمكن الاحتكامُ إلى الفهم اللّساني، فيزيلُ الغموضَ عن كثيرٍ من الأشياء

القرآن الكريم ظاهرة فنيّة لغويّة متجدّدة حيويّة، بمعنّى أنّه يسير عبر الزّمن دون موته، لأنّه أولاً يُحاكي الكون، ويتحدّث عن أثر الله تعالى في مخلوقاته، وجديرٌ بالإنسان التّطوّر لأنّ الغاية الماديّة من خلقه الإعمار، وبالتالي سيصل على حقائق مجرّدة في الكون، وسينفد من أقطار السّماء، ليصل إلى فهم العالم، لأنّ الله وضع له مساحة تفكيرٍ واسعة باستطاعته

ان ينفّتح على العوالم وعلى النفس البشريّة، ففهم النصّ القرآني يختلف من جيلٍ إلى جيلٍ، حسبَ حظّه من العلم في تلك الفترة الزّمنيّة.

وبالرجوع إلى التّفسير، يتّضح حكم في جدليّة التّفسيرات والتّأويلات، فنجد ابن كثير متأثّر بفكر الصّحابة رضوان الله عليهم، وتأثّرهم للقرآن، ففي أحيان كثيرة يكون تفسيرهم للظاهرة الكونيّة تفسيراً انطباعياً وليس قائماً على مناهج معرفيّة رصينة، فهل يُمكن أن نجترّ فهم الصّحابة للكون مع أنّنا في عصرٍ لحق العلم مبلغ وتوسّعت مدارك الإنسان إلى ما وراء العالم، وإذا أتينا إلى الرّازي وجدناه متأثّر بمذهبه الشافعي ولانتمائه لمدرسة الأشاعرة، فهو ذهب إلى الاستدلال العقلي للمجرد الكوني، ويذهب هذا المذهب كلّ من عاصروه، وتوجّه الرّازي العقلي أملتها الظروف التي كان مُحاطاً بها من معارف، خاصّة أنّه جاء في فترة نقاء العلم وتصنيفها، وبهذا ترجم فكره التّأويلي للقرآن انطلاقاً من ثقافته المعرفيّة والجوانب الفكرية التي خاض فيها الكلاميون، وإذا ألّقينا نظرة إلى العصر الحديث وجدنا على سبيل المثال مفكرين هو الإمام ابن عاشور، والشّعراوي، وكلاهما متأثّر بالبعد الصّوفي والوجداني، وكذا البعد المعرفي للعلوم، فأردا انتاج تصوّر جديد للقرآن من منطلق تأملات فكريّة بعيدة عن أيّ منهج. ومن المفسّرين من سلك سبيل اللّغة والخاطرة في تفسير القرآن، ويعدّ الإعجاز العلمي إن صحّ المصطلح عن أصحابه، هو في نهاية المطاف قراءة لكلام الله وليست حقيقة مُجرّدة، فالنصّ القرآني لا يجب أن نحكم عليه بالموت

أمّا عن زاوية المكان:

المكان في حياة الإسلام: لعب دوراً فعّالاً وجاداً بدءاً بالغار الذي تنوب فيه كل معاني التّأمل وأعمال العقل، فالإسلام كان محلّه وعاءه الصلب هو نمط تفكير النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعقله الفريد الذي خالف أجداده وأهله وقبيلته التي تقدّس الغريزة والميل إلى العصبيّة واجترار تفكير الأجداد وأعمالهم عكس تفكير الرسول صلى الله عليه وسلم الذكيّ والأوسع.

طبيعة المكان في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم: يحمل صنفين أوله الفضاء الضيق الذي كان مكة، فبالرغم من أنه على حالة جيدة من الناحية الوجدانية، ولكن كان ضيقاً من الناحية الدعوية، لأسباب عدة فالحاجة لتغيير المكان ضرورة ملحة لاستمرار الدعوة، والتضحية بالمشاعر والأحاسيس نتساءل عن دور المكان كحيز لبث الرسالة الخالصة الخالدة، فتبين أن مكة هي في الأصل محلّ العبادة، وإنما انطلق الإسلام ، منها لأنها امتداد لدعوة إبراهيم عليه السلام الحنفية ، وهي أحبّ البقاع عند الله، وبها البيت المعمور، ولم تكن رسالة الإسلام في أي بقعة أخرى من بقاع الأرض، لأن الأماكن تلك بها شرائع سماوية أصلاً كالنصرانية و اليهودية، ومادام الإسلام هو الجامع و المانع والمبطل لتلك الشرائع المحرفة، فلا بد أن لا يصطدم بعقل منحرف متعجرف أصلاً، أما ما جاورها من حضارات كالهندية والفرعونية والهندية، يرجع بالأساس إلى أن الإسلام دين نقاء وأخلاق، فلا بد أن يجد الأرض الخصبة لذلك وهي أرض العرب، والعقل العربي الأنسب له.

أما عن دلالات الأماكن في الخطاب القرآني: من الجانب الثقافي بعد استشفاف الفهم الثقافي للتفسير القرآني: فقد وجدناها مقسمة بشكل عجيب أفقياً وعمودياً وكذا فنياً، ونقصد بالأفقي ما يتعايش معه الإنسان من فضاءات وأماكن كونية وجودية منها ماهو مسخر له ومنها ماهو غائب عن الأنظار كالنجم الثاقب والنجم الطارق، وهي أماكن يقدمها الله للإنسان مشاهدة لتدل على ما غاب عنه من القوة والحكمة والعظمة، فالقوة على وجود القوي والعظمة علّة وجود العظيم والحكمة دليل على وجود الحكيم. أما عمودياً فهي أماكن غير متصلة بالإنسان مباشرة وإنما هي اختبار لإيمانه وقوة عقيدته، ويمكن أن نطلق عليها أنها فضاءات غيبية يتصل بها الإنسان في عالم آخر غير الذي يشاهده ويلمسه ويحس به، هي في خياله كما صوّرها له رب العالمين، وهي مرتبطة بالعالم الأزلي الجنة والنار.

مفهوم المكان في الفهم القرآني: قد يعتقد بعض الدارسين للنصوص القرآنية في جانبها المكاني، هو ظهور المكان باثناً كالسماء والأرض، وما فيهما من أماكن كالشمس والقمر،

والنجوم، أو الجبال والأنهار، ولكن هذه الدراسة قاصرة، ويجهل بالقرآن، إلى حدّ التزييف، قد يظنّ عبثاً أنّ هذه الأمكنة منفصلة على أمكنة أخرى تحمل في طيّتها نفس الخصوصية للمكان، ولذا يجب تصحيح المفهوم والرؤية الصحيحة للمكان في الخطاب القرآني:

✓ استعمال المكان مرتبطٌ أساساً بعملية الخلق، والأداء من بعد الخلق،

✓ العلاقة الموجودة بين الأمكنة في الخطاب القرآني، هي علاقة وطيدة تجمعها ثلاثة أشياء، أولاً مساحة الوجود، والأداء الوظيفي العملي لها، وأخيراً لكل مكان خصوصياته التي تدلّ عليه.

✓ ومن هذا الباب اكتشفنا جملة من الأفكار والفوائد واللمسات البيانية من خلال هذه الدراسة مايلي:

أ/ البعد اللساني وعلاقته بالمكان: لا يستخدم القرآن الكريم اللفظ اللساني استخداماً عبثياً، أو تركيباً نحوياً يولي به أهميةً لجانب الإمتاع ويُهمل الجوانب الخاصة بالمعرفة البشرية، ففي علم الله الأزلي، إدراك بالتطور الذي سيحدثه الإنسان في نفسه والكون، ولذا استخدام القرآن للسان العربي هو استخدام له علاقةً وطيدة بالمعرفة البشرية، فاللفظ يرقى إلى أعلى درجات الدقة في الفهم، وتأثير السياق فيه تأثير عجيب والشاهد على سبيل المثال لا الحصر؛ قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٥٠﴾) [لقمان:10]، ويمكن أن نذكر الأفعال المرتبطة بالمكان نحو: (خلق، جعل، ألقى، مدّ وبنى) وهكذا.

ب/ الأفراد والجمع وعلاقتهم بالمكان: نجد الخطاب القرآني في كثير من الآيات يُردّ بعض الفضاءات بلفظ مفردٍ وأخرى بلفظ جمع، ومنها كلمة سماءٍ وسماواتٍ،

ج/ توظيف فعلي (خلق، وجعل) في الخطاب القرآني وأثرهما على المكان: كل مكان في الخطاب القرآني إلا وله علاقة بهذين الفعلين، والباحث في الأوجه الدلالية لاستنباط الفهم الصحيح لكلام الله يجد بأن هذين الفعلين يُسهّلان الفهم الصحيح للقرآن الكريم، وإذا بحثنا في المدلول اللساني للفعل خلق وعلاقته بالنص القرآني لوجدنا بأنه يُلامس وجود شيء من العدم، ولكن له أصل، الإنسان كائن وجودي من العدم، ولكن أصله تراب، و الجن كائن أيضا من العدم وأصله النار، بينما الفعل جعل هو في الخطاب القرآني يُلامس معنى تكوين الشيء من الشيء المخلوق

د/ استخدام ألفاظ الأثر والفاظ الأصل وعلاقتهما بالمكان: ونقصد بالأصل هو مايلي: في الفهم المعرفي للإنسان الشمس والقمر أصل ثابت لتولد النور، بينما الأثر يكمن في النهار والليل،

هـ/ البعد اللساني للأفعال وعلاقتها بالاكشافات المعرفية: تدور فكرة غير اسلامية تنتمي إلى دوائر ماسونية تدّعي بأن الأرض مسطحة، فكل الألفاظ المتعلقة بالأرض في كلام الله لها صلة بدوران الأرض، كما ذكرنا عن آية الأرض في كلام الله، فنجد الله قد وظّف هذه الأفعال عن الأرض (دحى، طحى، مهدّ، كور) وغيرها هي تنتمي إلى معاني الاستمرار والشدة، ويمكن فهم فعل ورد في هذا الإطار يثبت وجود شكل دائري للأرض يُثبت نظرية الأرض ببيضاوية تدور حول نفسها؛ انظر قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾) [الفرقان: 45-45]،

ومن جملة من تهينا إليه أمكننا أن نستعرض بعض التوصيات التي بإمكان الباحثين الخوض فيها وهي:

✓ الحاجة إلى تفسيرٍ واسعٍ إن صحَّ المُصطلح للقرآن الكريم بعيد عن النَّحت في الماضي، وينطلق من الأبعاد المعرفية التي توصل إليه الفكر البشري، ويبتعد عن

ذاتية وانطباع الشخص، ومقصده من الاستدلال، لأنه سيبنى فهمه وقراءته استناداً إلى القوة الحافظة له، وكذا تأثره بالثقافة المذهبية التي ينتمي إليها، وقد اقتصر تفسير القرآن وخضع لنفس منهج السلف في التحليل، ينطلق منها المفسر من السور بشكل تراثي، ولم نرى تفسيراً ينطلق من الكليات إلى الجزئيات، بل تفسير عمدي ينطلق من جزئيات الآيات، فنحن نحتاج تفسيراً في فهم التوحيد، وفهم الشرائع، والعبادات، وموجبات النجاة، وبهكذا يبسط الفهم القرآني على عامة الناس من وهبهم الله قليلاً ونزراً من العلم، وفي هذا لا يحتاج إلى أن يفسر جميع القرآن بل من له علاقة بالكليات التي هي محل التفسير والتأويل.

✓ بعض الدراسات تحتاج إلى إعادة فهم جديد وصياغة مخالفة، وإلى بحث مستجد منها تأثير اللسان العربي في فهم النصوص الشرعية مثل لفظ الطاعة، والحرام، والوجوب، فالقرآن يتقن استخدام اللفظ اللساني في مقامه الصحيح، فلفظ أنزل عليكم، وحرّم عليكم ليست في ميزان شرعي واحد، وكذلك لفظ الاجتناب ✓ من الدراسات الأدبية التي تحتاج إلى بحث مستفيض،

1. هي علاقة الأفعال بالسياق القرآني.
2. والضمير والعائد في الخطاب القرآني.
3. وتأثير الأبعاد اللسانية للكلمة في المعارف العلمية المتوصل إليها.
4. وكذلك تأثير الأنساق الثقافية على التفسير.

قائمة

المصادر والمراجع

المصحف الشريف: القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم

كتب السنن النبوية:

1. أحمد ابن الحسين أبو بكر البيهقي، الاعتقاد، تح أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
2. محمد ابن اسماعيل البخاري، الصحيح، تح جماعة من العلماء، المطبعة الكبرى الأميرية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1999.
3. مسلم بن الحجاج أبو الحسين، الصحيح، تح محمد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي، القاهرة، مصر، ط1، 1974.

القواميس والمعاجم:

1. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح، ابن سلام هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1979.
2. ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1990.
3. الزبيدي، تاج العروس، تح، جماعة من المختصين، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط1، 2003.
4. مجد الدين ابن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2003.
5. محمود أبو القاسم ابن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تح عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط1، 2000.

المصادر:

1. ابن إسحاق الكندي، رسائل فلسفية، تح محمد أبو ريدة، مطبعة الاعتماد، القاهرة، مصر، ط1، 1369 هجرية.
2. ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1998.
3. ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، تح محمد شاكر، دار الرسالة، القاهرة، مصر، ط1، 2000.
4. ابن رجب الحنبلي، روائع التفسير، تح أبي معاذ طارق ابن عوض الله، دار العاصمة للنشر، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2001.
5. ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار التونسية للنشر، تونس، تونس، ط1، 1984.
6. ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، د. ت.
7. أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تح زيد الدين أبو الفضل العراقي، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1، 2005.
8. أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، تح سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، د. ت.
9. أبو حامد الغزالي، معراج القدس في معرفة النفس، تح سليمان دنيا، دار الآفاق، بيروت لبنان، ط2، 1975.

10. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الفكر، بيروت لبنان، ط1 2000
11. أحمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر، ط1، د، ت.
12. اسماعيل ابن عمر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1، 2000.
13. اسماعيل ابن عمر ابن كثير، قصص الأنبياء، دار الفيحاء، دمشق، سوريا، ط1، 1421هـ، 2001م.
14. جار الله بن محمود الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، مطبعة الليسي، النجف، العراق، ط1، 1993.
15. جمال الدين ابن محمد ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط1، 2000.
16. حمد ابن محمد ابن ابراهيم الخطابي، شأن الدعاء، تح، أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، القاهرة، مصر، ط1 د، ت
17. زغلول النجار، الأرض في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 2007
18. السيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1312 هجرية
19. الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العمية، بيروت لنان، ط1، 1983
20. شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1963.
21. الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1997.
22. عبد الرحمن ابن ناصر السعدي، تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1، 2003.
23. عبد الكريم أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تح عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، دار الشعب، القاهرة، مصر، ط1، د.ت.
24. فخرالدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت لبنان، ط1، 1981
25. القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تح محمود عبد الإلاه سعد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 1997
26. محمد ابن صالح العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ط1، دار الثريا للنشر، جدة، المملكة العربية السعودية، 2003.
27. محمد ابن محمد ابن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح عبد الله ابن عبد المحسن التركي، دار الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
28. محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2007
29. محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1، 2019.

قائمة المصادر والمراجع

30. محمد بن أحمد أبو ریحان البیروني، الآثار الباقية من القرون الخالية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2000.
 31. محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، دار المكتبي، دمشق سوريا، ط1، 2005.
 32. محي الدين ابن عربي، حلية الإبدال، وقفية الأمير غازي، عمان الأردن، ط1، 2010.
 33. زغلول النجار، المفهوم العلمي للجمال في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط10، 2008.
 34. زغلول النجار، الأرض في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 2007.
- الدواوين:
1. ابن خفاجة الأندلسي، الديوان، تح عبد الله سترة، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
 2. امرؤ القيس، الديوان الشعري، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1998.
 3. ذي الرمة، الديوان، تح عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، جدة، السعودية، ط1، 1987.
 4. عمرو ابن كلثوم، الديوان، تح اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1991.
- المراجع:
1. أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ. بيروت. دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 2008.
 2. احمد يوسف، القراءة النسقية، سلطة البنية ووهم المحادثة، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط 1، 2007.
 3. إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الميتافيزيقيا، النهضة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، د، ت.
 4. جميل حمداوي، النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، تطوان، المغرب، ط1، 2015.
 5. عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي عند العرب، الهيئة المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1989.
 6. عبد الرحمن بدوي، الإنسان الكامل في الإسلام، ديوان المطبوعات، الكويت، الكويت، ط2، 2002.
 7. عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001.
 8. علي الجارم ومصطفى أحمد أمين، البلاغة الواضحة، دار البشري، الاسكندرية، مصر، ط1، 2010.
 9. عمرو الشريف، كيف بدأ الخلق، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط1، 2011.
 10. فرج الله عبد الباري. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، دار الأفاق العربية للنشر والتوزيع والطباعة، القاهرة، مصر، ط1، 2004.
 11. مالك ابن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2000.
 12. محي الدين ابن عربي، حلية الإبدال، وقفية الأمير غازي، عمان الأردن، ط1، 2010.

13. هشام ابن محمد الكلبي، الأصنام، دار الكتب المصرية، ط3، 1995، القاهرة مصر.

المراجع المترجمة:

1. إيميل دوكايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، تر محمود محمود قاسم، راجعه السيد محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1 1988م.
2. ايموال كانط، أسس ميتافيزيقيا الأخلاق، تر نازلي إسماعيل ومحمد فتحي الشنيطي، دار موفم للنشر، ط1، د، ت.
3. رينيه ديكارت، مبادئ الفلسفة، تر نداء عادل، دار إبداع للنشر، ط1، 2019.
4. ستيفن هوكينغ، تاريخ موجز للزمن، تر، مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للنشر، القاهرة مصر، ط1، د ت.
5. غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية لدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط5 2000.
6. فريدريك نيتشه، الفلسفة في العصر التراجيدي عند الإغريق، ترجمة محمد الناجي، دار أفريقيا الشرق، الرباط المغرب، ط1، د، ت.
7. فريدريك نيتشه، نشأة الفلسفة في فترة المأساة الإغريقية، تر سهيل القش، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1983.
8. كليمان موازان، التاريخ الأدبي، تر: حسن طالب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
9. وشيهيكو إيزوتسو، ترجمة: هلال محمد الجهاد. الله والإنسان في القرآن - علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم. دار المنظمة العربية للترجمة، ط1. 2007.
10. المجلات والدوريات:
11. محمد عبيد الله، النقد الثقافي والدراسات الثقافية، مجلة أفكار، وزارة الثقافة الأردنية، عمان، العدد، 207، 200.

الفهرس

المحتوى	الصفحة
كلمة شكر	//
مقدمة:	أ-هـ
الفصل التمهيدي:	07
1- أثر المكان في تشكّل العقل قبل الوحي وبَعْدَه:	08
أولاً: الذهنية الجاهلية قبل الوحي:	08
ثانياً: العقل العربي بعد نزول الوحي	12
2- بنية المكان الوجودي في الخطاب القرآني	25
أولاً: الفضاء الخارجي للوجود:	25
ثانياً: الفضاء الخفي للوجود:	30
3- بنية المكان القصصي والجغرافي:	34
أولاً: المكان القصصي	34
ثانياً: المكان الجغرافي:	35
4- بنية المكان الغيبي:	40
أولاً: دار النعيم:	40

44	ثانيا: دَارُ الشَّقَاءِ
48	الفصل الأول: الأنساق الثقافية للفضاءات المنفردة.
49	➤ تمهيد عن النسق الثقافي:
57	➤ المبحث الأول: دلالات السماء كفضاء منفرد:
73	➤ المبحث الثاني: دلالات كفضاء منفرد:
92	➤ المبحث الثالث: دلالات السماء والأرض كفضاء مقترن:
107	الفصل الثاني: الأنساق الثقافية والمعرفية للآيات الكونية:
108	➤ تمهيد: ماهية المعرفة:
113	➤ المبحث الأول: الأنساق الثقافية للآيات الكونية:
133	➤ المبحث الثاني: الأنساق المعرفية لآية السماء وما فيها
163	➤ المبحث الثالث: الأنساق المعرفية لآية الأرض وما فيها
195	الفصل الثالث: الأنساق الثقافية والمعرفية لفضاء الكون والإنسان.
196	➤ تمهيد: منهجية القرآن المعرفية:
208	➤ المبحث الأول: الأنساق الثقافية والمعرفية لبذرة الحياة
231	➤ المبحث الثاني: الأول النسق الثقافي للكينونة البشرية
247	➤ المبحث الثالث: الأنساق الثقافية والمعرفية للوجدان البشري

278	الخاتمة:
293	قائمة المصادر والمراجع
301	فهرس المحتويات